
كتابى
٤٠
اعترافات
چان چاك روسو
الجزء الثانى
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد


اعترافات
جان جاك روسو
الجزء الثانى

الجزء الأول .. فى سطور

ولدت فى (جنيف) ــ فى عام ١٧١٢ ــ لأب كان يعمل فى صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلا من أن يكرهنى أبى لذلك ، فإنه أسرف فى حبى ، لأننى كنت شديد الشبه بأمى .

تنبه احساسى قبل ان يتنبه فكرى . ثم عمد ابى إلى اسلوب خطر، إذ اشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة .

اضطر ابى إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجا من عمتى ، والذى ارسلنى مع ابنه إلى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ونتلقى العلم على يديه ويدى اخته التى نبه عقابها إياى، المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

على أثر عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمانينة طفولتى .. والحقنى خالى بمكتب موثق للعقود، فلم استسغ هذا العمل . ومن ثم الحقنى كصبى ــ أو تلميذ صانع ــ لدى حفار ينقش على المعادن . وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبزوننى ، وتعلمت السرقة ، سيما وان معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فإننى لم اكن اسرق حبا فى المال او الحيازة .. وإلى جانب هذا ، اشتد إقبالى على القراءة حتى أصبح تهوسا .

واضطرتنى قسوة معلمى ، ونفورى من حيــاتى ، إلى الهرب من (جنيف) .. وانتهى بى المطاف إلى سيدة محسنة فى (انيسى)، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى « مدام دى فاران » ، التى أشفقت على ، وأرسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكيا .

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفــاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى مدام دى فاران ، التى رحبت بى ، وانزلتنى من نفسها منزلة الابن، وأفردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، برغم انكماش مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الأيام صرت أدعوها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقــد أوفدتنى « ماما » مرة لأعاون السيد « لوميتر » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم .. وقد رافقته إلى (ليون)، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع ، لفرط إسرافه فى الشراب، ففررت منه فى إحدى هذه النوبات ، وعدت إلى (انيسى) .. وإذا بى أفاجأ بأن « ماما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

وأقمت فترة مع « فينتور » ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل ، كان يزعم انه موسيقى موهوب . وكان لبقــا ، أنيقا ، مرحا ، يستهوى الإناث .. وعرفنى « فينتور » بالضــابط

القضائى ـ السيد سيمون ـ الذى أبدى ارتياحا لصحبتى .. وكان مشوه الجسم ، شديد القصر ، كبير الرأس ، لذلك كان يحلو له أن يعقد مقابلاته فى الصباح ، وهو فى السرير ، حيث تبدو رأسه ذات القسمات الجميلة ، ولا يبدو جسده المشوه !

والآن .. تابع قــراءة هــذا الحــادث الذى بدأ به « روسو » الكراسة الرابعة من اعترافاته .

* * *

وفى ذات صــباح ، بينمــا كان ينتظر فى سريره ـ أو بالأحرى ، على سريره ـ أصحاب الشكايات ، وقد ارتــدى قلنسوة بيضاء بديعة ، مزدانة بزائدتين عريضتين من شريط وردى اللون ، وصل أحد الريفيين وطرق الباب . وكانت الخادم قد خرجت ، فما أن سمع السيد سـيمون الطرقات ، حتى صاح مجيبا : « ادخل ! » .. وهو إذا لفظ الكلمة بشىء من القوة ، انبعثت بصوته الحاد . ودخل الرجل، فبحث عن مصدر هذا الصوت النسوى ، وما أن رأى فى السرير قلنسوة وشريطا، حتى هم بالخروج ثانية ، وهو يقدم « للسيدة » اعتذارات بالغة ! فغضب السيد سيمون ، ولم يزدد إلا صراخا ، فتأكد الريفى من فكرته، ورأى انه قد أهين ، فأغرقه بالشتائم ، وقال له ـ لها : «لست سوى فاجرة»، وإن السيد الضابط القضائى لا يضرب بحياته المنزلية مثلا طيبا ! .. واشتد بالسيد سيمون الغضب ، فلم يجد فى متناول يده سوى الوعاء الذى يقضى فيه حاجته فى المخدع ، فأوشــك أن يلقى به على رأس الرجــل المسكين ، لولا أن وصلت مدبرة بيته !

وإذا كان هذا القزم الضئيل قد شوهت الطبيعة جسمه ، فإنه لقى تعويضا فى الناحية العقلية التى كانت بطبيعتها مقبولة، والتى كان يعنى بتحسينها . ومع انه كان يقال عنه إنه كان مستشارا قضائيا موفقا ، إلا انه لم يكن يحب مهنته . فألقى بنفسه فى غمار الأدب ، واستطاع ان يوفق . ولقد اكتسب — فوق كل شىء — تلك اللباقة السطحية ، تلك الموهبة التى تبعث فى المجتمع طرافة ، سيما مع النساء ! .. كان يعرف عن ظهر قلب دقائق المأثورات(١) وما إليها ، وقد أوتى فن إبرازها ، وربطها بالمناسبات ، وإحاطتها بجو غريب ، وكأن الذى حدث مثلا منذ ستين عاما ، حكاية وقعت بالأمس ! وكان ملما بالموسيقى ، يحسن الغناء — بدرجة مقبولة — بصوته الآدمى . وقصارى القول انه أوتى مواهب أجمل مما يحتاج إليه مستشار قضائى. وكان بحكم مجاملته لنساء (انيسى) قد أصبح «موضة» بينهن، فكن دائما يسحبنه وراءهن وكأنه « نسناس » صغير! .. حتى لقد راح يزعم انه كان محظوظا لدى النساء ، فكان ذلك يطربهن كثيرا . وكانت سيدة منهن — تدعى « مدام ديبانى » — تقول إن اقصى ما يشتهيه هو ان يقبل امراة فى ركبتها(٢) !

ولما كان مطلعا على كتب الأدب الراقى، ومشغوفا بالحديث عنها ، فإن كلامه لم يكن ممتعا فحسب ، وإنما كان مفيدا

---

(١) مجموعات الأقوال المأثورة عن بعض الشخصيات ، والطرائف الصغيرة المرتبطة بهم .

(٢) تعنى انه لا يستطيع ان يصل الى فمها او يدها لقصر قامته !

أيضا . وعندما اكتسبت — فيما بعد — ميلا إلى الدروس ، انميت معرفتى به ، فأفدت من ذلك نفعا عظيما . وكنت أسعى فى بعض الأحيان من (شامبيرى) — حيث كنت إذ ذاك — لكى أزوره . وقد أذكى هو فى هذا الميل وشجعه ، وكان يقدم لى بعض الإرشادات فى مطالعاتى، فكنت كثيرا ما أنتفع بها. ولسوء الحظ ، كانت تعمر هذا الجسد الواهن نفس مرهفة الحس ، وقد قدر له — بعد ذلك بسنوات — أن يرتكب ذنبا لا أدريه ، مما أحزنه ، فلم يلبث أن قضى نحبه . ويا لها من خسارة ! لقد كان — يقينا — رجلا طيبا ، ضئيل الجسم ، يبدأ المرء بالضحك منه ، ثم ينتهى بأن يحبه ! .. ومع أن حياته لم تكن مرتبطة بحياتى فى شىء ، إلا أننى أخذت عنه بعض دروس نافعة ، فرأيت — بدافع من العرفان — أن أخصه بحيز من ذكرياتى !

* * *

وما أن انصرفت من لدن السيد سيمون ، حتى هرعت إلى الشارع الذى كانت الآنسة جالى(١) تقيم فيه ، ممنيا نفسى بأن أرى شخصا ما ، داخلا أو خارجا ، أو فاتحا إحدى النوافذ، على الأقل ! .. ولكن شيئا ما لم يلح لى ، ولا هرة ! بل إن البيت ظل — طيلة مكثى هناك — مغلقا تماما ، وكأنه لم يعمر قط بسكان . وكان الشارع صغيرا ومقفرا ، فكان وجود إنسان

---

(١) اعتاد العاشق فى اسبانيا أن يقف على قارعة الطريق، بالقرب من دار الحبيبة ويمضى فى العزف على « الجيتار » عسى ان تفطن الى وجوده ، فتنعم عليه بنظرة !

كفيلا بأن يستلفت الأنظار .. وبين الحين والحين ، كان يعبره مار ، ما بين داخل أو خارج من البيوت المجاورة . وقلقت من اجل نفسى ، فقد تراءى لى انهم كانوا يحدسون سر وجودى هناك . وامضتنى هذه الفكرة ، فقد اعتدت دائما أن أقدم شرف وطمأنينة أولئك الأعزاء لدى ، على مسراتى الخاصة .

واخيرا ، مللت لعبة العاشق الأسبانى(١) ، ولما لم يكن ثمة «جيتار» معى ، فقد اعتزمت الكتابة إلى الآنسة دى جرافينرييه . وكنت افضل أن اكتب لصديقتها ، ولكنى لم اكن أجسر ، فضلا عن انه كان من الأليق أن أبدأ بالتى كنت مدينا لها بمعرفة الأخرى ، والتى كنت معها اكثر الفة ومودة . وما أن أتممت رسالتى ، حتى حملتها إلى الآنسة « جيرو »(٢)، وفقا لما اتفقت عليه مع الآنستين عندما افترقنا ، وكانتا هما اللتان اقترحتا هذه الطريقة للتراسل . ذلك أن الآنسة «جيرو» كانت تحترف تنجيد الأثاث ، وقد عملت حينا فى دار السيدة جالى ، ومن ثم فقد كان دخول الدار مباحا لها . والحق أن اختيار هذه الوسيطة لم يبد لى موفقا ، ولكنى خشيت الا ترشح الفتاتان سواها ، إذا انا اثرت اى اعتراض . كما اننى لم اجرؤ على القول بانها كانت تعمل لحسابها الخاص .. وكنت اشعر بالضعة لمجرد

---

(١) الآنسة جالى والآنسة دى جر افينرييه هما الفتاتان اللتان قضى روسو معهما يوما بهيجا فى الريف (الصفحات ٢١٦ ـ ٢٢٢ من الجزء الاول) .

(٢) « جيرو » هى صديقة لوصيفة مدام دى فاران المدعوة « ميرسيريه »، وكانت « جيرو » قد اعلنت على روسو الحب ، برغم نفوره الشديد منها !

انها كانت تجرؤ على أن تظن نفسها ـ فى نظرى ـ منتمية إلى نفس جنس الآنستين ! على اننى ارتضيت فى النهاية هذه الوسيلة لنقل رسالتى ، نظرا لعدم وجود سواها ، فأقدمت عليها برغم كل النذر !

واكتشفت « جيرو » سرى منذ الكلمة الأولى، فما كان هذا بالأمر العسير . وإذا كانت الرسالة الموجهة إلى فتاة شابة لا تشى بحقيقة الأمر ، فإن ارتباكى واضطرابى كانا كفيلين بأن يكشفا سرى ! وقد يخطر بالبال ان هذه المهمة لم تبعث فى نفس الفتاة أى سرور ، ولكنها فى الواقع تكفلت بها ، وأدتها بأمانة. وفى الصباح التالى هرعت إليها ، فوجدت الرد المنشود . وما كان أسرعنى فى الخروج من دارها، لأقراه واقبله دون حرج! .. وليست بى حاجة إلى أن افيض فى هذا ، ولكن الذى يحتاج إلى إسهاب ، هو مسلك الآنسة جيرو ، فقد وجدت فيه من الرقة والاعتدال فوق ما كنت اتوقع . كانت من الحكمة بحيث رأت انها ـ بسنى عمرها السبع والثلاثين ، وبعينيها الشبيهتين بعينى الأرنب ، وبأنفها الملوث بالسعوط ، وبصوتها الحاد الرفيع وبشرتها السوداء ـ لا يمكن أن تبارى فتاتين شابتين ، مليئتين بالحسن ، وفى كل ابهة الجمال .. ومن ثم لم تشأ أن تغدر بهما ، كما لم تشأ أن تخدمهما .. بل إنها آثرت أن تفقدنى على أن تساعدهما على الظفر بى . (كما سيبدو فيما بعد) .

٧ ـ سنة ١٧٣٢

وكانت « ميرسيريه » قد بدأت تفكر ـ منذ فترة ـ فى العودة إلى (فريبور) ، إذ انها لم تلق اى نبأ من سيدتها ،

وما لبثت الآنسة جيرو أن حملتها على أن تقرر ذلك ، بل إنها ذهبت إلى أبعد من هذا ، فأدخلت فى روعها أن من المستحسن أن يرافقها أحد إلى دار أبيها ، ورشحتنى لذلك(١) ورأت ميرسيريه الصغيرة ـ التى لم أكن بغيضا إليها ـ أن الفكرة صالحة ، فإذا بهما تحدثانى عنها ، فى نفس اليوم ، وكأنها أمر مفروغ منه ! ولما لم أجد ما يضيرنى فى البعد بهذه الطريقة ، فقد وافقت ، وأنا أحسب أن الرحلة لن تعدو ثمانية أيام على الأكثر . ولكن جيرو لم تحسب مثل هذا الحساب ، وتولت تدبير كل شىء . واضطررت إلى أن أكشف حالتى المالية ، فسرعان ما دبرت لى الموارد، إذ تكفلت «ميرسيريه» بنفقاتى . وتعويضا عن الخسارة التى تكبدتها بذلك ، وافقت الفتاة ـ تحت إلحاحى ـ على أن ترسل متاعها البسيط مقدما ، بينما نقطع نحن الرحلة على الأقدام ، متمهلين .. وهذا ما حدث !

ولكم يؤسفنى أن أتحدث عن فتيات عديدات كن يحببننى .. على أننى لا أجد مبررا لأن أزهو بما خرجت به من كل هذه الغراميات .. ومن ثم أرى أن بوسعى أن أقول الحق دون تمويه ، فإن الآنسة « ميرسيريه » ـ التى كانت أصغر سنا وأقل دهاء من جيرو ـ لم تبد قط نشاطا كالذى كانت هذه تبديه لإغرائى ، وإنما كانت تقلد لهجتى وصوتى وإلقائى ، وتردد كلماتى ، وتولينى من الاهتمام ما كان ينبغى أن أوليها

(١) كانت هذه هى الحيلة التى لجأت اليها « جيرو » الماكرة كى تبعد روسو عن محبوبته ، وعن المدينة كلها !

إياه .. كما كانت تحرص دائما على أن ننام فى حجرة واحدة ، إذ كانت شديدة الخوف .. ! وهى الفة نادرا ما تقف عند هذا الحد ، فى رحلة تجمع بين شاب فى العشرين وفتاة فى الخامسة والعشرين ! .. ولكن هذا هو عين ما جرى ، فى هذه المناسبة . فبالرغم من أن « ميرسيريه » لم تكن دميمة ، فإن سذاجتى لم تقف عند حد أننى لم أعمد ـ خلال الرحلة بأسرها ـ إلى النطق بأتفه مغازلة فحسب ، وإنما بلغت بى السذاجة أننى لم أفكر ـ مجرد تفكير ـ فى شىء من هذا القبيل على الاطلاق! .. بل إنه لو خطرت لى هذه الفكرة ، لعجزت لغبائى عن أن أفيد منها ! فما كنت لأتصور كيف تنام فتاة وشاب فى فراش واحد .. وكنت أخال أن الاستعداد لمثل هذا الأمر الرهيب يتطلب قرونا من الزمن ! .. وإذا كانت ميرسيريه البائسة قد طمعت ـ حين تكفلت بنفقاتى ـ فى جزاء من هذا القبيل ، فقد خاب حدسها ، لأننا بلغنا (فريبور) بنفس الحال التى غادرنا بها (انيسى) تماما !

وعندما مررنا بجنيف، لم أسع لزيارة أحد، ولكنى أوشكت أن أصاب بمرض من فرط انفعالى وأنا أعبر جسور المدينة . ابدا ما اقبلت على هذه المدينة ، ولا ولجت أبوابها دون أن أحس بقلبى يغوص وقد أثقلته الانفعالات الطاغية ! .. فبينما كانت صورة الحرية النبيلة تسمو بروحى ، كان التفكير فى المساواة والاتحاد ورقة الخلق يؤثر فى نفسى إلى الدرجة التى تدمع عندها عيناى ، ويبعث فى حسرة محتدمة على كونى قد حرمت من كل هذه النعم ! .. وكم كنت مخطئا ! ـ ولكن، كم

كان هذا الشعور طبيعيا ، كذلك ! ــ لقد كنت أخال اننى أرى كل هذه النعم فى وطنى ، لأننى كنت أحملها فى سويداء قلبى !

واضطررنا إلى أن نمر بمدينة (نيون) .. فهل كنت أجتازها دون أن أرى أبى الشيخ ! ؟ لو اننى فعلت ، لكنت خليقا بأن أموت ــ بعده ــ كمدا !.. ومن ثم تركت ميرسيريه فى الفندق وذهبت لأراه، برغم كل الاعتبارات. آه ، ما كان أشد خطئى إذ اوجست من لقائه !.. فما أن اقتربت منه ، حتى تفتح قلبه لعواطف الأبوة العارمة .. وكم بكى عندما تعانقنا !.. ولقد ظن ــ بادىء الأمر ــ اننى عدت إليه ، فأنبأته بقصتى وبخطتى .. وعارض فى وهن ، وراح يبصرنى بالأخطار التى كنت أعرض نفسى لها ، قائلا إن أقصر النزوات والحماقات هى أفضلها ! .. وفيما عدا ذلك ، لم يداخله أى ميل إلى غصبى على البقاء ، وأرى أنه كان فى ذلك على حق ، ولكن من المؤكد انه لم يبذل كل ما كان فى وسعه لاستبقائى ، إما لأنه كان يرى ــ فى تقديره ــ أن من واجبى الا أعود إليه ، وإما لأنه كان فى حيرة .. ولعله لم يكن يدرى ما الذى يفعله بى فى مثل تلك السن التى بلغتها!.. ولقد علمت فيما بعد أنه كون لنفسه عن زميلتى فى الرحلة فكرة كانت جد ظالمة وجد بعيدة عن الحقيقة ، ولكنها ــ على أية حال ــ كانت طبيعية ! .. وكانت زوجة أبى امرأة طيبة ، على شىء من الدهاء والقول المعسول ، فقد تظاهرت بالرغبة فى استبقائى للعشاء .. ولكنى لم أمكث ، وإن وعدتهما بأن أبقى معهما وقتا أطول عند عودتى ، وعهدت إليهما بحزمة متاعى الصغيرة ، التى كنت قد أرسلتها فى مركب ، والتى كنت حائرا

فيما أفعله بها . وفى اليوم التالى رحلت مبكرا ، وأنا جد مغتبط بأننى رأيت والدى ، وأننى وجدت الجراة على أن أؤدى واجبى!

* * *

ووصلنا بسلام إلى (فريبور) ، وكانت مغازلات الآنسة ميرسيريه قد خفت عندما اقتربت نهاية الرحلة . حتى إذا وصلنا ، لم تعد تبدى لى سوى الفتور ، كما أن أباها ــ الذى لم يكن غارقا فى الرخاء ــ لم يولنى حفاوة بالغة ، فاضطررت إلى أن أقضى ليلتى فى إحدى الحانات .. وزرتهما فى اليوم التالى ، فدعوانى إلى العشاء ، وقبلت الدعوة .. ثم افترقنا دون ما دموع ، وعدت فى المساء إلى حانتى . وفى اليوم التالى رحلت ، دون أن أدرى وجهة أقصدها !

وكانت تلك فرصة أخرى أرادت فيها العناية أن تمنحنى ما كنت أبتغيه لكى أنفق أيامى فى هناء .. فلقد كانت ميرسيريه فتاة جد طيبة ، ولئن لم تكن بالذكية ولا بالجميلة ، فانها لم تكن ــ كذلك ــ بالدميمة ، كما أنها كانت على شىء من النشاط وكثير من الرزانة . وكانت تتعرض أحيانا لنوبات قصيرة عابرة، تقضيها فى بكاء ، ولكن هذه النوبات لم تكن تفضى قط إلى عواقب عاصفة . ولقد كانت الفتاة صادقة الميل نحوى، فكان بوسعى أن أتزوجها دون عناء ، وأن أحترف مهنة أبيها(١) ــ إذ أن ميلى للموسيقى كان كفيلا بأن يجعلنى أحب هذه المهنة ــ وأن أستقر فى (فريبور) ، وهى بلدة صغيرة ، قليلة الجمال ،

---

(١) يفهم من هذه العبارة أن أباها كان موسيقيا .

ولكنها تضم قوما طيبين . وكنت بذلك سأحرم بلا شك من متع عظيمة ، ولكنى كنت خليقا بأن أعيش فى سلام إلى آخر لحظة فى حياتى . ولقد كنت جديرا بأن أعرف ــ أكثر من أى امرىء آخر ــ انه لم يكن ثمة ما يبرر التردد لحظة واحدة ازاء صفقة كهذه !

وعلى اثر رحيلى من (فريبور) لم ارجع إلى (نيون) ، وإنما اتجهت إلى (لوزان) ، فقد شئت أن اتملى بمنظر البحيرة الجميلة التى تشاهد هناك فى اكثر أجزائها اتساعا . ولم تكن أغلب البواعث الخفية التى تقرر مسلكى ، بواعث جامدة .. فإن المناظر التى تشاهد عن بعد ، نادرا ما كانت من القوة بحيث تحفزنى على العمل ، كما أن المستقبل غير المضمون كان يجعلنى انظر دائما إلى المشروعات التى يتطلب تنفيذها اجلا طويلا ، نظرتى إلى حيل خادعة ! .. وانا بطبعى ، انغمس فى الآمال كغيرى ، طالما كانت لا تكبدنى شيئا ، اما إذا كانت تتطلب رعاية مستمرة فإننى لا أمضى وراءها .. وأن اقل متعة صغيرة تعرض لى ، وتكون فى متناول يدى ، لأكثر إغراء لى من مباهج الفردوس .. على اننى استثنى من ذلك، المتعة التى يعقبها الم، فهى لا تغرينى قط ، لأننى لا احب سوى المسرات النقية الخالصة ، وهذه لا يحظى بها المرء اطلاقا عندما يعرف انه إنما يهيىء نفسه للندم !

وكنت بحاجة ماسة إلى بلوغ أى مكان .. فكان أقرب الأماكن هو افضلها ! ولما كنت قد ضللت طريقى ، فقد الفيتنى ــ ذات مساء ــ فى (مودون)، حيث انفقت القليل الذى كان قد تبقى

معى ، ما عدا عشرة « كروتزرات »(١) لم تلبث أن تبددت فى الغذاء ، فى اليوم التالى .. حتى إذا بلغت ــ فى المساء ــ قرية صغيرة على مقربة من (لوزان) ، دخلت إحدى الحانات وليس فى جيبى دانق ادفعه لقاء مبيتى ، بل إننى لم اكن ادرى ما قد يكون من أمرى ! وكنت جد جائع ، فتجلدت وطلبت عشاء ، كما لو كنت أملك ان ادفع ثمنه ! .. ثم أويت إلى مضجعى دون أن احمل هما ، فاستغرقت فى نوم هادىء . وبعد أن افطرت ــ فى الصباح التالى ــ وحاسبت مضيفى ، أردت أن اترك له صديرى رهنا، لقاء السبعة « باتزات »(٢)، التى بلغتها نفقاتى. ولكن الرجل الطيب ابى ، وقال إنه ــ والحمد للسماء ــ لم يجرد أحدا قط من ثيابه ، وأنه ما كان ليشرع فى ذلك لقاء سبعة « باتزات » ، ومن ثم فقد بات فى وسعى أن احتفظ بصديرى ، على أن ادفع له حقه متى استطعت . وقد تأثرت لطيبته ، ولكن بدرجة اقل مما كان ينبغى ، واقل مما صرت أشعر كلما تذكرت الأمر بعد ذلك . وقد بادرت بارسال المبلغ إليه فيما بعد ، شاكرا ، مع رجل ائتمنته .. على اننى بعد خمس عشرة سنة ، مررت بلوزان ، فى عودتى من إيطاليا ، فشعرت بأسف صادق لكونى نسيت اسم الحانة واسم الرجل، وإلا لذهبت لرؤيته ، ولحظيت بسرور حقيقى وانا اذكره بالخير الذى أسداه ، وأثبت له انه لم يضعه فى غير موضعه ! .. وكم من خدمات أكثر أهمية ، بلاشك ــ ولكنها بذلت بكثير من

---

(١) « لكروتزر » عملة المانية ونمسوية قديمة .

(٢) « الباتز » عملة المانية أخرى .

التفضــــل والمن ــ بدت لى أقل استحقاقا للعرفان من العمل الإنسانى البسيط الذى بذله هذا الرجل الطيب فى غير زهو !

وفيما كنت أقترب من (لوزان) ، رحت أتأمل الضيق الذى وجدتنى فيه ، والوسائل التى استطيع بها أن انتزع نفسى منه دون أن اطلع زوجة ابى على تعاستى ! .. واخــذت أقيس نفسى ــ فى سفرى على الأقدام ــ بصديقى فنتور عندما وصل إلى (انيسى) ، فإذا بهذه الفكرة تبث الدفء فى نفسى ، حتى أننى اعتزمت أن أكون « فنتور » صغيرا فى (لوزان) ، دون أن يجول بخاطرى أننى لم أوت لطفه ولا مواهبه .. وقررت أن أقــوم بتدريس الموسيقى التى لم اكن على علم بهــا ، وأن ازعم أننى وفــدت من باريس ــ التى لم ازرها قط ! ــ وبناء على هــذا المشروع البديع ، شرعت فى السؤال عن فندق صغير أستطيع أن أجد فيه مقرا مريحا بأبخس النفقات . إذ لم تكن ثمة مدرسة للشمامسة أستطيع أن أعرض عليها معونتى ، كما أننى لم أكن من الغباء بحيث اندس وسط أهل الفن ! .. ودلنى البعض على شخص يدعى « بيروتيه » كان يؤجر غرفا فى داره . وتجلى لى أن هذا الـــ « بيروتيه » كان خير رجل فى العالم ، وقد أحسن اســـتقبالى . وإذ رويت له أكاذيبى الصغيرة ــ كما دبرتها ــ وعدنى بأن يذكرنى لدى الناس ، وأن يسعى ليأتينى ببعض التلاميذ . وقال لى إنه لن يسالنى أجــرا إلا بعد أن اكتسب نقودا . وكان أجر المنزل خمسة دنانير بيضاء(١) ، وهو أجر

(١) (ECL) عملة قديمة من الفضة .

زهيد بالنسبة للمكان ، ولكنه كان باهظـــا بالنسبة لى . ولقد نصحنى « بيروتيه » بأن أكون فى البداية « نصف نزيل » ، أى أن أستمتع بالإقامة ، وبغداء يتألف من حساء دسم ــ لا أكثر ــ وبعشاء طيب فى المساء .. فوافقت . كان هذا الـــ « بيروتيه » المسكين يقدم لى كل هـــذه الميزات عن طيب خاطر ، وعن خير نية فى الدنيا . ولم يكن يدخر وسعا كى يساعدنى !

ترى لماذا قدر لى ــ وقد وجدت كل هؤلاء الناس الطيبين فى صباى ــ الا اجــد منهم فى كبرى إلا القليلين ؟ .. أيكون نوعهم قد انقرض ؟ .. لا ، ولكن الطبقة التى اضطر إلى البحث عنهم فيها اليوم ، لم تعد عين الطبقة التى كنت اعثر عليهم فيها من قبل ! ذلك لأن نداء الأحاسيس الفطرية يزداد ترددا وانبعاثا لدى الناس الذين لا يسمع التمشدق بالعواطف العظمى بينهم إلا قليلا ! .. أما بين أبناء الطبقات الراقية ، فإن المشاعر الفطرية تختنق تماما ، فلا يعلو سوى صوت المصلحة أو الغرور !

***

وكتبت لأبى من (لوزان) ، فأرســـل حزمة متـــاعى ، وخصنى بنصائح رائعة ، كان خليقا بى أن أفيد منها .. وكنت قد لاحظت أننى أصبحت أتعــرض لفترات من الشرود لم أدر مأتاها ، بل كنت لا أشعر خلالها بنفسى ــ وهنا أيضا بادرة من البوادر التى تستحق الملاحظة ! ــ ولكى تدرك إلى أى مدى كنت أفقــد رأيى ، وإلى أى مدى « فنترت » نفسى ــ أى تشبهت بفنتورا ، إن صح هذا القول ــ يكفى أن نرى كم من الأعمـــال الجنونية كنت آتيهــا معا ، وفى آن واحد ! فها أنا قد غدوت

مدرسا للغناء دون أن أعرف كيف أفك رموز أى لحن! ــ إذ أن الشهور الستة التى قضيتها مع « لوميتر » لم تكن بالكافية، حتى إذا كنت قد أفدت منها ! ــ ثم أننى كنت قد تعلمت على يدى أستاذ ، وكان هذا كافيا لأن يجعلنى لا اكترث بالدراسة(١) !

وإذ صرت باريسيا من(جنيف)، وكاثوليكيا فى بلد بروتستانتى، فقد رأيت أن على أن أغير اسمى كما غيرت عقيدتى ووطنى، إذ كنت أحاول دائما أن أصبح أقرب ما اكون إلى المثل العظيم الذى اتخذته . وقد كان يسمى نفسه « فنتور دى فيلنيف » ، لذلك قلبت اسم « روسو » إلى « ووسور »، أو «فوسور»، وأسميت نفسى « فوسور دى فيلنيف » ! ولقد كان « فنتور » على معرفة بالتلحين ، وإن لم يقل شيئا عن ذلك .. اما أنا ، فبدون معرفة بالتلحين ، رحت أفتخر ببراعتى أمام العالمين .. وبدون أن استطيع تمييز أبسط أغنية دارجة ، جعلت من نفسى ملحنا !

.. ولم يكن هــذا كل ما فى الأمر ، فقد قدمت إلى السيد دى تريتوران ــ وكان أستاذا فى القانون، أحب الموسيقى واعتاد أن يقيم حفلات موسيقية فى داره ــ فشئت أن أعرض عليه « عينة » من براعتى ، وعكفت على وضع لحن لإحدى حفلاته فى جراة بالغة ، وكأننى كنت أعرف كيف أؤدى المهمة ! .. وواظبت على العمل خمسة عشر يوما فى إعداد هذا اللحن الجميل ، وفى نسخ صورته ، وفى تقسيم اجزائه ، وفى توزيعها باطمئنان بالغ ، وكأن اللحن تحفة متناسقة . وأخيرا ! ــ الأمر

---

(١) لعله يقصد أن الفن لم يكن موهبة أصيلة فى نفسه .

الذى لا يكاد يصدق ، ولكنه الحقيقة الخالصة ــ أردت أن اتوج هذا الإنتاج الراقى بشكل يليق به ، فأضفت فى النهاية أغنية بديعة كانت تتردد فى الطرقات ، ولعل الناس أجمعين لا يزالون يذكرونها ، وهذا نصها :

« يا للفجور .. ويا للجحود .. ماذا ؟ !

هل غدرت حبيبتك كلاريس بأهلك ؟ ! .. الخ » .

وكان فنتور قد لقننى هذا اللحن ــ الذى يعزف على أوتار الطبقة الثانية ــ مع كلمات أخرى بذيئة ، تذكرته بفضلها . ومن ثم أضفت فى نهاية لحنى هذا المقطع وأنغامه الخفيضة ، وقدمت الجميع على أنها من ابتداعى ، فى اعتداد ، وكأننى كنت أخاطب قوما من سكان القمر !

واجتمعت الفرقة لعزف لحنى ، فشرحت لكل فرد نوع الحركة ، وطريقة الأداء ، وعلامات تكرار الأجزاء ، وانهمكت فى ذلك كل الانهماك .. فقضى العازفون خمسا أو ست دقائق ــ بدت لى كخمسة أو ستة قرون ! ــ فى تنسيق أصواتهم وآلاتهم، حتى أصبحوا أخيرا على تمام الأهبة ، فوقعت الضربات الخمس أو الست إشارة الانتباه ، على منضدة القيادة ، بأنبوبة بديعة من الورق ، فساد الصمت ، وبدأت أوقع الوقت فى عظمة وجد .. وبدأ العزف ! ــ لا ، فمنذ ظهور « الأوبرا » الفرنسية على قيد الحياة ، لم تسمع مثل تلك « الضوضاء » ! ـ ومهما يكن قد خالج القوم بصدد براعتى المزعومة ، فإن الأثر كان أسوأ من أى شىء توقعوه ! .. وكتم الموسيقيون ضحكهم ، بينما فتح المستمعون عيونهم عن آخرها ، وكانوا على استعداد لأن

يسدوا آذانهم ، ولكنهم لم يعـرفوا لذلك وسـيلة . وعمـد العازفون القسـاة ــ رغبـة فى السخرية ــ إلى العزف بشدة كافية لأن تخرق طبلة أذن الأصم(١) !

وأوتيت من الجلد ما يكفى لأن أستمر فى دورى دون توقف ، وإن راح عرقى يتصبب غزيرا فى الواقع .. فقد منعنى الحياء ، فلم أجرؤ على الهرب ، بينما كان الجميع جالسين .. وعلى سبيل العزاء ، سمعت المساعدين المحيطين بى يتهامسون بعضهم فى آذان بعض ، أو ــ بالأحـرى ــ فى أذنى .. فقـال أحدهم : « ليس فى هذا ما يطاق ! » .. وقال آخـر : « يا لها من موسيقى جنونية ! » .. وقال غيره : « يا للحن الشيطانى » .. مسكين أنت يا جان جاك ، فما طمعت ــ فى تلك اللحظة ــ فى أن تنتزع أنغامك هذه يوما، وفى حضرة ملك فرنسا وحاشيته بأسرها ، تمتمات الدهشة، وتصفيق الإعجاب.. وأن تتهامس النسوة الفاتنات ، فى المقصورات المحيطة بك: « يا لها من نغمات ساحرة ! .. اية موسيقى فاتنة ! .. كل هذه الأنغام تنفذ إلى القلب ! » .

على أن الذى رد القوم إلى رضاهم ، هو ذاك المقطع الذى أضفته فى النهاية .. فما أن عزفت بضع نغمات منـه ، حتى سمعت القهقهات تتصاعد من كل جانب .. وأخذ كل امرىء

---

(١) فى الأصل : تخرق اذن أحد الخمسة عشر عشرينا .. كناية عن نزيل المستشفى الذى يحمل هذا الاسم « الخمسة عشر عشرينا » فى باريس ، والذى انشىء فى الأصل ليأوى ٣٠٠ أعمى .

يهنئنى بذوقى الجميل ، ويؤكد لى أن هـذا المقطع كفيل بأن يذيع اسمى ، وأننى جـدير بأن تردد أنغـامى فى كل مكان . ولست بحـاجة إلى أن أصف غمى ، ولا إلى أن أعترف بأننى كنت أستحقه !

وفى اليوم التالى، جاء أحد العازفين- وكان يدعى «ليتولد»- ليرانى ، وكان من الأمـانة بحيث أنه لم يهنئنى بنجاحى .. فإذا شعورى العميق بحماقتى ، وبالخجل والندم واليأس من جـراء الحال التى انحدرت إليها ، واستحالة إبقاء قلبى مغلقا على هذه الآلام الجسيمة .. إذا شعورى هذا يحملنى على أن أفتح قلبى له ، وأن أطلق العنان لدموعى .. وبدلا من أن اكتفى بأن اعترف له بجهلى ، أفضيت إليه بكل شىء ، وسـألته أن يكتم سرى ، فوعدنى بذلك ، وبر بوعده على النحو الذى يمكن تصوره .. فما أن حل مساء اليوم ذاته ، حتى كانت (لوزان) بأسرها قد عرفت حقيقتى ! .. وكان أعجب ما فى الأمر ، أن أحدا لم يطلعنى على أنه قد عرفها ، ولا « بيروتيه » الطبيب ، الذى لم يحجم ، برغم ذلك كله ، عن إيوائى وإطعامى !

وقدر لى أن أعيش ، ولكن فى حزن غامر . وكان من جراء موقف كهذا ، أن لوزان لم تعد بالنسبة لى مقاما مسـتحبا ، فلم يقبل التلاميذ زرافات . بل اننى لم اظفر بتلميذة واحدة ، ولا بأحد من أبناء المدينة .. كل الذين ظفرت بهم كانوا اثنين أو ثلاثة من الألمان الذين كانوا من الغباء بقدر ما كنت من الجهل، وكانوا يضايقوننى إلى درجة الموت ؛ كمـا انهم لم يصبحوا ــ على يدى ــ ولو عازفين غير منتظمين .. ولم أدع إلا إلى

بيت واحد ، كانت فيه فتاة صغيرة ــ كأنها الحية ــ أخذت تتلهى باطلاعى على كثير من القطع الموسيقية التى كنت عاجزا عن قراءة « نوتاتها » ، ثم كانت تنطلق فى الغناء ــ بعد ذلك ــ أمام مدرس الموسيقى لتريه كيف يجب أن يؤدى اللحن ! .. وكنت لا أكاد أستطيع أن أقرأ أى لحن من أول نظرة ، حتى أننى ــ فى الحفلة الباهرة التى تحدثت عنها ــ كنت عاجزا عن أن أتتبع العزف لحظة لأتبين ما إذا كان العازفون يحسنون توقيع ما كان تحت بصرى ، وما كنت قد ألفته بنفسى ! ، أم لا !

وفى غمرة هذا الهوان ، وجدت عزاء فى الأنباء التى كنت أتلقاها بين وقت وآخر ، من الصديقتين الفاتنتين .. فلقد اعتدت دائما أن أجد طاقة مرفهة عظيمة فى الجنس الآخر ، فليس ثمة ما يواسى أحزانى ــ فى المصائب ــ أكثر من أنثى لطيفة تعنى بى ! .. على أن هذا التراسل لم يلبث أن انقطع بعد ذلك بقليل ، ولم يقدر له أن يستأنف قط .. غير أن ذلك كان فى الواقع ذنبى ، إذ أننى عندما غيرت محل إقامتى ، أغفلت أن أبعث إليهما بعنوانى ، ثم نسيتهما تماما ، إذ كنت مضطرا ــ بحكم الضرورة ــ إلى أن أفكر فى نفسى باستمرار !

***

ولقد انقضى وقت طويل دون أن أتحدث عن « ماما »(١) المسكينة . على أن المرء يكون جد مخطىء إذا ظن أننى نسيتها

(١) رأينا فى الجزء الأول كيف أطلق روسو على راعيته الكريمة « مدام دى فاران » لقب « ماما » .

هى الأخرى ، فإننى لم أكف عن التفكير فيها ، وعن الشوق إلى العثور عليها ثانية ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وإنما لما هو أكثر من ذلك .. لحاجتى القلبية ! .. كان تعلقى بها ــ برغم ما كان عليه من حرارة وحنان ــ لا يحول بينى وبين أن أحب غيرها ، ولكن على غير شاكلة حبى لها ! فإن النساء جميعا كن ــ على السواء ــ مدينات بعاطفتى لمفاتنهن .. أما هى ، فكانت لها مكانة فريدة ، دونها مكانات الأخريات ، فلم تكن مفاتنهن تعدو عليها .. بل لقد كان من المحتمل أن تهرم « ماما » وأن تصبح دميمة ، وأنا مقيم على حبها ، دون أن يقل شغفى بها ! .. كان قلبى قد نقل إلى شخصها كل التمجيد الذى استشعره من قبل نحو جمالها ، فما كانت عواطفى نحوها لتتغير قط ــ مهما يكن التغير الذى يتعرض مظهرها له ــ طالما ظلت فى جوهرها هى بذاتها ! .. وكنت أدرك تماما أننى مدين لها بالفضل ، ولكنى لم أفكر فى ذلك قط ، فى الواقع .. بل كان ما فعلته وما لم تفعله من أجلى سواء عندى ، إذ أننى لم أحببها عن شعور بالواجب أو بالمصلحة الذاتية ، ولا عن خضوع وامتثال ، وإنما أحببتها لأننى خلقت كى أحبها !

.. وكنت عندما أقع فى هوى أية امرأة أخرى ، أشغل بها ــ كما ينبغى أن أعترف ــ فيقل تفكيرى فى « ماما » .. ولكنى كنت إذا ما عدت للتفكير فيها ، أفكر بنفس المتعة . وما شغلت بها قط ــ سواء كنت على حب أو لم أكن ــ دون أن أشعر بأننى لن أجد سعادة حقيقية قط فى الحياة طالما كنت بعيدا عنها !

ومع أننى لم أسمع عنها منذ أمد طويل ، إلا أننى لم أعتقد قط بأننى فقدتها تماما ، ولا خطر لى أن من الممكن أن تكون قد نسيتنى . وكنت أقول لنفسى : « إنها لن تلبث أن تعلم — طال الوقت أو قصر — بأننى شريد وحيد ، فتبعث إلى بما يطمئننى إلى أنها على قيد الحياة . ولسوف ألقاها ثانية ، بكل تأكيد . وفى انتظار ذلك ، كان من بواعث البهجة أن أعيش فى مسقط رأسها ، وأن أجتاز الطرقات التى سارت فيها من قبل ، وأمر بالبيوت التى كانت تقيم فيها .. كل هذا بالحدس والتخمين ، فقد كان من نزواتى الحمقاء أننى كنت عاجزا عن أن أحمل نفسى على الاستعلام عنها ، بل عن ذكر اسمها ، ما لم تكن ثمة ضرورة ماسة .. كان يبدو لى أننى بذكر اسمها أشى بكل ما كانت تلهمنى إياه من مشاعر ، وأن فمى يفضح سر قلبى ، وأننى أحرجها بطريقة ما ! كذلك خيل الى أن تحرجى عن ذكر اسمها كان يمتزج بشعور ما كان يوحى إلى بأن أحدا قد يذكرها أمامى بسوء ! فقد كان الناس يكثرون من الحديث عن الخطوة التى اتخذتها ، ويمسون سلوكها بعض الشىء . لذلك آثرت ألا أسمع أى شىء يقال عنها — على الاطلاق — خوفا من أن يقال لى ما لا أتوق إلى سماعه !

ولما لم يكن تلاميذى يشغلوننى كثيرا ، وكان مسقط رأسها لا يبعد عن (لوزان) بأكثر من أربعة فراسخ ، فقد قضيت ثلاثة أيام أو أربعة أتمشى هناك ، دون أن يفارقنى أعذب شعور عرفته . كان لمنظر (بحيرة جنيف) وضفافها البديعة سحر يأسر عينى دائما ، ولا قبل لى بوصفه .. سحر لم يكن

ينحصر فى جمال المنظر فحسب ، بل كان يشتمل أيضا على شىء أكثر جاذبية ، وأقدر على التأثير على ، والسيطرة على مشاعرى . وفى جميع المرات التى كنت أقترب فيها من مقاطعة (فود) ، كان يخامرنى شعور ينطوى على ذكرى « مدام دى فاران » — التى ولدت هناك — وأبى ، الذى عاش هناك ، والآنسة دى « فيلسون » التى استمتعت بأولى ثمار حب صباى ؛ وكثير من الرحلات البهيجة التى قمت بها فى طفولتى .. وسبب آخر — فيما يبدو لى — كان أكثر إثارة ، وأشد غموضا ، وأقوى سلطانا من كل هذه مجتمعة ! .. كانت الرغبة المتأججة فى هذه الحياة الهانئة الوادعة — التى كانت تفر منى برغم أننى ولدت لها — تتجه دائما إلى مقاطعة (فود) ، على مقربة من البحيرة ، ووسط الريف الفتان .. كنت أصبو إلى أن يكون لى بستان على شاطىء هذه البحيرة دون سواها ، وإلى أن يكون لى صديق أمين ، وامرأة لطيفة ، وبقرة ، وزورق صغير .. ولن أنعم بسعادة كاملة على الأرض ، إلا إذا تحقق لى كل هذا ! وانى لأضحك من السذاجة التى كانت تحدو بى إلى زيارة هذه البلاد مرارا ، لمجرد البحث عن هذه السعادة الخيالية ! وكنت أدهش دائما إذ كنت أجد سكانها — لا سيما النساء منهم — على النقيض مما كنت أنشد .. لكم كان يهولنى هذا التناقض ! .. أبدا لم يلح لى أن كلا من المقاطعة وأهلها قد خلق من أجل الآخر !

* * *



وفى خلال الرحلة إلى (فيفـــاى)(١) ، أطلقت نفسى ـ وأنا أتمشى على شاطىء البحيرة الجميلة ـ للشجون العذبة ، فإذا بقلبى يندفع فى شوق إلى آلاف من المفاتن البريئة ، وأترعت نفسى بالانفعالات ، فرحت أتنهد وأبكى كالطفل ! . . كم من مرة توقفت لأبكى ما شاء لى البكاء ! . . وكنت أجلس على حجر كبير ، أتسلى بتأمل دموعى وهى تتساقط فى الماء !

وفى (فيفاى) ، أقمت فى (لاكليه) . وفى خلال اليومين اللذين أقمتهما هناك دون أن أرى أحدا ، تملكنى نحو هذه المدينة حب ظل يلاحقنى فى كل رحلاتى ، وحملنى ـ فى النهاية ـ على أن أقيم فيها معبدا لأبطال خيالى القصصى . وإنى لأقول ـ عن طيب خاطر ـ لأولئك الذين أوتوا ذوقا وحسا مرهفين : « اذهبوا إلى فيفاى . . وجوسوا خلال ريفها ، وتأملوا المواقع ، وتمشوا على ضفاف البحيرة ، وقولوا ما إذا كانت الطبيعة لم تخلق هذا البلد الجميل لجوليا وكلير وسان برو(٢) . . ولكن ، لا تتوقعوا أن تجدوهم هناك ! » . . على أنى أعود الآن إلى قصتى :

ولما كنت كاثوليكيا ، وقد اعترف بى كذلك ، فقد رحت أمارس جهارا ، وبدون إحجام ، العقيدة التى اعتنقتها . . وكنت ـ فى أيام الأحد ذات الجو المعتدل ـ أحضر الصلاة فى (اسين) ، على مبعدة فرسخين من (لوزان) ، فكنت أقطع

(١) مسقط رأس مدام دى « فاران » .

(٢) هؤلاء الثلاثة من أبطال قصة روسو الطويلة (هيلويز الجديدة) .

المسافة علاوة فى صحبة غيرى من الكاثوليكيين ، أذكر منهم بالذات شخصا كان يحترف التطريز الباريسى ، وقد غاب عنى اسمه . ولم يكن الرجل باريسيا على شاكلتى ، وإنما كان باريسيا صميما ، من باريس . وكان تقيا مؤمنا ، ذا فطرة طيبة كأبناء (شامبانى) ، وقد بلغ من حبه لوطنه أنه لم يسمح لنفسه البتة بالارتياب فى أننى باريسى مثله ، خوفا من أن يضيع على نفسه فرصة الحديث عن باريس . وكان لدى السيد « دى كروزا » ـ مساعد الحاكم ـ بستانى من باريس كذلك ، ولكنه كان أقل طيبة ، وكان يرى أن من المساس بكرامة بلده أن يجرؤ أى إنسان على أن ينتمى إليها دون أن يكون له حق فى هذا الشرف ! . . لذلك راح يمطرنى بالأسئلة ، وهو يبتسم فى خبث ، بلهجة الواثق من أنه لن يلبث أن يكتشف غلطة ! ولقد سألنى مرة عن أبرز معالم (مارشيه نيف) ، فأجبته اعتباطا وتخبطا ، كما يستطيع المرء أن يحدس . وجدير بى اليوم ـ وقد أقمت فى باريس عشرين عاما ـ أن أكون على دراية بها ، ومع ذلك ، فلو أن أحدا وجه الى سؤالا كهذا السؤال ، لما كان ارتباكى فى الإجابة أقل منه يومئذ ، ولاستنتج أى امرىء ـ من هذا الارتباك ـ أننى لم أقطن باريس قط ! . . إلى هذا الحد يكون المرء معرضا للاعتماد على ظواهر خداعة ، ولو صادف الحقيقة !

وليس بوسعى أن أذكر تماما مدة إقامتى يومئذ فى (لوزان)، فإننى لم أحمل من هذه المدينة ذكريات حية . كل ما أدريه هو أننى حين وجدت نفسى عاجزا عن كسب عيشى فيها ،

نزحت منها إلى (نيوشاتيل) حيث قضيت الشتاء . ولقد كنت فى هذه المدينة أكثر توفيقا ، إذ كان لدى تلاميذ ، كما أننى كسبت منها ما مكننى من الوفاء بدينى لصديقى الطبيب « بيروتيه » ، الذى كان من النبل بحيث أرسل الى ــ فى الماضى ــ حزمة متاعى الصغيرة ، برغم أننى كنت مدينا له بمبلغ كبير !

ولقد تعلمت الموسيقى ــ دون قصد منى ــ خلال تدريسى إياها . وكانت حياتى على قدر لا بأس به من الدعة . كانت حياة تكفى لأن يقنع بها أى رجل عاقل ، ولكن قلبى القلق كان يصبو إلى شىء آخر .. وكنت فى أيام الأحد والأيام الأخرى التى اخلو فيها من العمل ، أرتع فى الريف والغابات المجاورة ، دون أن أكف عن التجوال ، والتأمل ، والتنهد . وكنت إذا ما خرجت من المدينة ، لا أعود إليها قبل المساء . وفى ذات يوم ، كنت فى (بودرى) فولجت فندقا لأتناول الغداء ، وإذا بى أرى رجلا طويل اللحية ، ذا حلة بنفسجية على النمط اليونانى ، وقلنسوة من الفرو ، وقد أوتى مظهرا ينم عن نبل . وكان يجد عناء ــ فى أكثر الأحيان ــ فى أن يجعل القوم يفهمون ما كان يبغى ، إذ كان لا يكاد ينطق بغير لهجة ركيكة لا سبيل إلى تمييزها تقريبا ، ولكنها كانت شديدة الشبه باللغة الإيطالية ، ولا لغة غيرها . وفهمت كل ما كان يقول تقريبا ، وكنت الوحيد الذى فهم . ولم يجد الرجل بوسعه أن يوضح ما يبغى إلا بتبادل الإشارات مع صاحب الفندق ومع أبناء المنطقة ، فوجهت إليه بضع كلمات بالإيطالية ، ففهمها تماما ، فنهض وعانقنى فى

ابتهاج . وسرعان ما تعارفنا ، ومنذ تلك اللحظة عملت مترجما له . وكان غداؤه شهيا ، فى حين ان غدائى كان أقل من المتوسط ، فدعانى إلى أن أشاركه طعامه ، فلم أبد تمنعا يذكر . وبينما كنا نشرب ونتكلم ، وثقنا من تآلفنا ، فلم ينته الغداء حتى أصبحنا لا نطيق افتراقا ! .. وروى لى أنه كان قسا يونانيا ، و « ارشيمندريت » لبيت المقدس ، وقد أوفد لجمع اكتتابات من اوربا لتجديد كنيسة المهد المقدس . وأطلعنى على شهادات بديعة من القيصرة والإمبراطور ، كما كان لديه كثير غيرها من ملوك آخرين . وكان جد راض عما جمع حتى ذلك الحين ، ولكنه كان قد صادف فى ألمانيا صعوبات لا تخطر بالبال ، إذ أنه لم يكن يفقه كلمة واحدة من الألمانية أو اللاتينية أو الفرنسية ، فكان مضطرا إلى الاقتصار على لغته اليونانية ، وعلى اللغة التركية ، واللغة الفرنجية ، مما لم يسعفه كثيرا فى البلدان التى لم يكن ملما بألسنتها . لذلك عرض على أن أصحبه فأكون له سكرتيرا ومترجما . وإلى جانب أن حلتى البنفسجية المتواضعة ــ التى كنت قد ابتعتها حديثا ــ لم تكن تنسجم مع مركزى الجديد ، فإننى لم أوت من أناقة المظهر سوى قسط بسيط ، مما جعله يعتقد أن الظفر بى أمر غير عسير . ولم يكن فى ذلك مخطئا ، فسرعان ما تم اتفاقنا ، إذ أننى لم أطلب شيئا ، فى حين أنه وعد بالكثير .. وبدون احتياط ، ولا ضمان ، ولا معرفة ، أسلمته قيادى .. وهكذا رحلت من الغد فى طريقى إلى بيت المقدس !

وبدأنا رحلتنا بمقاطعة (فريبور) ، فلم يخرج منها بطائل .



وبينما كنا نشرب ونتكلم ، وثقنا من تآلفنا ، فلم ينته الغداء حتى أصبحنا لا نطيق افتراقا ! ..

إذ ان كرامته الكنيسية لم تكن لتسمح له بأن يقوم بدور المتسول ، ولا بجمع الاكتتابات من خاصة القوم . على أننا عرضنا مهمته على مجلس الشيوخ ، فمنحه مبلغا صغيرا . ومن هناك يممنا شطر (بيرن)، وهبطنا فى فندق « اوفوكون »، وكان فى ذلك العهد نزلا طيبا ، يؤمه وسط طيب . وكانت المائدة حافلة ، ومحفوفة بالعناية . وكان قد انقضى وقت طويل اضطررت فيه إلى النزول بالفنادق الرخيصة ، ومن ثم فقد كان لزاما على أن أهيىء نفسى لتعويض ما فاتنى ، وكانت الفرصة سانحة ، فاستغللتها . ولقد كان السيد « الارشمندريت » نفسه رجلا طيب المعاشرة ، مشغوفا بالمائدة، مرحا ، يجيد الحديث مع من كانوا يفهمونه . ولم تكن تنقصه المعرفة ، وكان يجيد عرض بلاغته اليونانية بكثير من البراعة . وحدث ذات يوم انه أصاب اصبعه بجرح عميق ، بينما كنا نكسر بندقا عقب الغداء ، فلما انساب الدم دافقا، عرض أصبعه على الحضور وهو يقول ضاحكا : « الا أبدوا إعجابكم يا سادة .. إنه دم بيلا سجى ! »(١) .

ولم تكن خدماتى له قليلة النفع فى (بيرن) ، فلم أخرج منها بنتيجة سيئة كما كنت أخشى ، وإنما كنت أكثر جراة وابلغ حديثا مما لو كنت أعمل لنفسى ! .. على ان الأمور لم تجر

---

(١) نسبة الى «بيلاسجو» ، وهو عنصر عريق كان ينتشر قديما على سواحل وفى جزر شرقى البحر الأبيض المتوسط وبحر ايجه ، ويرتبط بالعنصر الاغريقى.

بالبساطة التى جرت بها فى (فريبور) ، بل كان لا بد من مؤتمرات طويلة وعديدة من كبار رجال الدولة، كما أن فحص شهادات « الارشيمندريت » لم يكن بالمسألة التى تتم فى يوم واحد . وأخيرا ، عندما تمت الإجراءات اللازمة ، كان علينا أن نعرض الأمر على مجلس الشيوخ . فذهبت مع «الارشمندريت» بوصفى مترجما له ، فطلب إلى أن أتكلم ، وكان هذا آخر ما توقعت ، فما خطر ببالى أن ثمة ضرورة ـ بعد المحادثات الطويلة مع الأعضاء فرادى ـ إلى مخاطبة المجلس مجتمعا، وكأنما لم يدر من قبل أى حديث ! .. فتصوروا ارتباكى !.. تصوروا رجلا خجولا مثلى ، يطالب بأن يتكلم لا أمام ملأ من الناس فحسب ، وإنما أمام مجلس شيوخ (بيرن) بالذات .. وأن يتكلم ارتجالا ، وليست أمامه مذكرة واحدة معدة .. كان هذا ما أوشك أن يقتلنى ! .. ومع ذلك فإننى لم أجبن ، وإنما عرضت فى وضوح وإيجاز مهمة الارشيمندريت ، وأطريت تقوى الأمراء الذين ساهموا فى الاكتتاب الذى جاء لجمعه ، ولكى أثير حمية مثل هؤلاء السادة الفخام ، قلت إنه من غير المتوقع إزاء كرمهم المألوف أن يكونوا أقل من أولئك .. ثم حاولت أن أثبت لهم أن مثل هذا العمل الخيرى يهم المسيحيين جميعا ، دون ما تمييز بين مذاهبهم .. وانتهيت بأن وعدت كل من يساهم فيه ببركات من السماء !

ولن أقول إن خطابى كان مؤثرا ، بيد أنه صادف ـ بالتأكيد ـ هوى لدى المستمعين . وعند مغادرة الاجتماع ، تلقى « الارشيمندريت » تبرعا سخيا مشرفا، فضلا عن إطراءات لذكاء

سكرتيره ، نعمت بمهمة ترجمتها إليه ، وإن لم أجسر على أن أنقلها بنصها ! وكانت هذه هى المرة الوحيدة فى حياتى التى تكلمت فيها على الملأ وأمام صاحب سلطان ، ولعلها أيضا المرة الأولى التى تكلمت فيها بلباقة وإجادة . فأى تحول فى تصرفات نفس الرجل ! .. لقد ذهبت أخيرا ـ منذ ثلاث سنوات ـ إلى (ايفردون) لأزور صديقى القديم السيد « روجان » ، فاستقبلت وفدا جاء يشكرنى إذ أهديت مكتبة البلدة بعض الكتب .. والسويسريون خطباء بارعون ، ومن ثم انطلق هؤلاء السادة فى الخطابة لى ، ووجدتنى مضطرا للرد ، ولكنى ارتبكت بدرجة كبيرة حين شرعت فى ذلك، واضطربت أفكارى إلى درجة جعلتنى أوجز وأجعل نفسى موضع السخرية ! .. وعلى الرغم من أننى خجول بطبيعتى ، إلا أننى كنت جسورا فى بعض الأحيان ـ فى شبابى ـ ولكنى لم أكن كذلك قط فى كبرى .. فكلما ازددت تعرفا على المجتمع ، قلت قدرتى على أن أكيف نفسى وفقا لأساليبه فى الحديث !

* * *

وإذ غادرنا (بيرن) ، ذهبنا إلى (سولير) ، إذ ارتأى الارشيمندريت أن يجتاز ألمانيا ثانية ، عائدا عن طريق المجر أو بولندا ، وهى رحلة بالغة الطول . ولكنه لم يخش طولها ، إذ كان كيسه خليقا بأن يمتلىء خلال الطريق بدلا من أن يفرغ !.. أما أنا ، فكان سواء لدى أرحلت على جواد أو على قدمى ، فما كنت لأبتغى أفضل من الترحال بهذا الشكل ، طيلة العمر .. ولكن كان مكتوبا لى ألا أمضى فى ترحالى بعيدا !

كان اول ما فعلناه عند وصولنا إلى (سولير) هو الذهاب لتحية السيد سفير فرنسا . وكان هذا السفير ــ لسوء حظ أسقفى ــ هو « المركيز دى بوناك » الذى كان سفيرا لدى الباب العالى ، والذى قدر له أن يكون على معرفة وافية بكل ما يتعلق بكنيسة المهد المقدس . وقضى الارشيمندريت ربع ساعة فى المقابلة التى لم يسمح لى بحضورها ، لأن السيد السفير كان يفهم لسان الفرنجة ويعادلنى ــ على الأقل ــ فى اتقان الحديث بالإيطالية . وعندما خرج صاحبى اليونانى ، هممت بأن اتبعه ، ولكنى استوقفت ، إذ حان دورى لمقابلة السفير ، فقد تقدمت على أننى باريسى ، ومن ثم تحت ولاية صاحب السعادة ! وسألنى السفير عمن اكون ، وناشدنى أن اقول الحقيقة ، فوعدت بذلك ، ورجوت بأن يأذن لى بأن اخلو إليه ، فأذن لى ، وصحبنى إلى مكتبه ، وأغلق الباب . . وإذ ذاك ارتميت على قدميه ، وبررت بوعدى . . وما كنت خليقا بأن اضن بالكلام ، ولو لم أعد بشىء ، إذ كانت الرغبة المستمرة فى أن افضى بما فى صدرى تدفع قلبى إلى شفتى فى اية لحظة . . وإذا كنت قد كشفت حقيقتى دون تحفظ للموسيقى « ليتولد » فما كان من المحتمل أن الجأ إلى التكتم أمام المركيز دى «بوناك!»

وبدا عليه الاقتناع بقصتى القصيرة ، وبالصراحة التى فضفضت بها عن صدرى ، فأمسك بيدى وقادنى إلى السيدة زوجة السفير ، فقدمنى إليها ، وأوجز لها قصتى ، فتلقتنى السيدة دى بوناك فى رفق ، وقالت إننى يجب الا اترك مع ذلك الراهب اليونانى . ومن ثم تقرر أن ابقى فى الدار حتى يريا ما يمكن

أن يفعل من أجلى . ووددت أن أذهب فأودع أرشيمندريتى المسكين الذى كنت أشعر بميل نحوه ، فلم يؤذن لى ، وإنما أوفد إليه من أنباه بأننى قد احتجزت . . وان هو إلا ربع ساعة ، حتى كانت حزمة متاعى الصغيرة قد وصلت . وعهد بى إلى السيد دى لامارتنيير ــ سكرتير السفارة ــ فقال وهو يرينى الغرفة التى اعدت لى : « لقد شغل هذه الحجرة ــ فى عهد كونت دى لوك ــ رجل مشهور كان له نفس اسمك(١) ، وعليك وحدك أن تملأ مركزه من جميع الاعتبارات ، حتى يقال: روسو الأول ، وروسو الثانى ! » . . وما كان لهذا التشابه ــ الذى لم أعلق عليه أملا إذ ذاك ــ أن يستهوى مطامعى ، لو قدر لى أن أطلع على المستقبل فأرى الثمن الذى كان مقدرا على أن أدفعه من أجله يوما !

ولقد أثار قول السيد « دى لامارتنيير » فضولى ، فقرأت مؤلفات ذلك الذى شغلت غرفته . وإزاء المجاملة التى وجهت الى ، واعتقادا منى بأننى أوتيت موهبة الشعر ، نظمت أغنية فى مدح السيدة دى بوناك ، كمحاولة أولى ، على أن هذه النزوة لم يطل أمدها . . ولقد اعتدت أن أنظم الشعر جزافا ــ بين

(١) كان الشخص المقصود هو جان بابتيست روسو (١٦٧١ ــ ١٧٤١) . وكان شاعرا غنائيا فرنسيا . . وهناك « روسو » ثالث ، هو « بيير روسو » (١٧٢٥ ــ ١٧٨٥) وكان كاتبا مسرحيا . وقد قيل بهذا الصدد : « ثلاثة مؤلفين يدعون باسم روسو ، ذاع صيتهم من باريس الى روما : روسو الباريسى كان عظيما ، وروسو الجنيفى كان احمق ، وروسو التولوزى كان . . هباء ! » .

وقت وآخر ــ فهو مران لا بأس به لتدريب المرء على الرشاقة فى تكوين العبارات ، ولتحسين الأسلوب النثرى ، ولكنى لم أجد فى الشعر الفرنسى قط جاذبية كافية لأن تجعلنى أتفرغ له !

ورغب السيد دى لامارتنيير فى أن يرى اسلوبى ، فسألنى أن اكتب عين القصة التى رويتها للسيد السفير ، فكتبت له رسالة طويلة ــ سمعت أنها الآن فى حوزة السيد دى مارتان ، الذى ظل زمنا طويلا ملحقا بالسفارة فى عهد المركيز دى بوناك، والذى خلف السيد دى لامارتنيير فى عهد تولى السيد دى كورتى السفارة ! ــ ولقد رجوت السيد دى ماليشيرب أن يسعى للحصول لى على نسخة من هذه الرسالة .. وإذا قدر لى أن أظفر بها بوساطته ، أو بوساطة سواه ، فسوف توجد فى المجموعة التى ستلحق باعترافاتى .

وأخذت الخبرة التى بدأت أحظى بها ، تخفف من جموح مشروعاتى الخيالية شيئا فشيئا . فلم أقتصر ــ مثلا ــ على عدم الوقوع فى هوى السيدة دى بوناك فحسب ، بل إننى رأيت لتوى أننى لن أجد مجالا كبيرا للرقى فى دار زوجها ، إذ كان السيد « دى لامارتنيير » راسخا فى منصبه ، وكان السيد دى ماريان متربصا ليخلفه ، مما كان لا يدع لى مجالا للأمل ــ مهما يكن الحظ ــ فى أكثر من منصب مساعد السكرتير ، الذى لم يكن يستهوينى كثيرا . ومن ثم فاننى حين استشرت فيما يطلب أن افعل أبديت رغبة شديدة فى الذهاب إلى باريس . واستساغ السيد السفير هذا الرأى ، الذى بدا خليقا بأن يخلصه منى على الأقل ! .. وقال السيد دى مرفييه ، السكرتير

المترجم للسفارة ، إن صديقه السيد جودار ــ وكان ضابطا سويسريا برتبة كولونيل ، فى خدمة فرنسا ــ كان يبحث عن شخص يعهد إليه برعاية ابن أخيه ، الذى التحق بالخدمة وهو بعدُ صغير السن ، ومن ثم فقد راى أننى خليق بأن أروق له. وبناء على هذه الفكرة ، التى قبلت فى تسرع ، تقرر سفرى.. فطار قلبى فرحا ، إذ رأيت أمامى رحلة تنتهى بى إلى باريس!.. ومنحونى بعض خطابات للتوصية ، ومائة فرنك للانفاق على الرحلة ، تصحبها نصائح طيبة .. ثم رحلت !

وقضيت فى هذه الرحلة خمسة عشر يوما، أعدها بين الأيام السعيدة فى حياتى . وكنت شابا ، موفور الصحة، وكان معى مال كاف ، وآمال وافرة ، وقد انطلقت فى الرحلة على قدمى . وكنت أسافر وحيدا ، وقد يعجب المرء ــ إن لم يكن قد ألم بطباعى ــ إذ يرانى اعتبر ذلك ميزة ، فقد كانت تصوراتى الناعمة تؤنسنى ، ولم يكن بوسع الواقع أن يتمخض عن أروع من هذه التصورات التى كان يوحى الى بها خيالى المتأجج .. وهكذا كنت إذا عرض على امرؤ مجلسا فى عربة ، أو اقترب منى شخص فى الطريق ، أعبس خشية أن يهدم الصرح الذى كنت ابنيه فى خيالى أثناء سيرى ! .. على أن افكارى كانت فى هذه المرة « عسكرية » صرفة ، فقد كنت موشكا أن أكون مرافقا لرجل عسكرى ، وأن أصبح عسكريا أنا الآخر ، إذ كانت التدابير قد اتخذت لكى التحق بالمدرسة العسكرية . ورحت أتمثل نفسى فى زى ضابط ، وقد حملت ريشة بيضاء بديعة ، فأفعم قلبى بهذه الفكرة الرفيعة . وكانت لدى بعض معلومات باهتة

عن هندسة التحصينات ، فقد كان خالى مهندسا ، ومن ثم فقد اعتبرت نفسى- بطريقة ما - عسكريا بالفطرة!.. وكان قصر نظرى عقبة، ولكنها عقبة لم تزعجنى، فقد عولت على أن أعوض هذا العيب بالجلد والشجاعة . وكنت قد قرأت أن الماريشال (شومبيرج) كان قصير النظر، فلماذا لا يكون الماريشال روسو على شاكلته ؟ .. وهكذا رحت أتدفأ على حرارة هذه الأوهام حتى أننى لم أعد أرى سوى فرق من الجند ، ومتاريس ، وسلال الطوابى(١) ، والمدفعيات ، وشخصى وسط النار والدخان ، أصدر الأوامر فى هدوء ، وأنا أمسك بمنظار الميدان فى يدى ! .. ومع ذلك، فاننى عندما كنت أجتاز المناطق الريفية الجميلة ، كنت أرى الأدغال والجداول ، فيجعلنى هذا المنظر الفتان أتنهد حسرة ، وأشعر فى غمرة ابتهاجى بالمجد أن قلبى لم يخلق لمثل هذا الضجيج، وسرعان ما كنت أتمثل نفسى وسط خرافى الحبيبة — دون أن أدرى كيف انتقلت إليها — نابذا إلى الأبد أعمال مارس(٢) !

* * *

كم كذبت مشارف باريس الفكرة التى كانت لدى عنها !.. كانت المناظر التى رأيتها تزين ظاهر مدينة (تورين) ، وجمال طرقاتها ، وتناسق صفوف بيوتها ، قد جعلتنى أطمع فى مزيد

---

(١) أداة اسطوانية الشكل ، مفتوحة الطرفين ، كانت تملأ ترابا ويستعان بها فى بناء الحصون ، فى ذلك العهد .

(٢) اله الحرب ..

من ذلك كله فى باريس ، فكنت أتمثلها مدينة لها من الجمال بقدر ما لها من الاتساع ، وقد أوتيت أبهى حسن .. لا يرى المرء فيها سوى شوارع رائعة ، وقصور من مرمر وذهب !.. فلما دخلتها عن طريق ضاحية (سان مارسو) ، لم أر سوى شوارع صغيرة قذرة قميئة ، وبيوت بشعة سوداء ، وجو من الدنس والفقر ، ومتسولين ، وحوذيين ، وتجار للثياب القديمة، ومنادين يعلنون عن العلاج بالركة وعن القبعات القديمة!.. كل هذا صدمنى منذ البداية ، إلى درجة أن كل العظمة الحقيقية التى رأيتها فى باريس — بعد ذلك — لم تقو على أن تقضى على هذا الأثر الأول ، ومن ثم ظللت أكن دائما نفورا خفيا من الإقامة فى هذه العاصمة ! .. وأستطيع أن أقول إن المدة التى عشتها فيها — بعد ذلك — لم تشغل بأكملها إلا فى السعى وراء موارد تمكننى من العيش بعيدا عنها !

هكذا تكون ثمار الخيال البالغ النشاط ، الذى يتمادى إلى ما وراء مبالغات البشر ، والذى يطمع دائما فى أن يرى أكثر مما يقال له ! .. فكم امتدحت لى باريس ، حتى أننى صورتها لنفسى على غرار بابل القديمة ، التى كان من المحتمل — لو قدر لى أن أزورها — أن أجد فيها الكثير الذى لا يتفق مع الصورة التى أكون قد رسمتها لها فى خيالى ! .. ولقد حدث لى الشىء نفسه عندما زرت دار « الأوبرا » ، التى سارعت إلى مشاهدتها فى اليوم الذى أعقب وصولى .. ثم وقع لى الشىء ذاته — فيما بعد — عندما زرت (فرساى) ، ثم حين شهدت البحر للمرة الأولى . ولسوف يظل الأمر ذاته يراودنى كلما رأيت

شيئا أكون قد سمعت عنه اطنابا بالغا .. ذلك لأنه من المستحيل على البشر ، ومن العسير على الطبيعة ذاتها، التفوق على خصب خيالى !

وخيل الى – من الطريقة التى استقبلنى بها كل أولئك الذين حملت إليهم رسائل التوصية — أن حظى قد اكتمل . وكان الشخص الذى تلقى أكبر قسط من التوصية، والذى استقبلنى بأقل قسط من الحفاوة ، هو السيد دى «سوربك» الذى كان قد اعتزل العمل وعاش متفلسفا فى ضاحية (بانيو)، حيث زرته مرارا ، وحيث لم يقدم لى كوب ماء قط ! .. ولقد حظيت باستقبال أوفر من مدام دى «مرفييه» — زوجة أخ المترجم — ومن ابنهما ، وكان ضابطا فى الحرس . فإن الأم وابنها لم يتلقيانى فى حفاوة فحسب ، بل أنهما دعوانى إلى مائدتهما ، فاستغللت هذه الدعوة مرارا أثناء إقامتى فى باريس . ولاح لى أن مدام دى «مرفييه» كانت حسناء يوما ما ، فقد كان شعرها ما يزال ذا سواد بديع ، وكانت تنسقه فى حلقات على جبينها ، وفقا للنمط القديم . وكانت محتفظة بما لا يخبو حين تخبو المفاتن الشخصية .. وأعنى بذلك : عقلا لا بأس به . وقد بدا أنها استساغت فكرى ، وأخذت تبذل كل ما فى وسعها لمساعدتى ، ولكن أحدا لم يؤازرها .. وما لبثت أن تبينت بجلاء الاهتمام العظيم الذى تولاها نحوى . على أن من واجبى انصاف الفرنسيين ، فإنهم لا يغالون فى الاحتجاجات — كما يقال — بل إن ما يبدونه منها يكون صادقا على الدوام . على أن لهم فى التظاهر بالاهتمام بك أسلوبا أكثر خداعا من زخرف القول !

أما المجاملات الضخمة المأثورة عن السويسريين ، فلا تجوز إلا على الحمقى ! ان طباع الفرنسيين ليست بالغة الإغراء والفتنة إلا لأنها بالغة البساطة .. وقد يلوح أنهم لا يقولون لك كل ما يودون أن يفعلوه ، لكى يستطيعوا أن يقدموا لك مفاجآت مستحبة . بل إننى لأذهب إلى القول بأنهم ليسوا كاذبين فى مظاهرهم ، فهم بطبيعتهم بشوشون ، عطوفون ، محبون للخير .. بل إنهم — مهما يقال — أكثر صدقا فى عواطفهم من أبناء أية أمة أخرى .. بيد أنهم نزقون ، سريعو الملل والتقلب . إنهم يشعرون فى الواقع بالعواطف التى يبدونها لك ، ولكن هذه العواطف سرعان ما تذهب كما جاءت .. وهم حين يحدثونك ينصرفون إليك بجماع أنفسهم ، ولكنهم ينسونك بمجرد أن تغيب عن أبصارهم .. فلا دوام لشىء فى قلوبهم ، بل ان كل شىء لديهم ابن لحظته ! .

ومن ثم فقد حظيت بكثير من المجاملات وقليل من النفع .. وظهر أن ذلك الكولونيل «جودار» — الذى أوفدت لابن أخيه — كان شيخا وغدا شحيحا ، ما أن رأى ما كنت فيه من محنة ، حتى طمع فى أن يظفر بخدماتى دون مقابل ، برغم أنه كان يتقلب فى الذهب ! .. فلقد أرادنى على أن أكون لابن أخيه بمثابة وصيف بدون أجر ، أكثر منى رائدا ومربيا حقيقيا ! ولما كنت مرافقا إياه باستمرار ، ومعفى من الخدمة لذلك ، فقد كان لزاما أن أعيش على مرتبى كطالب عسكرى — أو بالأحرى ، كجندى — وكاد التعس لا يوافق على منحى حلة عسكرية ، إذ كان يريد أن أقنع بحلة الخدمة التى تقدمها الكتيبة للجندى العادى .

ولقد حالت مدام دى مرفييه نفسـها بينى وبين قبول هـذه
المقترحات، إذ استنكرتها . . وكذلك أبدى ابنها عين الشعور.
ودار البحث عن عمل آخـر لى ، فلم يسفر عن شىء . وبدات
فى تلك الأثناء احس بحاجة ماسة إلى المال، فما كانت الفرنكات
المائة التى انفقت منها على رحلتى لتكفينى فترة اطول. على أننى
ـ لحسن الحظ ـ تلقيت من لدن السيد السفير منحة صغيرة
اخرى . كانت عظيمة النفع لى . واعتقد أنه ما كان ليتخلى عنى
لو اننى كنت قد أوتيت مزيدا من الصبر ، ولكن التقاعس ،
والانتظار، والاسترحام أمور مستحيلة بالنسبة لى. . فانصرفت
عن هذه الأسرة ولم أعد أتردد عليها !

ولم أكن قد نسيت « ماما » المسكينة ، ولكن كيف كان لى
أن اعثر عليها ؟ اين كان لى أن أبحث عنها ؟ . . وكانت « مدام
دى مرفييه » ـ التى عرفت قصتى ـ قد ساعدتنى فى هـذا
البحث فترة طويلة ، دون جدوى . . وأخيرا ، علمت ان « مدام
دى فاران » قد غادرت باريس منذ شهرين ، ولكن احـدا لم
يدر هل ذهبت إلى (سافوى) أم إلى (تورين) ، بل ان بعض
الناس قالوا إنها عادت إلى سويسرا . وما كنت بحاجة إلى أن
أضيع وقتا فى عقد العزم على الانطلاق فى أثرها ، وأنا واثق من
أن البحث عنها ـ أيا كان مكانها ـ سيكون فى الأقاليم أيسر من
كل ماقدر لى أن أقوم به فى باريس !

وقبل أن ارحل ، مارست براعتى الشعرية الجديدة فى
رسالة إلى الكولونيل جودار، نلت منه فيها بأقصى ما استطعت!
ولقد عرضت هذا الهذيان على مدام دى « مرفييه » ، فبدلا

من أن تلومنى ـ كما كان ينبغى أن تفعل ـ ضحكت كثيرا من
سخرياتى ، وكذلك فعل ابنها الذى لم يكن يحب السيد جودار،
على ما أعتقد ـ وخليق بى أن أعترف بأنه لم يكن أهلا للحب!ـ
وهكذا ألفيتنى ميالا إلى إرسال القصيدة إليه ، بعد أن وجدت
تشجيعا على ذلك ، فحزمت الصفحات ، وكتبت عليها عنوانه.
وإذ لم يكن فى باريس خدمة داخلية للبريد ـ يومئذ ـ فقد
وضعت الخطاب فى جيبى ، وأرسلته من (اوكسير) عندما
مررت بها . وما زلت أضحك أحيانا عندما أفكر فى الامتعاضات
التى لا بد أن يكون الكولونيل قد أبداها وهو يقرأ هذه القصيدة
التى وصفته أدق وصف ، والتى بدأت هكذا :

« أظننت أيهـا الكهل الآثم ، أن نزوة حمقـاء
توحى الى بالشـوق إلى تربيـة ابن أخيك ؟ » !

ولقد كانت هذه القصيدة الصغيرة ركيكة فى الواقع ، بيد
أنها لم تكن تفتقر إلى الطـلاوة ، كمـا كانت تنم عن استعداد
طيب لفن « الهجـاء » . . على أنها كانت الهجو الوحيد الذى
انساب من قلمى ، فإن قلبى لم يحو من الخبث ما يمكننى من
اسـتغلال موهبة كهذه ، وإن كنت أرى أن المرء يستطيع أن
يحكم ـ من بعض المجادلات القلمية التى اكتبها من وقت إلى
آخر ، دفاعا عن نفسى ـ أننى لو كنت قد أوتيت روح الصراع،
لعز على من يهاجموننى أن يضحكوا عقب النزال !

إن أكثر ما آسف عليه من تفصيلات حياتى التى قدر لها أن
تضيع من ذاكرتى ، هو أننى لم أكتب يوميات عن أسفارى .

فما قدر لى قط أن أكون أكثر تفكيرا ، وأكثر استمراء لوجودى وحياتى ، وأكثر قربا من حقيقتى ـــ إذا جاز لى أن أقول هذا ـــ مما كنت فى تلك الرحلات التى كنت أقوم بها سيرا على قدمى . ففى المشى شىء ينعش نشاطى ويسمو بأفكارى . وأنا لا أكاد أفكر عندما أكون ساكنا ، لا بد لجسمى من أن يكون فى حركة حتى يتحرك عقلى . ان رؤية الريف ، وتتابع المناظر الممتعة ، والخلاء ، والشهية المتفتحة والصحة الطيبة اللذين اكتسبهما بالمشى ، والحياة الحرة فى الفنادق الريفية .. وغياب كل ما يجعلنى احس بأننى عالة على غيرى ، وكل ما يذكرنى بمركزى ، وكل ما يفكرنى بحالى .. كل هذا يطلق روحى من عقالها ، ويمنحنى جراة بالغة فى التفكير ، ويلقى بى ـــ كما ينبغى أن يقال ـــ فى بحار الكائنات الشاسعة لكى أجمعها وافرزها وانسقها كما يحلو لى ، دون ما حرج أو خوف ! .. كنت اتصرف فى الطبيعة بأسرها ، وكأننى المسيطر عليها .. فكان قلبى فى تنقله من شىء إلى شىء يتحد مع تلك الأشياء التى تروق له ويميزها عن سواها ، ويحيط نفسه برؤى فاتنة ، وينتشى بأحاسيس عذبة . وإذا كنت ـــ فى سبيل تسجيل هذه الأحاسيس وإثباتها ـــ استعذب وصفها فى نفسى ، فأية خطوط قوية ، وأية الوان بهيجة ، وأية تعبيرات متألقة أضفيها عليها ! .. وقد يقال إن هذه كلها قد وجدت فى مؤلفاتى وإن كانت قد كتبت فى سنى افولى .. آه ! ليت أحدا قد رأى ما كتبت فى صدر شبابى ، وما ألفت فى رحلاتى ، وما انشأت من أفكار لم أكتبها اطلاقا ! .. وقد تقولون : لماذا لم تكتبها ؟ .. وأجيب أنا : ولماذا أكتبها ؟ .. لماذا أحرم نفسى

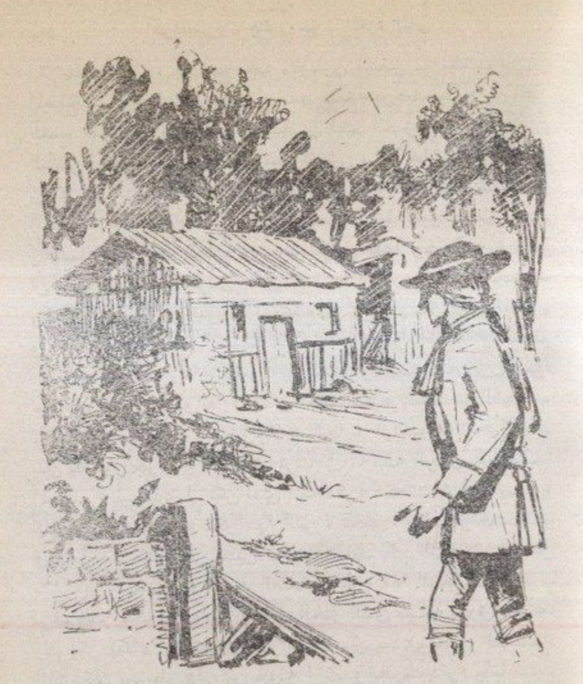
السحر الواقعى للذة ، لكى أقول للغير إننى استمتعت بهذه اللذة ؟ .. وفيم يعنينى القراء ، والجمهور ، والأرض بأسرها ، ما دمت أحلق فى السماء ؟ .. ثم ، أفترانى كنت أحمل ـــ فى رحلاتى ـــ ورقا وأقلاما ؟ .. لو أننى كنت قد فكرت فى كل هذا ، لما وافانى شىء مما كان جديرا بالتسجيل .. اننى لم أكن أتنبأ بموعد الأفكار ، وإنما كانت تواتينى عندما تشاء هى ، وليس حين أشاء أنا ! .. وكانت تمتنع عن موافاتى ، أو تأتى زرافات فتطغى على بقوتها وعددها .. وما كانت عشرة مجلدات فى اليوم بكافية لتدوينها ! فمن أين لى الوقت الذى أكتبها فيه ؟ .. كنت إذا بلغت بلدا ، لا أفكر إلا فى غداء شهى . وإذا بارحت بلدا ، لا أفكر إلا فى سير سريع ، فقد كنت أحس بأن ثمة نعيما جديدا على الأبواب ، فلا أفكر إلا فى السعى إليه !

وما شعرت بكل هذا يوما قدر ما شعرت به فى رحلة العودة ، التى اتحدث عنها .. ففى طريقى إلى باريس ، كانت خواطرى محدودة بما كنت ذاهبا لعمله هناك ، إذ كنت قد انصرفت إلى الحياة العملية التى ظننت أنها كانت تنبسط أمامى ، والتى كنت خليقا بأن أخوضها بكثير من الفخر . ولكن هذه الحياة كانت غير تلك التى دعانى قلبى إليها ، وقد آذت مخلوقات الواقع كائنات الخيال .. كان الكولونيل جودار وابن أخيه لا يتسقان مع بطل مثلى . أما الآن ، فقد تخلصت من هذه العقبات ، بفضل السماء ، وأصبح فى مقدورى أن أغوص وفق هواى فى عالم الأوهام ، إذ لم يبق أمامى سوى هذا العالم ! .. ولقد همت فيه تماما ، حتى أننى ضللت طريقى عدة مرات

فعلا ، ولكنى كنت خليقا بأن اغتم لو أننى سلكت طريقا اكثر اتجاها إلى مقصدى . ذلك لأننى توهمت أنى لن البث ان اجد نفسى على الأرض من جـديد ، لدى وصـولى إلى (ليون) ، فوددت الا ابلغها أبدا !

وفى يوم من الأيام ، انحرفت عن طريقى عمـدا ، لاتأمل عن كثب مكانا تراءى لى جديرا بالإعجاب . وبلغ من ابتهاجى به أنى أكثرت من الدوران حوله ، حتى ضللت تماما فى النهاية! .. وبعد عدة ساعات من السير على غير هدى ، وقد انهكنى التعب وبرح الجوع والعطش ، دخلت لـدى فـلاح لم تكن داره جميلة المظهر ، ولكنها كانت الوحيـدة التى رأيتها فيما حولى . وكنت أخال أن الأمر كمـا فى جنيف أو فى سـويسرا عموما ، حيث يخف جميع السكان الميسورى الحال إلى إظهار كرمهم . وسألت هـذا الفلاح أن يمنحنى ما أتنـاوله غداء ، عارضا عليه أن أدفع الثمن . فقدم لى لبنا خثرا وقطعة من خبز الشعير الخشن ، قائلا إن ذلك كان كل ما لديه . فشربت اللبن جذلا ، وأكلت الخبز ، بقشه و « ردته » ! بيد أن هـذا لم يكن قوتا كافيـا لرد النشـاط إلى رجل أنهكه التعب .. وأدرك الفلاح ـ الذى تفرس فى عن كثب ـ صدق قصتى ، بما تجلى له من شهيتى ، فصارحنى بعد ذلك فورا بأنه استطاع أن يتبين أننى كنت شابا طيبا وأمينـا(١) ، وأننى لم آت كى

(١) من الجلى أن ملامحى ـ فى ذلك العهد ـ لم تكن قد شابهت بعد الملامح التى رسمت فى صورتى بعد ذلك [*]



وفى يوم من الايام ، انحرفت عن طريقى عمدا ، لاتأمل عن كثب مكانا تراءى لى جديرا بالاعجاب .

ابتز منه مالا .. ثم فتح باب مخزن صغير ــ بالقرب من المطبخ ــ وهبط منه ، وعاد بعد دقيقة برغيف بديع من خبز القمح المحمص ، وقطعة شهية من لحم الخنزير ، وان توخى التقتير فى حجمها ، وزجاجة نبيذ انعش مرآها فؤادى أكثر من كل ما عداها ! .. واضاف إلى ذلك قطعة سميكة من العجة ، فحظيت بغداء لم يحظ بمثله قط عابر سبيل ! .. وعندما حان وقت الدفع ، عاود الرجل قلقه وخوفه ، فأبى ان يأخذ شيئا من نقودى ، ورفضها فى انزعاج غير عادى . والطريف فى الأمر اننى لم استطع أن اتصور ما كان يخيفه . وأخيرا ، اطلق هذه الكلمات الرهيبة وهو يرتجف : « محصلو العوائد » و « جرذان القبو »(١) ! .. وافهمنى انه كان يخبىء نبيذه بسبب العوائد ، وكان يخفى خبزه بسبب الضرائب (العشور) ، وانه يغدو رجلا ضائعا لو ارتاب هؤلاء فى انه لم يكن يتضور جوعا ! .. ولقد ترك كل ما قاله الرجل عن هذا الموضوع ــ الذى لم تكن لدى اتفه فكرة عنه ــ اثرا لن يمحى، كان بمثابة « بذرة » الكراهية التى لا تخبو ، والتى راحت تذكو فى قلبى ــ منذ ذلك الحين ــ ضد المظالم التى كانت تحيق بالشعب التعس ، وضد الطغاة . كان هذا الرجل لا يجرؤ ــ برغم يسر حاله ــ على ان يأكل الخبز الذى كسبه بعرق جبينه، ولم يكن يملك أن يتفادى خرابه إلا بأن يبدى نفس الشقاء الذى كان يسيطر على من حوله ! .. وغادرت داره وانا موزع

---

(١) « جرذان القبو » لقب كان يطلق فى ذلك العهد على مندوبى الحكومة الذين يتفقدون موارد المرء ويقدرون ما ينبغى عليه ان يدفع من مكوس وخراج.

بين السخط والتأثر ، أرثى لحظ تلك البلدان الجميلة التى لم تسبغ الطبيعة هباتها عليها إلا لتجعلها فريسة لمحصلى الضرائب المتوحشين !

هذه هى الذكرى الواضحة الوحيدة التى تبقت لى من كل ما حدث خلال تلك الرحلة . ولست أذكر إلى جوارها سوى اننى حين اقتربت من (ليون) ، شعرت بميل إلى ان أطيل طريقى كى أسعى إلى مشاهدة ضفاف (اللينيون) ، فقد كان بين القصص التى قرأتها مع أبى ، قصة لم أنسها ، بل كثيرا ما عادت إلى ذاكرتى .. تلك هى «استريه»(١) ! .. فسألت عن الطريق إلى (فوريز). وبينما كنت اتجاذب أطراف الحديث مع صاحبة احد الفنادق ، علمت ان تلك المنطقة كانت ذات موارد طيبة للعمال ، وأن فيها كثيرا من المسابك ، وأن القوم يجيدون صناعة الحديد . فهدأ هذا القول من جموح خيالى فى الحال ، إذ ادركت أن من غير الملائم أن أسعى للبحث عن أمثال « ديانا » و « سيلفاندر »(٢) بين قوم من الحدادين ! .. ولا بد أن المرأة الطيبة ــ التى شجعتنى على هذا النحو ــ ظنتنى صانع أقفال مرتزق !

ولم يكن ذهابى إلى (ليون) دون ما غرض على الاطلاق، فما أن وصلت إليها حتى سعيت إلى جهة (شاسوت) لزيارة الآنسة « دى شاتيليه » ، صديقة مدام « دى فاران » التى

---

(١) قصة عن غرام الرعاة للروائى « أونوريه دورفيه » (١٥٦٨ ــ ١٦٢٥).

(٢) عاشقان من الآلهة يرد ذكرهما فى قصة « استريه ».

كانت قد أعطتنى رسالة لها عندما ذهبت مع السيد « لوميتر » .. ومن ثم فقد كان ثمة تعارف بيننا . وأنبأتنى الآنسة «دى شاتيليه» بأن صديقتها « مدام دى فاران » كانت قد مرت ـ فعلا ـ بليون ، ولكنها تجهل ما إذا كانت قد واصلت رحلتها حتى (بييمونت) .. بل أنها عند رحيلها لم تكن مستقرة الرأى على ما إذا كانت ستعرج على (سافوا) أم لا .. وأضافت الآنسة أنها على استعداد لأن تكتب فى طلب الأنباء ، إذا شئت ، وان خير ما ينبغى أن أفعله هو أن أنتظر فى (ليون) . وتقبلت الاقتراح ، ولكنى لم أجرؤ على أن أقول للآنسة دى شاتيليه إننى كنت ملهوفا على الجواب المرتقب ، وأن كيسى الصغير الناضب لم يكن يتيح لى الانتظار طويلا ! ولم يكن ما صدنى عن المصارحة أنها أساءت استقبالى ، فهى ـ على النقيض ـ قد أبدت لى كثيرا من المجاملات ، وعاملتنى فى مساواة جردتنى من الجرأة على أن أخفى عنها حالى ، وأن أهبط من مكانة الزميل المقبول ، إلى مكانة المستجدى التعس !

ومع أننى ألتزم تسلسل الحوادث التى أوردتها فى هذا الكتاب ، فإننى أعود بالذاكرة إلى رحلة أخرى إلى (ليون) قمت بها فى عين تلك الفترة ، وإن لم يكن بوسعى أن أحدد زمانها بالضبط ، وقد وجدت نفسى خلالها فى ضائقة شديدة . وثمة حادث صغير ـ من العسير أن أرويه ـ لا يتيح لى قط أن أنساها : فقد كنت ذات مساء أجلس فى (بيلكور) ، بعد عشاء جد خفيف ، أفكر فى وسيلة أنتزع بها نفسى من ضيقى ، وإذا برجل له مظهر أولئك المشتغلين بالحرير ، الذين يدعون فى (ليون) باسم «القماشين» .

ووجه إلى الخطاب ، فرددت عليه . ولم نكد نسترسل فى الحديث نحو ربع ساعة ، حتى عرض على ـ بنفس الهدوء الذى كان يلازمه ، وبدون أى تغير فى لهجته ـ أن نلهو معا فى الريف . وانتظرت أن يبين نوع اللهو ، ولكنه شرع ـ دون أن ينبس بكلمة أخرى ـ يصور لى مثلا لهذا اللهو(١) . وكنا متلاصقين تقريبا ، ولم تشتد ظلمة الليل بعد بدرجة تحول دون رؤية العمل الذى تهيأ له . ولم يكن له مطمع فى شخصى ، فما من شىء نم ـ على الأقل ـ عن هذا القصد ، كما أن المكان لم يكن ملائما لذلك .. فهو لم يكن يبغى ـ كما قال لى ـ سوى أن يلهو ، وألهو أنا الآخر ، كل منا على حدة . وقد بدا له هذا أمرا بسيطا ، حتى أنه لم يخطر بباله أننى قد لا أنظر إلى الأمر نظرته ! .. ولقد جزعت لهذه القحة ، حتى أننى نهضت مسرعا ـ دون أن أرد عليه ـ وهربت بأقصى ما أسعفتنى ساقاى ، وأنا أتوهم أن ذلك الشقى كان فى أثرى ! وكنت من الاضطراب بحيث أننى بدلا من أن أقصد إلى مأواى عن طريق (سان دومينيك) ، انطلقت أعدو بجوار أرصفة الميناء ، فلم أقف حتى كنت قد عبرت الجسر الخشبى ، وأنا أرتجف وكأننى عائد لتوى بعد ارتكاب جريمة ! .. ولقد كنت فريسة لتلك الرذيلة من قبل ، ولكن هذا الحادث أبرأنى منها زمنا طويلا !

وقد صادفت ـ فى أثناء الرحلة الثانية ـ مغامرة من نفس النوع تقريبا ، ولكنها عرضتنى لخطر عظيم . وإليك قصتها :

---

(١) يبدو أن هذه الرذيلة هى الاستمناء ، أو (العادة السرية) .



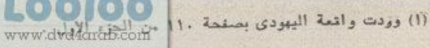
كنت قد أحسست بأن مواردى أوشكت أن تنضب ، فأخذت اقتصد فى انفاق المبلغ الضئيل المتبقى ، بحيث أصبحت لا أتناول وجباتى فى فندق إلا لماما .. ثم لم أعد أتناول منها شيئا هناك على الاطلاق ، إذ كان بوسعى أن أحظى فى الحانة ، لقاء خمسة أو ستة « سو » ، بشبع يفوق ما كنت أحظى به فى الفندق لقاء ستة وعشرين !.. وإذ لم أعد أتناول طعامى فى الفندق ، لم ادر كيف كان لى ان اظل أبيت هناك ، إذ اننى خجلت من أن اشغل حجرة دون أن أتيح لصاحب الفندق مجالا كافيا للربح.

وكان الفصل بديع الجو ، لكن الحر اشتد فى إحدى الأمسيات، فقررت أن أقضى الليل فى الميدان العام . وما أن استلقيت على مقعد عريض هنـاك ، حتى مر راهب ، فرآنى نائما على هذا النحو ، وإذ ذاك اقترب فسـألنى عما إذا لم يكن لى مأوى . وافضيت إليه بحالى ، فبدا عليه التأثر ، وجلس إلى جوارى، واخذنا نتجاذب أطراف الحديث . وكان حديثه مناسـبا ، إذ كان كل ما قاله يوحى إلى بخير فكرة عن الناس . ولمـا رآنى انست إليه ، قال لى إنه لم يكن يملك مسكنا فخما واسعا ، بل كان مسكنه يتألف من حجرة واحدة ، ولكنه ما كان ـ يقينا ـ ليدعنى انام فى الميدان العام. ولما كان الوقت متأخرا ، ولا سبيل إلى البحث عن مأوى لى ، فقد عرض على نصف سريره فى تلك الليلة . وقبلت العرض ، وقد خالجنى الأمل فى أن أكون قـد عثرت على صديق قد يستطيع أن يكون ذا نفع لى. وذهبنا إلى مسكنه ، فأشعل ضوءا تراءت حجرته لى على هديه مناسبة، برغم صغرها . واخذ مضيفى يكرمنى فى أدب جم، ثم أخرج من

وعاء زجاجى بعض الكريز الذى كان منقوعا فى النبيذ .. فأكل كل منا اثنتين ، ثم أوينا إلى السرير .

وكانت لهذا الرجل نفس ميول صاحبى اليهودى الذى كان فى دار الضيافة بالدير(١) ، ولكنه لم يبدها بمثل وحشية ذاك، إما لأنه أدرك أن بوسعى أن أصل بصوتى إلى الأسماع، فخشى أن يضطرنى إلى الدفاع عن نفسى .. وإما لأنه كان فى الواقع ضعيف التثبت من خططه ، فلم يجرؤ على أن يقترح بصراحة تحقيقها ، وإنما حاول استثارة انفعـالاتى دون أن يسـتثير شكوكى ! ولما كنت قد تعلمت من التجـربة الأولى ، فاننى أدركت سراعا مقصـده ، فارتجفت .. ولم أكن أعـرف فى أى منزل ولا بين أى يدين كنت ، فخشيت أن أدفع حياتى ثمنـا لأية ضجة أحدثها !.. فتظاهرت بتجاهل ما كان يبغيه منى ، ولكنى أبديت استياء شديدا من ملاطفاته ، وإذ عقدت العزم على الا اتقبل أى تمـاد منه ، فقد تصرفت بحيث اضـطررته إلى أن يكبح نفسه . ثم تحدثت إليه بكل ما أوتيت من لطف وحزم.. وبدون إبداء أى ارتياب فى شىء ، اعتذرت له بتجربتى السابقة عن القلق الذى أبديته نحوه ، ورحت أبالغ فى رواية تلك التجربة بعبـارات مفعمة بالاسـتبشاع والاشـمئزاز ، بحيث أثرت اشمئزازه ـ على ما أعتقد ـ ومن ثم عدل عن غايته القـذرة تماما .. فقضينا ما تبقى من الليل فى هدوء . بل انه ذكر لى كثيرا من الأمور الطيبة الرقيقة ، فما كان ـ بالتأكيد ـ خلوا من الميزات ، برغم انه كان وغدا كبيرا !





(١) وردت واقعة اليهودى بصفحة ١١٠ من الجزء الأول.

وفى الصباح، لم يشأ السيد الراهب أن يبدو مستاء، فتحدث عن تناول الافطار ، وسأل إحدى ابنتى صاحبة الدار ــ وكانت جميلة ــ أن تحضر لنـــا فطورا ، فقالت له أن لا وقت لديهــا لذلك . ووجه الرجاء إلى أختها ، فلم تتفضل عليه برد ! . . . وظللنا ننتظر ، ولا اثر لفطور ! . . وأخيرا انتقلنا إلى حجــرة الآنستين ، فإذا بهما تستقبلان الراهب بنذر ضئيل من التلطف. ولم يكن لى أن أطمع فى استقبال أفضل : فإن كبرى الفتـــاتين داست ــ وهى تستدير ــ طرف قدمى بكعب حذائها المدبب. وكانت فى قدمى بثرة (كاللو) شديدة الايلام ــ اضطرتنى من قبل إلى أن اقطع طرف حذائى ــ أما الفتاة الأخرى فقد جذبت من خلفى فجأة مقعدا كنت أهم بالجلوس عليه .. بينما كانت أمهما تلقى من النافذة بعض الماء الذى أغرق وجهى !.. وعلاوة على ذلك كن، أينما جلست ، يقصيننى للبحث شيء ما ! .. أبدا لم الق فى حياتى مثل هذه « الحفاوة » !.. وكنت أرى فى نظراتهما المهينة الساخرة سخطا مكتوما ، كنت من الغباء بحيث لم افقهه . وفى ذهولى ودهشتى ، أوشكت أن أخال ان الشيطان قد استولى عليهن جميعا ، فبدأت اشعر بجزع شديد . وفى تلك الأثناء ، ادرك الراهب ــ الذى كان يتظـــاهر بأنه لم يكن يرى أو يسمع ــ أن لا أمل فى فطور ، فقرر مبارحة الدار .. وأسرعت خلفه وأنا مغتبط بالافلات من الشيطانات الثلاث !

وفى أثناء سيرنا ، عرض على أن نذهب فنفطر فى مقهى. وعلى الرغم من أننى كنت شديد الجوع ، إلا أننى لم اقبل هذه الدعوة التى لم يصر عليها بعد ذلك ، ومن ثم افترقنا بعـــد أن

اجتزنا ثلاثة شوارع أو أربعة . أما انا فقد كنت مبتهجـــا إذ غاب عنى منظر كل ما كان يمت إلى تلك الدار اللعينة .. وأما هو فكان مرتاحا ــ فيما أعتقد ــ إذ ابتعد بى عنها حتى لا يسهل على أن أعرفها .. وإذ لم تكن قد عرضت لى من قبل أمثـــال هاتين المغامرتين ، سواء فى باريس أو سواها ، فانهما لم تخلفا فى نفسى أثرا طيبا عن أهل (ليون) ، بل ظللت دائما أعتبر هذه المدينة مثالا للمدينة الأوربية التى يسودها أفظع فساد !

* * *

ولا تساعد الظروف التى انحدرت إليها فى تلك المدينة ، على الاحتفاظ عنها بذكريات طيبة . ولو كنت قد خلقت على غرار سواى : لو أوتيت مثلا موهبـــة الاقتراض ، أو أن أكون مدينا لفندقى ، لسهل على أن أنتزع نفسى من الحرج ، ولكن مقدرتى على هذا الأمر كانت تعادل نفورى منه. ولكى تتصوروا إلى أى مدى بلغ عجزى ونفورى ، يكفى أن تعرفوا أننى بعد أن قضيت حياتى كلها ــ تقريبا ــ فى الفاقة ، وكنت أوشك فى كثير من الأحيـــان على الا أجد القوت ، لم أتلق يوما من دائن مطالبة بنقود إلا أجبتها فى اللحظة عينهـــا . وما عرفت الطريق إلى القروض قط ، بل كنت دائما أوثر العناء على الديون المالية !

ولقد كان من العذاب حقا أن أهبط إلى درك قضاء الليل فى الشارع ، الأمر الذى حدث لى مرارا فى (ليون) ، فلقد آثرت أن استغل الدراهم القليلة التى بقيت لى فى دفع ثمن خبزى ، بدلا من دفع أجر مأواى .. فقد كان خطر النوم فى العراء اقل من خطر الموت جوعا ! .. والعجيب فى الأمر أننى لم أكن ــ فى

تلك الظروف القاسية ــ قلقا ولا حزينا ! لم يكن لدى أدنى قلق بصدد المستقبل ، بل رحت أنتظر ــ مطمئنا ــ الرد الذى كان لا بد أن تتلقاه الآنسة « دى شاتيليه » .. وكنت أنام فى العراء ، مستلقيا على الأرض ، أو على مقعد عريض ، مستغرقا فى النعاس وكأننى فى سرير من الورود!.. وأذكر - بوجه خاص - أننى أنفقت ليلة ممتعة خارج المدينة ، على أرض طريق ممتدة إلى جانب نهر (الرون) أو (الساؤن) ــ فلست أذكر أى النهرين كان ! ــ وكانت تحف بالجانب الآخر للطريق حدائق أقيمت على ارتفاع فوق مستوى الأرض . وكان الحر قائظا فى نهار ذلك اليوم ، ولكن الليل كان بديعا ، وقد روى الندى الأعشاب الظامئة .. ولم تكن ثمة ريح ، إذ كانت الليلة ساكنة ، والنسيم رقيقا ، خلوا من الرطوبة .. وقد خلفت الشمس وراءها ــ بعد الغروب ــ أبخرة حمراء فى السماء ، أحال انعكاسها الماء إلى لون الورد !.. وكانت أشجار الحدائق العالية عامرة بالبلابل التى راحت تتجاوب بالشدو . وأخذت أتمشى فى نشوة ، مسلما حواسى وفؤادى لهذه المتعة الضافية ، فلم تداخلنى سوى حسرة ــ تمثلت فى زفرة ــ لأننى كنت مضطرا إلى استمراء هذه المتعة وحدى .. وواصلت السير إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأنا مستغرق فى تأملاتى الناعمة ، دون أن أفطن إلى أن التعب قد أدركنى .. ولكنى انتبهت إلى ذلك أخيرا ، فألقيت بنفسى ــ فى اغتباط ــ على قاعدة « كوة » أو باب زائف نحت فى جدار سياج الحدائق ، وقد تعانقت الأفنان مؤلفة شبه « سقف » فوق سريرى .. كما جثم بلبل فوق رأسى مباشرة ، وراح يغرد لى .. حتى نمت .

وكان نعاسى لطيفا ، كما كان استيقاظى ألطف .. فقد كان الصباح رائعا ، ووقعت عيناى ــ حين فتحتهما ــ على الماء والخضرة ، وريف بديع ! .. ونهضت من مرقدى ، فتمطيت ، وإذ شعرت بالجوع انطلقت طروبا صوب المدينة ، وقد عقدت العزم على أن أنفق على فطورى القطعتين الفضيتين اللتين بقيتا من نقودى !.. وكم كنت مبتهجا ، حتى أننى أخذت أردد إحدى أغانى « باتيستان » التى كنت أحفظها عن ظهر قلب ، وكان عنوانها : « حمام ثوميرى » .. ألا فلتبارك السماء « باتيستان » الطيب وأغنيته ، فقد أتاحا لى فطورا أفضل مما كنت أنتوى ، وغداء أكثر امتاعا ــ وهما وجبتان لم تكونا فى الحسبان قط ! ــ فبينما كنت سائرا أغنى ــ على خير حال ــ سمعت شخصا خلفى ، فالتفت ، وإذا بأحد « الأنطونيين »[1] يتبعنى ، وقد لاح أنه كان ينصت إلى غنائى فى طرب . وبادأنى بالحديث ، فحيانى ، وسألنى عما إذا كنت على الملم بالموسيقى ، فأجبت : « بعض الشىء » ، بلهجة توحى إليه بأننى كنت أعرف الكثير .. وتابع سؤالى ، فرويت له شطرا من قصة حياتى ، وإذ ذاك سألنى عما إذا لم يكن قد سبق لى أن نسخت « نوتات » موسيقية ، فقلت له : « كثيرا » ــ وكان هذا صدقا ، إذ كان معظم ما تعلمته من الموسيقى عن طريق النسخ ــ فقال : « حسنا ! تعال معى ، ففى وسعى أن أشغلك بضعة أيام ، لن

---

(١) « الانطونيون » اتباع مذهب علمانى فى الرهبنة . وكانوا يفخرون بأنهم حملة « صليب مالطة » ، وهو وسام منحوا إياه تقريبا حين أبلوا بسالة فى الحرب .

يعوزك خلالها شىء .. على شريطة الا تغادر الحجرة قط !»
.. ووافقت عن طيب خاطر ، فتبعته !

وكان هذا الانطوانى يدعى السيد «روليشون»، وكان يحب الموسيقى ويحذقها ويغنى فى الحفلات الصغيرة التى كان يقيمها مع أصدقائه . ولم يكن فى هذا سوى كل ما هو برىء وشريف، ولكن هوايته كانت تنحدر ـ كما اتضح لى ـ إلى تهوس كان مضطرا إلى التستر عليه بعض الشىء ! .. وقادنى إلى حجرة صغيرة نزلت بها ، فوجدت فيها كثيرا من القطع الموسيقية التى نقلها هو، كما أعطانى سواها لكى أنقلها، وكانت من بينها الأغنية التى كنت أرددها ، والتى كان مزمعا أن يغنيها بعد أيام .. وقضيت ثلاثة أيام او اربعة وانا عاكف على النسخ طيلة الوقت، باستثناء وقت الطعام ـ فما كنت فى اى يوم من أيام حياتى اكثر شهية ولا أفضل غذاء مما كنت خلال تلك الأيام ! ـ وكان الرجل يحمل الطعام إلى بنفسه من المطبخ ، ولا بد أن طعام القوم كان طيبا شهيا ، إذا صح أن ما كان يقدم لى كان من طعامهم العادى ! .. ولقد كنت طيلة عمرى لا أجد فى الأكل متعة ، وجدير بى أن أعترف كذلك بأن هذه الوجبات جاءت فى الوقت المناسب تماما ، إذ اننى كنت جائعا كالخشب . ورحت أعمل بنفس الإقبال الذى كنت آكل به ، وهو إقبال لم يكن بالقليل ! .. على اننى ، فى الواقع ، لم اكن دقيقا فى عملى بقدر ما كنت سريعا . وقد حدث بعد ذلك ببضعة أيام ان قابلنى السيد روليشون فى الطريق ، فأنبأنى بأن منسوخاتى جعلت

العزف الموسيقى مستحيلا ، لأنها وجدت مليئة بالشطب والتكرار والتحريف . ومن الواجب أن أعترف بأننى اخترت المهنة الوحيدة التى كنت أقل الناس استعدادا لها ، لا لأن علاماتى الموسيقية لم تكن جميلة أو لأننى لم أكن دقيقا فى النقل، وإنما لأن الملل من عمل جد طويل ، كان يشتت بالى إلى درجة أننى كنت أقضى فى المحو وقتا أطول مما كنت اقضى فى الكتابة ، وإلى درجة أن منسوخاتى لم تكن صالحة للتنفيذ ـ بالعزف ـ ما لم ابد عناية فائقة بمراجعتها .. وهكذا أسأت انجاز عملى ، فى الوقت الذى كنت أسعى فيه لأدائه على خير وجه .. وبدلا من أن أسرع ، إذا بى أتخبط ! على أن هذا لم يمنع السيد روليشون من ان يحسن معاملتى إلى النهاية ، ومن أن يمنحنى كذلك ـ عند انصرافى ـ دينارا لم أكن استحقه البتة ، وإن كان قد أنقذنى من ضائقتى .. وان هى إلا أيام قلائل ، حتى تلقيت نبأ من « ماما » ـ التى كانت فى (شامبيرى) ـ مصحوبا بنقود ، كى ألحق بها ، الأمر الذى أسرعت إلى تحقيقه مسرورا . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم ، كثيرا ما أوشكت مواردى المالية على النفاد ، ولكنها لم تذهب فى نضوبها قط إلى الدرجة التى اضطررت معها إلى الصوم . وإنى لأذكر تلك الفترة من حياتى بقلب شديد الشعور بالعناية الإلهية ، فلقد كانت تلك آخر مرة فى حياتى أشعر فيها بالتعاسة والجوع !

ولقد مكثت فى (ليون) سبعة أيام أو ثمانية ، فى انتظار بعض مهام كانت «ماما» قد عهدت بها إلى الآنسة «دى شاتليه»

وفى اثناء هذه الفترة كنت أكثر مثابرة على زيارة الآنسة من ذى قبل ، فرحت انعم بالحديث إليها عن صديقتها ؛ ولم أعد مثقل البال إلا بتلك الأفكار القاسية التى كانت تعاودنى عن مركزى ، وإلا بمحاولة إخفاء هذا المركز . ولم تكن الآنسة « دى شاتيليه » بالشابة ، ولا بالجميلة ، ولكنها لم تكن تفتقر إلى الملاحة ، وكانت رقيقة الأعطاف ، ودودة ، كما كان ذكاؤها يضفى بهاء على هذا الود . ولقد اوتيت ذلك الشغف بالتأمل الخلقى الذى يقود إلى دراسة الشخصيات ، وإليها أدين بأول حافز أصلى دفعنى إلى هذا الاتجاه . وكانت مشغوفة بقصص « ليساج » ، لا سيما قصة « جيل بلا » التى حدثتنى عنها وأعارتنيها ، فقرأتها فى استمتاع ، ولكنى لم أكن قد نضجت بعد بحيث أفقه هذا النوع من القراءة ، إذ كنت انشد القصص الحافلة بالأحاسيس الرفيعة . وهكذا قضيت وقتى إلى جوار مدفأة الآنسة « دى شاتيليه » فى استمتاع وانتفاع ، ومن المحقق أن الأحاديث الطريفة ذات الطابع الفكرى – التى تصدر عن امرأة موهوبة – أصلح لتكوين الشاب من كل ما فى الكتب من فلسفة متحذلقة ! .. ولقد تعرفت – بين المقيمين فى (شاسوت) وأصدقائهم – إلى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها، تدعى الآنسة « سير » ، لم أبد لها إذ ذاك اهتماما عظيما، ولكنى شغفت بها حبا بعد ذلك بثمانى أو تسع سنوات .. وكنت على حق فى تدلهى بها ، فقد كانت فتاة ساحرة(١) .

---

(١) سيرد ذكرها فى القسم الخاص بسنة ١٧٤١ من الكراسة السابعة .

وفى غمرة انشغالى بتوقع رؤية « ماما » الطيبة – عما قريب – أهملت أوهامى قليلا ، إذ عوضتنى الهناءة الحقيقية التى كانت فى انتظارى ، عن السعى وراء الخيالات .. فإنى لم أعثر على « ماما » مرة أخرى فحسب ، وإنما وجدت فى قربها، وبوساطتها ، ظرفا مواتيا ، إذ أشارت فى رسالتها إلى أنها عثرت لى على عمل كانت تأمل أن يروق لى ، كما أنه لم يكن ليقصينى عنها . ولقد ارهقت حدسى فى التكهن بنوع ذلك العمل، بيد أنه كان لابد للمرء من أن يصبح نبيا حتى يصيب الحدس ! .. وكان لدى من المال ما يكفى لأن أقوم برحلة مريحة . وقد رغبت الآنسة « دى شاتيليه » فى أن استأجر جوادا ، ولكنى لم أكن أملك أن أوافقها ، وكنت على حق . ولولا ذلك لفقدت متعة آخر رحلة على الأقدام فى حياتى – فلست أستطيع أن أصف النزهات التى كثيرا ما كنت أقوم بها فى الضواحى المجاورة أثناء إقامتى فى (موتيير) ، بأنها رحلات على الأقدام !

ومن الأمور العجيبة ان خيالى لا يحلق قط راضيا إلا عندما تكون حالى غير مرضية ، كما أنه – من ناحية أخرى – يغدو اقل ما يكون ابتساما عندما يبتسم كل ما حولى ! .. فإن راسى النكد لا يستطيع أن يتكيف مع الأشياء ، فهو لا يقنع بتجميل الأمور ، وإنما يصبو إلى الخلق والابتداع .. كما أن الأشياء الحقيقية لا تبدو له إلا كما هى فى الواقع، فهو إنما يجيد تنميق الأشياء الخيالية فحسب . وعلى هذا القياس ، لابد لى من أن أكون فى الشتاء ، إذا شئت أن أصف الربيع ، وإذا رغبت فى

وصف جمال مناظر الطبيعة ، وجب أن أكون داخل الجدران .. ولقد قلت مائة مرة إنه لو كان قد قدر لى يوما أن ألقى فى غياهب (الباستيل) ، لكنت قد رسمت أبدع صورة للحرية !

وعندما بارحت (ليون)، لم أكن أرى أمامى سوى مستقبل باسم .. ولقد كنت سعيدا ، وكان لى الحق فى ذلك ، بعد أن حرمت هذه السعادة وأنا أغادر باريس .. ومع ذلك فإنى لم أنعم خلال هذه الرحلة بتلك الخواطر البهيجة التى كانت ترافقنى فى الرحلة الأخرى . كان قلبى جذلا ، ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر . ورحت أقترب فى اشتياق نحو تلك الصديقة الرائعة التى كنت أسعى لرؤيتها من جديد ، وأتذوق مقدما حلاوة العيش بالقرب منها ، ولكن فى غير نشوة سكرى ، إذ كنت دواما أتوقع ذلك، فكأنما لم يكن فيما أنا مقبل عليه شىء جديد !.. ولقد خامرنى القلق بصدد ما كنت مقدما على عمله، وكأنما كان فى ذلك ما يدعو إلى الاشفاق .. وكانت أفكارى ساكنة وادعة، وليست « سماوية »، تسلب الروح والعقل . وكانت الأشياء المادية تجتذب نظرى ، فكنت أولى مناظر الطبيعة اهتمامى .. كنت ألاحظ الأشجار والدور والجداول ، وأحدث نفسى عند ملتقيات الطرق ، فقد كنت فى خوف من أن أضل ، ولكنى لم أضل على الاطلاق .. وبإيجاز : لم أعد أحلق بين السحب ، وإنما كنت دائما حيث كنت .. فلم أبعد قط عن الواقع !

وأنا فى الحديث عن رحلاتى ، تماما كما أنا فى أدائها ، لا أتعجل بلوغ غايتى .. وهكذا كان قلبى يخفق طربا وأنا أقترب من «ماما» العزيزة، ولكنى لم أغذ السير إليها، فإننى أحب السير

كما يروق لى ، ولا أتوقف إلا حين يحلو لى .. فحياة التجوال هى التى تلائمنى ، والسفر على الأقدام ، فى وقت بديع ، وفى بلد جميل ، دون ما تعجل ، ونحو غاية مرغوبة ، هو أكثر أساليب العيش طرا ملاءمة لذوقى ! وفيما عدا ذلك ، فإن ما أعنيه « بالبلد الجميل » أصبح معروفا : فما من بلاد مبسوطة الأديم بدت لعينى جميلة ، مهما يكن جمالها .. بل لابد لى من سيول ، وصخور ، وأشجار صنوبر، وغابات سوداء ، وجبال، وطرق منحدرة أتسلقها أو أهبطها ، ومهاوى من حولى تثير رعبى ! ولقد أتيحت لى هذه المتعة ، واستمرأتها فى أروع سحرها ، وأنا أقترب من (شامبيرى) .. فغير بعيد من جبل شديد الانحدار ــ يسمى (با دى لاشيل) ــ كان ثمة نهير يجرى تحت طريق واسعة منحوتة فى الصخر ، عند البقعة المسماة (شايى). وكان نهيرا قصيرا، يندفع جامحا عبر مهاوى سحيقة بدا أنه حفرها خلال آلاف السنين .. وكان ثمة سياج على حافة الطريق لتفادى النكبات ، مما مكننى من أن أطل على الأعماق ، وأن أحظى بالدوار وفق هواى! .. ذلك لأن من الأمور الطريفة فى مزاجى أننى أميل إلى الأماكن السحيقة الانخفاض، التى يدور لها رأسى ، وأننى أحب هذا الدوار كثيرا ما دمت مطمئنا إلى سلامتى .. ومن ثم انحنيت فى اطمئنان فوق السياج ، ومددت أنفى فى الفضاء، وظللت هكذا ساعات طويلة، أتأمل ــ بين وقت وآخر ــ الزبد والماء الأزرق الذى كنت

اسمع هديره وسط صراخ الغربان وصيحات الطيور الجارحة التى كانت تحلق من صخرة إلى صخرة ، ومن دغل إلى دغل ، على بعد مائة فرسخ تحتى .. وفى البقاع التى كانت الأرض تنبسط عندها فى انحدار شديد ، حيث لم تكن الأشجار من الكثافة بحيث تحول دون مروق الحصى ، رحت أجمع أكبر ما استطعت حمله من الأحجار ، ووضعتها على السياج ، ثم أخذت أطوح بها واحدة بعد أخرى ، مستعذبا رؤيتها وهى تمرق ، ثم ترتطم فتتهشم إلى ألف قطعة ، قبل أن تبلغ قاع الهاوية !

وإذ ازددت قربا من (شامبيرى) ، رأيت منظرا مشابها ، ولكنه من نوع مخالف : كانت الطريق تمتد عند أقدام صخرة كانت أبدع مسقط مائى شهدته فى حياتى . وكان الجبل منحدرا إلى درجة تجعل الماء يندفع فى الفضاء، ثم يهبط بعيدا فى قوس كبير ، بحيث يستطيع المرء أن يمر بين الماء والصخرة دون أن يبتل أحيانا ! ولكن كان من السهل أن يخدع الإنسان إذا لم يكن حذرا فى حسابه . ذلك لأن الماء ـ عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق ـ ينشق ويسقط فى رشاش .. فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ ، اخضل بالماء فى لحظة ، دون أن يفطن ـ فى بادىء الأمر ـ إلى أنه قد ابتل !

* * *

ووصلت أخيرا .. ورأيتها من جديد !.. ولم تكن وحيدة، فقد كان المدير العام للاقليم لديها فى اللحظة التى دخلت فيها عليها . وبدون أن أتكلم ، تناولت يدى وقدمتنى إليه بذلك اللطف الذى كان يفتح لها كل القلوب : « ها هو يا سيدى هذا الشاب المسكين ، فتكرم برعايته طالما استحق الرعاية ، ولن أشعر بعد ذلك بقلق من أجله ، بقية حياته ! » .. ثم وجهت إلى الخطاب قائلة : « انك الآن يا بنى فى خدمة الملك .. اشكر السيد المدير ، إذ هيأ لك أسباب العيش ! » .. وفتحت عينى الواسعتين دون أن أقول شيئا ، ودون أن أدرى فيم ينبغى أن افكر ، إذ أن طموحى المطرد النمو أدار راسى ، فتصورت نفسى للتو مديرا صغيرا ! .. ومن المؤكد أن حظى لم برق إلى التألق الذى أوحت به إلى خيالى هذه البداية ، بيد أنه كان يكفينى إذ ذاك أن أعيش فحسب ، وقد كان ما دبر لى أكثر مما رجوت .. وهاكم جلية الأمر :

خطر للملك « فيكتور اماديه » ـ على ضوء الحروب السابقة ، وحالة الميراث الذى آل إليه عن آبائه ـ أن هذا الميراث لن يلبث أن يفلت منه يوما ، ومن ثم فقد سعى إلى استنزاف موارده . ولما كان قد قرر ـ قبل ذلك بسنوات قلائل ـ أن يخضع الأشراف لضريبة العشور ، فإنه أمر بإجراء تقدير عام لجميع الأراضى ، لتعيين مساحتها وقيمتها ، ليتسنى بعد ذلك فرض الضريبة العقارية، وإعادة تنسيقها بمزيد من المساواة.

وكان هذا العمل قد بدأ فى عهد الأب، واستؤنف فى عهد الابن.. واستخدم لهذه المهمة مائتان او ثلاثمائة شخص ممن يتولون مسح الأرض ــ وكانوا يدعون مهندسين ــ ومن الكتاب الذين أطلق عليهم لقب السكرتيرين . وقد حصلت لى « ماما » على منصب بين هؤلاء الأخيرين . ومع أن المنصب لم يكن عظيم المورد ، إلا انه كان يدر ما يكفى للعيش عن سعة فى تلك المنطقة. وكان السيىء فى الأمر أن هذا التعيين كان مؤقتا ، ولكنه جعلنى فى وضع يمكننى من البحث عن منصب افضل وارتقاب الحصول عليه . وكان من بصيرة « ماما » أن تعمدت الظفر لى برعاية خاصة من المدير ، حتى اتمكن من الانتقال إلى منصب أرسخ مكانة ، إذا ما حانت نهاية عملى فى المنصب الأول .

ودخلت الخدمة عقب وصولى بأيام قلائل . ولم يكن فى هذا العمل شىء من العناء ، فسرعان ما خبرته . وهكذا قدر لى للمرة الأولى - بعد أربع أو خمس سنوات قضيتها فى التجوال ، والطيش ، والعذاب ، منذ بارحت (جنيف) ــ أن ابدأ فى كسب عيشى بعمل مشرف !

ولقد تبدو هذه التفصيلات المسهبة عن باكورة صباى ، أمورا صبيانية .. ولكنى غير مستاء لذلك ، فعلى الرغم من أننى ولدت رجلا ــ لاعتبارات معينة ــ إلا أننى ظللت طفلا لأمد طويل ، ولا أزال كذلك لاعتبارات كثيرة أخرى .. وأنا لم

اعد بأن اقدم للرأى العام شخصية عظيمة ، وإنما وعدت بأن أصف تلك الشخصية التى أوتيتها . ولابد ــ لكى تعرفونى فى كبرى ــ من أن تلموا الماما كافيا بصباى ، ذلك لأن الأشياء المادية ــ بوجه عام ــ أقل انطباعا فى نفسى من ذكرياتها ، كما أن جميع أفكارى تتخذ شكل صور خيالية .. فى حين أن الأحداث الأولى التى طبعت نفسها على صفحة ذهنى ظلت باقية ، ولم تملك الأحداث التى انطبعت بعدها سوى أن تندمج فيها ، بدلا من أن تطغى عليها ! .. وهناك مجموعة متعاقبة من العواطف والآراء التى تطغى على كل ما يأتى بعدها من عواطف وأفكار ، ولابد من التعرف على الأولى لكى يتسنى الحكم على الأخيرة . وقد اعتدت ــ فى جميع الأحوال ــ أن أعنى بالأسباب الأولى ، حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوسا .. وإنى لأرجو أن أستطيع ــ إلى حد ما ــ أن أعرض نفسى شفافة أمام عينى القارىء ، ومن أجل هذا أسعى إلى أن أطلعه عليها تحت جميع الأضواء ، وأن أعرضها من جميع النواحى ، وأن استيقن من أنه لن تغيب عن ملاحظته أية حركة من حركاتها ، حتى يكون قادرا فى النهاية على أن يحكم بنفسه على المبادىء التى انتهجتها .

وإذا كنت ألقى على نفسى مسئولية النتيجة ، وأقول للقارىء : « هذه هى شخصيتى » ، فقد يخيل إليه أننى إذا لم أكن أخدعه هو ، فإننى ــ على الأقل ــ أخدع نفسى . أما عندما اكتفى بتفصيل كل ما جرى لى ، وكل ما فعلت ، وكل ما خطر

ببالى ، وكل ما خالجنى من مشاعر ، فإننى لا استطيع أن أغرر به — بمحض رغبتى على الأقل — بل إننى لو أردت لما وجدت الأمر سهلا .. ومن ثم فإننى اترك له عبء تجميع هذه العناصر، وتقرير نوع المخلوق الذى تؤلفه ، إذ يجب أن تكون النتيجة من صنعه هو ، حتى إذا أخطأ بعد ذلك ، كان الخطأ كله من ذنبه . على انه لا يكفى — من اجل هذه الغاية — أن تكون قصصى صادقة ، وإنما يجب كذلك أن تكون دقيقة . وليس لى أن أحكم على أهمية الوقائع ، وإنما يقتضينى الواجب أن أرويها جميعا، ثم أترك له مهمة فرزها . وهذا ما حرصت عليه — حتى الآن — بكل ما أوتيت من شجاعة ، ولن أحيد عنه فيما يلى . غير أن ذكريات أوسط العمر ، تكون دائما أقل تألقا من ذكريات باكورة الصبا . ولقد بدأت بأن اقتبست عن هذه أفضل قسط استطعت اقتباسه . فإذا واتتنى الذكريات الأخرى بنفس الوضوح ، فإن القراء الذين ملوا الأولى ، ربما ازدادوا مللا .. أما أنا — بالذات — فلن أكون مستاء من عملى ، وليس لدى ما أخشاه فى هذا المشروع سوى أمر واحد : وليس هذا الأمر هو الاسراف فى القول ، أو سرد الأكاذيب ، وإنما هو ألا أقول كل شىء ، أو أن أخفى الحقائق .

الكراسة الخامسة

(من سنة ١٧٣٢ إلى ١٧٣٦)

كان ذلك فى سنة ١٧٣٢ — على ما يبدو لى — إذ وصلت إلى (شامبيرى) ، كما ذكرت ، وبدأت عملى فى مسح الأرض ، فى خدمة الملك . وكنت قد تجاوزت عامى العشرين ، ودنوت من الحادى والعشرين . وكنت — من الناحية العقلية — وافى التكوين بالنسبة لسنى ، ولكن المقدرة على الحكم على الأمور لم تكن متوفرة لى ، بل كنت فى مسيس الحاجة إلى الأيدى التى وقعت بينها، لأتعلم كيف أتصرف . ذلك لأن سنوات التجارب القليلة لم تقو على أن تبرئنى تماما من خيالاتى الشاعرية . وعلى الرغم من كل البأساء التى عانيتها ، فإننى لم أعرف عن الدنيا والناس إلا القليل ، وكأنى لم أدفع ثمن المعرفة !

واقمت فى دارى ، اعنى فى دار « ماما » ، ولكنى لم أسترد قط الغرفة التى كانت لى فى (أنيسى) ، فلم تعد ثمة حديقة ، ولا جدول ، ولا مناظر .. بل كان البيت الذى شغلته معتما كئيبا ، وكانت غرفتى أكثر غرف البيت ظلمة وكآبة : جدار بدلا من مناظر الطبيعة ، وحارة مسدودة بدلا من الشارع ، وقليل من الهواء ، ونزر من ضوء النهار ، ومساحة ضئيلة ، وصراصير ، وفئران ، وأخشاب بالية تكسو الأرض .. كل هذه ما كانت لتجعل من الغرفة سكنا بهيجا ، ولكنى كنت فى دارها — دار « ماما » — وبالقرب منها !.. ولما كنت بلا انقطاع فى مكتبى أو فى غرفتها ، فإنى لم أنتبه كثيرا إلى بشاعة غرفتى ،

إذ لم يكن لدى وقت للتفكير فيها . ولســوف يبدو عجيبا أن تقيم «ماما» فى (شامبيرى) خصيصا لتسكن هذه الدار الوضيعة، ولكنها كانت حيلة ماهرة من جانبها ، ينبغى الا اغفل ذكرها : فلقد واجهت فكرة الرحيل إلى (تورين) وهى كارهة ، إذ كانت تشعر ــ بعد الثورات التى كانت حديثة العهد ، وبعد القلاقل التى كانت لا تزال تلم بالبلاط ــ أن الوقت لم يكن ملائما لوجودها هناك . فى حين أن شئونهــا كانت تتطلب ظهورها ، إذ كانت تخشى أن تغدو منســية أو ضحية للوشايات ، سيما وانها كانت تعلم أن الكونت « دى سان لوران » ــ المدير العام للمالية ــ لم يكن يميل إليها . وكانت له فى (شامبيرى) دار عتيقة ، رديئة البنيان، وفى موقع بلغ من سوئه انها كانت تظل خاوية باستمرار ، فاستأجرتها « ماما » واستقرت فيها ! . . وكان هذا التصرف أكثر توفيقا من الرحيل إلى (تورين) ، فلم يقطع معاشها قط ، بل أصبح الكونت « دى سان لوران » - منذ ذلك الحين - من أصدقائها !

والفيت إدارة بيتها تقرب مما كانت عليه من قبل ، كما ظل وصيفها الوفى « كلود آنيه » معها دائما . . وهو ــ كما أظننى ذكرت - فلاح من (موترو) ، اعتاد فى طفولته أن يجمع الأعشاب فى منطقة (جورا) لصناعة الشاى السويسرى ، فألحقته «ماما» بخدمتها من أجل عقاقيرها ، إذ وجدت من الأصوب والأوفر أن يكون خادمها خبيرا بالأعشاب! . . وكان مشغوفا كل الشغف بدراسة النباتات ، فحبذت هذا الميل إلى درجة أن أصبح الرجل خبيرا نباتيا بحق ، ولولا أنه مات فى شبابه ، لكان من المحتمل

أن يذيع اسمه فى هذا العلم ، بقدر ما يستحق أن يخلد اسمه بين الشرفاء الأمناء . ولما كان جادا ، بل ووقورا ، كما أننى كنت أصغره ، فإنه غدا منى بمثابة المربى، مما عصمنى من كثير من الحماقات ، إذ كان ذا اثر على نفسى ، فلم أكن أجسر على أن انسى نفسى فى حضرته ! وكان له عين الأثر على نفس سيدته ، التى عرفت حسن إدراكه ، واستقامته ، وولاءه الذى لا يتزعزع نحوها ، فجازته خير الجزاء . . ولقــد كان « كلود آنيــه » ــ بلا مراء ــ رجلا نادرا ، بل انه الوحيد الذى رأيته من نوعه على الاطلاق ! كان متئدا ، متزنا ، مفكرا ، حكيما فى تصرفاته ، هادئا فى طباعه، موجزا مفيدا فى أقواله. وكان فى عواطفه عنف لم يكن يدعه يظهر البتة . . عنف كان ينهش أحشاءه ، ولكنه لم يدفعه أبدا إلى أن يرتكب فى حياته سوى حماقة واحدة، ولكنها كانت رهيبة . . تلك هى أنه سم نفسه ! . . وقــد وقع هذا الحادث المحزن عقب وصولى بقليل ، وكان خليقا بأن يطلعنى على مدى المودة الوثيقة التى كانت بين هذا الفتى وسيدته ، إذ أننى ما كنت لأحدسها إطلاقا لو لم تنبئنى بها هى بنفسها ! . . ويقينا انه إذا كان الولاء ، والتحمس ، والوفاء ، جديرة بجزاء من نوع تلك المودة ، فقد كان « آنيه » أهلا لذلك، والذى يثبت أنه كان خليقــا به ، أنه لم يسىء استغلال ثقــة سيدته أبدا ! . . وكان نادرا ما يتشادان ، ودائما تنتهى مشاداتهما على خير . على أنه قدر لإحداها أن تنتهى بســوء ، فلقد قالت السيدة لآنيه ــ فى غضبها ــ كلمة مثيرة لم يقو على احتمالها ، وفى تأثره وأساه ، وقعت يده على زجاجة بها خلاصة دهن

الأفيون ، فتجرع محتوياتها ، ثم استلقى فى هدوء ، مطمئنا إلى انه لن يستيقظ قط ! .. ولحسن الحظ ان مدام دى فاران راحت تجوس خلال دارها ـ وهى قلقة ، منفعلة ـ فعثرت على الزجاجة فارغة ، وحدست الباقى ، فأسرعت لنجدته ، وهى تطلق صرخات اجتذبتنى إليها . . فاعترفت لى بكل شىء ، وناشدتنى المعونة ، ونجحنا بعد كثير من العناء فى حمله على تقيؤ الأفيون . وإذ شهدت هذا المنظر ، عجبت لغبائى إذ لم يساورنى قط أتفه ريب فى الصلات التى انبأتنى هى بها ! .. بيد أن « كلود آنيه » كان من التكتم بحيث أن من يفوقوننى فى جلاء البصيرة كانوا خليقين بأن يفتروا بمظهره ! وكان الصلح بينهما بعد ذلك من نوع جعلنى أتأثر ـ انا نفسى ـ اشد التأثر . ومنذ ذلك الحين أضفت إلى التقدير احتراما نحوه ، واصبحت تلميذا له ، إلى حد ما .. الأمر الذى لم أجد فيه عيبا !

* * *

على أننى لم انج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع « ماما » فى مودة تفوق مودتى كثيرا . بل إننى ما فكرت يوما فى أن أشتهى لنفسى مثل هذه المكانة ، غير انه كان من الشاق على نفسى أن اراها تمتلىء بشخص آخر ! .. وكان هذا أمرا طبيعيا ، ومع ذلك فإننى بدلا من ان اشعر بنفور من ذاك الذى سلبنى إياها ، وجدت أن وفائى للسيدة قد امتد ـ فى الواقع ـ إليه هو الآخر ! فقد كنت راغبا ـ قبل كل شىء ـ فى سعادتها ، وما دام هو ضروريا لهذه السعادة ، فقد ارتضيت أن يكون هو الآخر سعيدا . اما هو ، فإنه « غاص »

تماما فى وجهات نظر مولاته ، واستشعر صداقة صادقة نحو الصديق الذى اصطفته . وبدون أن يفرض على السلطة التى كان مركزه يخوله إياها ، فإنه مارس ـ بطريقة طبيعية ـ تلك السلطة التى كان ذكاؤه الفائق يتيحها له على ذكائى ، بحيث لم أجرؤ البتة على عمل ما قد يبدو استهجانا له ، كما أنه لم يكن يستهجن سوى ما هو سيىء . وهكذا عشنا فى وحدة اسعدتنا جميعا ، ولم يكن ليقوى على تقويضها سوى الموت ! .. ومن ادلة روعة شخصية تلك المرأة الحبيبة ، أن كل الذين أحبوها كانوا يتحابون فيما بينهم .. فكانت الغيرة ، بل والتنافس ، يخضعان للشعور المسيطر الذى كانت توحى به السيدة ، وهكذا لم ار قط واحدا ممن كانوا يحيطون بها يضمر شرا لآخر ! .. فليكف أولئك الذين يقرأون كتابى لحظة عن مطالعتهم ، عند هذا المديح ، فإذا وجدوا ـ وهم يتأملونه ـ امرأة أخرى يستطيعون أن يقولوا عنها الشىء ذاته ، فليتعلقوا بها ليضمنوا الطمأنينة فى حياتهم .. ولو كانت ـ فيما عدا ذلك ـ آخر الغاويات !

وهنا تبدأ ـ منذ وصولى إلى شامبيرى ، حتى رحيلى إلى باريس فى سنة ١٧٤١ ـ فترة مداها ثمانى أو تسع سنوات ، سأروى خلالها من الحوادث التى تستحق الرواية عددا قليلا ، لأن حياتى كانت جد بسيطة وبهيجة . وكانت رتابتها هذه هى عين ما كانت تمس إليه حاجتى لكى استكمل تكوين شخصيتى ، التى حالت القلاقل المستمرة دون استقرارها . وفى هذه الفترة الغالية ، تماسكت تربيتى ـ المتنوعة ، غير

المتابعة ــ فجعلت منى الشخص الذى لم أكف بعد ذلك عن أن اكونه فى غمار العواصف التى كانت تتربص بى . ولقد كان هذا التطور غير محسوس ، كما كان بطيئا مصحوبا ببضعة احداث جديرة بالذكر .. بل جديرة بالمراعاة والتنمية !

ففى بداية الأمر ، لم أشغل بشىء سوى عملى، إذ أن قيود المكتب لم تكن تدعنى أفكر فى شىء آخر . وكان الوقت القليل الذى أتحرر فيه ، ينقضى إلى جوار «ماما» الطيبة . ولما لم تكن لدى فسحة للقراءة ، فإن شغفى بالاطلاع لم يعد يتملكنى . حتى إذا أصبحت واجباتى نوعا من العادة المتواترة ، قل انشغال بالى بها ، فعاودنى التململ والقلق ، وأصبحت القراءة ضرورة ــ من جديد ــ وكأنما كان هذا الميل يحتدم كلما عز ارضاؤه ، فكان خليقا بأن يغدو ولعا جنونيا ــ كما حدث عندما كنت فى كنف معلمى(١) ــ لو لم تتدخل بعض نوازع أخرى فتحول اهتمامى عنه .

ومع أن عملياتنا لم تكن تتطلب تعمقا فى الحساب ، إلا انها كانت تحتاج إلى قدر منه كان كافيا لأن يزعجنى فى بعض الأحيان . ولكى أتغلب على هذه العقبة . ابتعت بعض كتب فى علم الحساب ، واستوعبتها جيدا ، إذ كنت أستذكرها وحدى . وقد تبينت أن الحساب التطبيقى أوسع نطاقا مما يتصور المرء ، إذا ما كانت الدقة منشودة . فثمة عمليات بالغة الطول، كنت أرى المهندسين يخطئون أحيانا فى سياقها . بيد أن التفكير المقترن بالمران يتيح سوانح جلية ، فلا يلبث المرء أن يهتدى

(١) يقصد الحفار الذى قضى فترة عنده يتعلم حرفة النقش على المعادن.

إلى أساليب مقتضبة يثير ابتكارها اعتداده بنفسه ، كما أن دقتها ترضى العقل ، وتضفى سحرا على عمل لا ينطوى على حمد ولا عرفان . ولقد تعمقت فى هذا الباب تعمقا موفقا إلى درجة أن اية معضلة قابلة لأن تحل بالأرقام وحدها لم تكن تعيينى !.. حتى أننى الآن ، وقد أخذ كل ما عرفته ينمحى من ذاكرتى يوما بعد يوم ، أجد أن هذه المعرفة التى اكتسبتها لا تزال باقية ــ إلى حد ما ــ بعد انصرافى عنها ثلاثين عاما !.. ولقد حدث منذ أيام ، وفى خلال رحلة قمت بها إلى (دافينبورت)، أن عاونت ابناء مضيفى فى درس الحساب ، فكان سرورى يفوق التصور ، إذ حللت ــ دون ما خطأ ــ مسالة من أشد المسائل تعقدا . وكان يخيل إلى وأنا أسجل الأرقام أننى فى (شامبيرى) من جديد ، وفى أيام شبابى الهانئة . فلقد ارتددت إلى تلك الأيام ، على بعد الشقة بينى وبينها !

كذلك ولد تلوين خرائط مهندسينا الميل إلى الرسم فى نفسى ، فابتعت بعض الألوان ، وشرعت ارسم الزهور والمناظر الطبيعية . ومما يرثى له أننى اكتشفت انى لم أوت سوى موهبة طفيفة فى هذا الفن الذى كنت اميل إليه بكل جوارحى ! .. وكنت خليقا بأن أقضى ــ بين أقلامى وفرشى ــ أشهرا بأكملها ، دون أن أبرح دارى . وإذ أصبحت هذه الهواية تستأثر باهتمامى إلى درجة كبيرة ، فقد رؤى انتزاعى من سيطرتها . وهكذا الحال دائما بالنسبة لكل الميول التى أشرع فى الانصراف إليها بكل نفسى ، إذ أنها تتضاعف وتستحيل إلى شغف ، فسرعان ما لا أعود أرى فى الدنيا سوى المتعة التى استشعرها

فان الرضى الذى كنت أشهده فى عينى « آنية »
وهو يعود الى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلنى ـ مرتين أو ثلاثا ـ على وشك أن أنصرف الى جمع الأعشاب معه

فى مزاولتها . ولم تبرئنى السن من هـذا العيب ، بل إنه لم يتضاءل مع مرور السنين ، حتى أننى لأرانى ـ وانا اكتب هذا الآن ـ كمخرف كهل يهيم بدراسة أخرى لا نفع من ورائها ، ولا يفقه فيها شيئا ! .. دراسة يضطر أولئك الذين كرسوا لها حياتهم إبان شبابهم ، إلى التخلى عنها فى مثل السن التى اريد أن أشرع فى ممارستها فيها(١) !

* * *

ولقد كانت هذه الهواية خليقة بأن تبدو امرا طبيعيا فى ذلك الوقت(٢) ، إذ كانت الفرصة سانحة، وكان ثمة ما يغرينى بانتهازها . فإن الرضى الذى كنت اشهده فى عينى « آنيـه » وهو يعود إلى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلنى ـ مرتين أو ثلاثا ـ على وشك ان انصرف إلى جمع الأعشـاب معه . واكاد اوقن بأن هذه الهواية كانت قمينـة بأن تستولى على ، لو اننى خرجت معـه مرة ، ولعلنى كنت قد أصبحت اليـوم خبيرا كبيرا بالنباتات ! .. فلست أعرف فى الدنيا دراسة أكثر ملاءمة لميولى الطبيعيـة من دراسة النبات ، وما الحيـاة التى اعيشها فى الريف منذ عشر سنوات سوى دراسـة مستمرة للأعشاب ، دون ما هدف ـ فى الواقع ـ ودون ما تقـدم .. على أننى لم أكن فى ذلك العهد على بينة بشىء عن علم النبات،

---

(١) شغف « روسو » ـ وهو يكتب هذه الكراسة من اعترافاته ـ بفلاحة البساتين .

(٢) يقصد الفترة التى عاش خلالها فى « شامبيرى » مع مدام دى ناران.

فشعرت بنوع من الازدراء ــ بل ومن النفور ــ لهذه الدراسة، ولم أر فيها سوى ما يراه كل الجهلة من أنها حرفة المهتم بصناعة العقاقير ــ فإن « ماما » ، التى كانت تحبها ، لم تكن تفيد منها إلا فى هذه الصناعة ، ولم تكن تبحث إلا عن النباتات العادية ، لتستغلها فى عقاقيرها ــ وهكذا كان علم النبات والكيمياء والتشريح تختلط فى ذهنى تحت اسم الطب ، ولم تكن تصلح إلا لامدادى بفكاهات ساخرة طيلة يومى، ولتجلب على الصفعات بين وقت وآخر !

وإلى جانب ذلك ، أخذ ميل آخر مختلف عن هذا ــ بل على النقيض منه إلى حد كبير ـ ينمو فى نفسى باطراد، وسرعان ما ابتلع كل ما عداه : وأعنى بذلك الموسيقى . ولا بد أننى خلقت لهذا الفن بالتأكيد ، فقد بدأت أحبه منذ باكورة طفولتى ، وهو الوحيد الذى ظللت أحبه باستمرار فى جميع الأوقات . والعجيب فى الأمر أن الفن الذى خلقت من اجله ، قد كبدنى تعلمه ــ برغم ذلك ــ عناء كبيرا ، وكان تقدمى فيه من البطء بحيث أننى لم أجرؤ قط على الغناء باعتداد ، بعد كل التدريب الذى مارسته فى حياتى ! .. أما الذى حبب إلى هذه الدراسة ــ فى ذلك الحين بوجه خاص ــ فهو أننى كنت أستطيع أن أواصلها مع « ماما » . فمع أن أذواقنا فى النواحى الأخرى كانت جد مختلفة ، إلا أن الموسيقى كانت ــ بالنسبة لنا ــ رباطا يجمع بيننا ، فكنت أحب دائما أن أفيد منه . وما كانت « ماما » لتأبى ذلك . بل إننى كنت إذ ذاك أكاد أعادلها تقدما فى هذا الفن ، فكان فى وسعنا بعد محاولتين أو ثلاث أن نحل

رموز أى لحن . وكنت أحيانا إذا ما رأيتها مستغرقة أمام موقد ، أقول لها : « ماما ، هاك لحنا ساحرا لاثنين ، يبدو لى أنه خليق بأن يجعل رائحة عقاقيرك تنم عن احتراقها » ! .. فكانت تقول لى : « آه ! .. قسما لأجعلنك تأكلها إذا انت شغلتنى عنها حتى تحترق ! » .. وبينما يدور الجدل ، كنت أجرها إلى معزفها ، فننسى نفسينا ، حتى تحترق خلاصة الابسنت أو العرعر(1) بالفعل ، فتلطخ « ماما » بها وجهى .. وكم كان كل ذلك عذبا !

ومن هذا ترون أننى وإن كنت لم أوت من الفراغ إلا وقتا قصيرا ، فقد كان لدى كثير من الأمور التى أنفق فيها هذا الوقت . على أنه كان ثمة ــ إلى جانب ذلك ــ ملهاة خليقة بأن تعادل وحدها كل الملاهى الأخرى ! وإليك قصتها : كنا نقيم فى شبه سجن معتم خانق ، حتى أننا كنا بحاجة إلى الخروج أحيانا لننشد الهواء فى الريف . وأغرى آنيه « ماما » بأن تستأجر بستانا فى الضواحى لتربية النباتات . وكان يلحق بهذا البستان بيت ريفى صغير بديع ، جهز بأثاث متواضع ، وأقيم فيه سرير . وكثيرا ما كنا نتناول عشاءنا هناك ، كما كنت أنام فيه أحيانا .. ولقد أولعت ــ دون أن أفطن ــ بهذا « المعزل » الصغير ، فحملت إليه قليلا من الكتب وعددا من المطبوعات ، وقضيت شطرا من وقتى فى تزيينه ، وفى إعداد مفاجأة مستحبة لماما إذا ما خرجت للنزهة فى ذلك المكان .

---

(1) الابسنت عقار مخدر ، « والعرعر » نبات !

وكنت ابتعد عنها أحيانا ، لكى اشغل بها بالى ، ولكى أفكر فيها بمزيد من الابتهاج . وكانت هذه نزوة اخرى لا يسعنى أن أبررها أو أشرحها ، ولكنى أعترف بها ، لأنها كانت حقيقة . وإنى لأذكر أن مدام دى « لوكسمبورج » حدثتنى مازحة ــ ذات مرة ــ عن رجل اعتاد أن يفارق عشيقته لكى يكتب إليها رسائل ! .. وقد قلت لها إنه كان من المحتمل أن أكون ذلك الرجل ــ وكان خليقا بى أن أضيف أننى كنت أتصرف أحيانا مثله ! ــ على أننى لم اكن أشعر قط ، وانا مع « ماما » بضرورة الابتعاد عنها كى أزداد حبا لها ، لأننى كنت إذا ما خلوت إليها أشعر بطمأنينة كاملة ، كما لو كنت وحيدا ! .. وهى حال لم أستشعرها البتة فى حضور أى امرىء آخر ــ رجلا كان أو امرأة ــ مهما يكن تعلقى به ! .. ولكنها كثيرا ما كانت تحاط بقوم لم اكن أنسجم معهم إطلاقا ، فكان ينتابنى شعور من الضيق والملل ، يدفعنى إلى ملاذى ذاك[1] ، حيث كان بوسعى ان أهنأ بها كما كنت ابتغيها ، دون أن أخشى أن يتعقبنى الزائرون الثقلاء !

وعلى هذه الحال ــ التى كان وقتى فيها موزعا بين العمل واللهو والتعلم ــ نعمت بحياة مفعمة باعذب دعة ! على أن أوربا لم تكن فى مثل طمأنينتى ، إذ كانت فرنسا والإمبراطور قد اعلنا الحرب لتوهما ، وساهم ملك (سردينيا) فى النزاع ، فأخذ الجيش الفرنسى يتقدم عبر (بييمونت) ليغزو أراضى

(١) يقصد البيت الريفى الملحق بالبستان .

ميلان . ومرت فرقة منه خلال (شامبيرى) ، كان بين كتائبها كتيبة (شامبانى) ، التى كان قائدها الدوق دى « لاترموبى » . وقد قدمت إليه ، فكان مسرفا فى وعوده ــ وإنى لموقن من أنه لم يتذكرنى البتة بعد ذلك ! ــ وكان بستاننا الصغير يقوم فى اقصى طرف الضاحية التى دخلها الجند ، ومن ثم فقد كان بوسعى أن أنعم تماما بمتعة مشاهدتهم وهم يمرون ، وكنت من التحمس لنجاح هذه الحرب ، كما لو كانت لى مصالح عظيمة مهددة بها ! .. ولم يكن قد جال بخاطرى حتى ذلك الحين أن أفكر فى المسائل العامة ، فبدأت أقرأ الصحف للمرة الأولى ، ولكن .. فى تحيز لفرنسا[1] كان يجعل قلبى يخفق طربا كلما أحرزت أقل نجاح ، بينما كانت اخفاقاتها تحزننى وكأنها قد ألمت بى أنا ! .. ولو أن هذه الحماقة كانت عابرة ، لما وجدتها جديرة بأن أتحدث عنها ، ولكنها تغلغلت فى فؤادى دون ما سبب كاف ، حتى أننى حين قمت ــ فى باريس ــ بدور عدو الطغاة المعتز بدعوته ، شعرت ، رغما عن نفسى ، بميل خفى إلى هذه الأمة التى وجدتها راسفة فى الذلة ، وإلى الحكومة التى كنت أتظاهر بالنقمة عليها . والطريف فى الأمر أننى ، لخجلى من شعور يناقض مبادئى ، لم أجسر على أن أفضى به لأى امرىء ، ورحت أسخر من الفرنسيين فى هزائمهم ، بينما كان قلبى يدمى من أجلهم ، أكثر مما كانت تدمى قلوبهم هم ! ومن المؤكد أننى الرجل الوحيد الذى يعيش بين قوم

(١) لم يكن روسو يعتبر فرنسا وطنه ، فقد كان من رعايا (جنيف) بسويسرا .



احسنوا معاملته وهام بحبهم ، ولكنه مع ذلك يظهر نحوهم ، وهو بينهم ، روح الازدراء ! وهذا الميل من ناحيتى مجرد من الهوى، وهو من القوة ، والبقاء، والمناعة بحيث أننى لم أستطع ان أبرىء نفسى من هذا الضعف ، حتى بعد رحيلى عن فرنسا، عقب العاصفة التى تبارت حكومتها وحكامها وكتابها فى إثارتها ضدى ، ومذ أصبح العرف المألوف هو إغراقى بما لا استحق من سباب ! .. نعم ، إننى أحبهم برغم نفسى ، وبرغم سوء معاملتهم إياى !

ولقد سعيت طويلا إلى تبين سبب هذا التحيز ، فعجزت عن العثور عليه ، اللهم إلا فى عين المناسبة التى أوجدته : فإن الميل المطرد إلى الأدب أولانى شغفا بالكتب الفرنسية ومؤلفيها وبلاد هؤلاء المؤلفين . وفى الوقت الذى مر فيه الجيش الفرنسى بشامبيرى ، كنت اقرأ كتاب « برانتوم » المسمى « القادة العظام » ، فكان رأسى مليئا بأمثال كليسون ، وبايار ، ولوتريك، وكولينى ، ومونمورنسى ، وتريموبى ، وكنت أحب ذرياتهم بوصفهم ورثة فضائلهم وبسالتهم . ورحت أخال اننى ألمح فى كل كتيبة مرت تلك العصابات السوداء الشهيرة ، التى أحرزت تلك البطولات ، من قبل ، فى (بييمونت) . وموجز القول اننى ربطت ما كنت أراه ، بالأفكار التى كنت اقتبسها عن الكتب . وراحت مطالعاتى الدائبة ـ وكانت لا تزال مقصورة على مؤلفات الأدباء الفرنسيين ـ تغذى حبى لبلادهم ، ثم حولت هذا الحب فى النهاية إلى شغف أعمى لم يقو شىء على التغلب عليه ! ولقد سنحت لى ـ فيما بعد ـ الفرصة كى

الاحظ فى سياق رحلاتى أن هذا الأثر لم يكن قاصرا على بالذات، وإنما كان يتعدانى ـ بدرجة متفاوتة ـ إلى أفراد من جميع البلدان ، وهم ذلك القسم من الأمة الذى يحب القراءة ويقبل على الأدب ، فكان هذا الشغف يرجح على النفور العام الذى توحى به عجرفة أخلاق الفرنسيين ! .. والملاحظ فى هذا الصدد أن قصص أدبائهم أكثر استيلاء من رجالهم على قلوب النساء فى جميع البلدان .. كما أن تحفهم التمثيلية تجتذب الشباب إلى مسارحهم ، فإن شهرة مسارح باريس تجتذب إليها زرافات من الأجانب ، الذين يعودون إلى أوطانهم وهم من أشد المعجبين المتحمسين لها ! .. وبالاختصار أقول إن الذوق الرائع الذى يبين فى أدب الفرنسيين ، يسبى عقول كل أولئك الذين أوتوا أى قدر من العقل . ولقد رأيت خلال تلك الحرب ـ التى انتهت أسوأ نهاية بالنسبة لهم ـ أن مؤلفيهم وفلاسفتهم قد صانوا شرف اسم فرنسا الذى لطخه محاربوها!

وقد كنت إذ ذاك فرنسيا متحمسا ، نهما إلى الأنباء ، فكنت اذهب مع حشد متسقطى الأخبار إلى ساحة السوق ، لننتظر البريد . وكنت ـ فى غباء يفوق غباء الحمار فى الأسطورة ـ أشغل نفسى كثيرا بمحاولة معرفة أى سيد سيكون لى شرف حمل سرجه وركابه ، فلقد قيل فى تلك الأثناء إننا سنتبع فرنسا ، وأن (سافوا) ستبادل بأراضى (ميلان) . على أنه من الواجب الاعتراف بأننى كنت على حق فى قلقى ، فلو أن هذه الحرب انقلبت فى غير صالح الحلفاء ، لتعرض معاش "ماما"

لخطر كبير . غير أننى كنت مفعما بالثقة فى أصدقائى الطبيين[١] ، ولم تخب هذه الثقة ــ فى هذه المرة ــ بفضل ملك سردينيا ، الذى لم افكر فيه إذ ذاك !

* * *

وبينما كان الصراع دائرا فى إيطاليا ، كان الغناء دائرا فى فرنسا ! . . فقد بدأت أوبرات « رامو » تحدث ضجة ، وترفع من شأن مؤلفاته النظرية التى كان غموضها قد جعلها فى متناول نفر ضئيل من الناس . ولقد سمعت عفوا من مؤلفه « رسالة فى التوافق » ، فلم أرتح حتى حصلت على هذا الكتاب . وبمصادفة أخرى ، سقطت مريضا . وكان مرضى نوعا من الالتهاب ، الذى كان عنيفا وقصيرا ، ولكن نقاهتى كانت طويلة ، فلم يكن بوسعى الخروج لمدة شهر . وفى خلال هذه الفترة عكفت على « رسالة فى التوافق » التهمها ، ولكنها كانت طويلة ، محشوة بالإسهاب ، سيئة العرض إلى درجة أننى شعرت بأن لا بد لى من وقت طويل كى أدرسها واستوعبها . وأرجأت جهودى ، ورحت أجلو عينى بالموسيقى . ولم تفارق ذهنى أغانى « بيرنييه » ، التى رحت أتدرب عليها . (فقد حفظت منها عن ظهر قلب أربعا أو خمسا ، منها تلك التى كانت تدعى « آلهة الحب النائمة » ، التى لم أسمعها ثانية منذ ذلك الحين ، والتى لا أزال أحفظها كلها تقريبا . وكذلك « الحب الذى لدغته نحلة » ، وهى أغنية جد بديعة من تأليف «كليرامبو» حفظتها فى عين ذلك الوقت تقريبا) .

---

(١) يقصد الفرنسيين .

واستكمالا لشغفى ، وصل من (فال داوست) عازف أرغن شاب يدعى الأب « باليه » ، كان موسيقيا مجيدا ، ورجلا طيبا ، وعازفا يجيد مصاحبة من يغنى . وتعرفت إليه ، فأصبحنا لا نفترق . وكان قد تتلمذ على راهب إيطالى بارع فى العزف على الأرغن ، فحدثنى عن مبادئه فى الموسيقى ، وقارنتها بمبادىء « رامو » ــ الذى كنت أعجب به ــ وملأت رأسى بالعزف الذى يصاحب الغناء ، وبتناسق الأنغام وتوافقها . وكان لا بد من أن أشحذ حساسية أذنى لكل هذا ، فاقترحت على « ماما » إقامة حفلة موسيقية فى كل شهر ، فوافقت . وإذا بى أستغرق فى تلك الحفلات ، فلم أعد أشغل بشىء آخر ليلا أو نهارا . . والواقع أننى شغلت شطرا كبيرا من وقتى فى تنظيم الموسيقى ، والحفلات الموسيقية ، والأدوات ، وتقسيم الأدوار ، وما إلى ذلك ! . . وكانت « ماما » تغنى ، كما أن الأب كاتون ــ الذى سبق أن تحدثت عنه ، والذى سأتحدث عنه مرة أخرى ــ كان يغنى هو الآخر . وكان أستاذ للرقص يدعى « روش » يعزف مع ابنه على « الكمان » ، والسيد « كانافا » ــ وهو موسيقى بييمونتى كان موظفا فى المساحة ، وقد تزوج بعد ذلك واستقر فى باريس ــ يعزف على الكمان الكبير ، بينما كان الأب « باليه » يصاحبهم على « البيانو » ، كما كان لى شرف قيادة الموسيقى ، دون أن أنسى العصا . وفى وسع المرء أن يتصور مدى جمال كل ذلك ! . . ولئن لم تكن هذه الحفلات كتلك التى كانت تقام لدى السيد دى « تريتوران » ، إلا أنها كانت تقرب منها !

وأثارت الحفلات الموسيقية الصغيرة التى أخذت تقيمها مدام دى غاران ـ وهى حديثة عهـد بالإيمان ، وكانت تعيش على بر الملك ، كما كان يقال ـ تذمر عصبة الأتقياء ، ولكنها كانت ملهاة مستحبة لكثير من الشرفاء . ولكن هل يستطيع أحد أن يحدس: من الذى كنت أضعه على رأس تلك المناسبات ؟ .. كان راهبا ، ولكنه راهب موهوب ، بل ومحبوب ، أثرت بلاياه ، فيما بعد ، على نفسى تأثيرا قويا ، ولا تزال ذكراه ـ التى ارتبطت بذكرى أجمل أيامى ـ عزيزة لدى . ذلك هو الأب كاتون ـ أحد الرهبان الجبليين(١) ـ الذى عمل بالاشتراك مع الكونت « دورتان » على مصادرة موسيقى « الهريرة » المسكينة فى (ليون) ، ولم يكن هذا أبدع ما فى حياته . فقد تخرج فى « السوربون » ، وعاش ردحا طويلا فى أرقى الأوساط الباريسية ، وكان ذا حظوة خاصة لدى المركيز « دانترمون » ، الذى كان سفيرا لسردينيا فى ذلك العهد . وكان حسن البنيان ، ممتلىء الجسم ، بارز العينين ، ذا شعر أسود كان يتجعد بطبيعته على جبينه ، وذا أخلاق نبيلة وصريحة ومتواضعة ، فى آن واحد ! .. كان مظهره بسيطا وبديعا ، دون ما شىء من النفاق أو السلاطة التى عرفت عن الرهبان ، ودون ذلك الصلف المألوف لدى نجوم المجتمع ، وإن كان واحدا منهم .. لم يكن يبدى سوى اعتداد الرجل الشريف ، الذى يحترم نفسه ـ دون أن يخجل من لباسه ـ ويشعر دائما بأنه فى الوسط

(١) سبق أن شرحنا مذهب الرهبان الجبليين فى الجزء الأول ، ونضيف أنهم من « الفرنسيسكان » .

المحترم إنما يكون فى مكانه الطبيعى . ومع أنه لم يكن جد متعلم بالدرجة التى تتفق مع « الدكتوراه » التى كان يحملها ، إلا أنه كان كامل العدة والاستعداد لأن يكون من رجال المجتمع .. ولم يكن يتلهف على أن يعرض معرفته ، وإنما كان يستغلها فى الفرص المناسبة ، حتى لقد كان يظن أنه أوتى من المعرفة أكثر مما كان يمتلك ! .. ولما كان قد عاش طويلا فى المجتمع الراقى ، فإنه كان يولى المؤلفات المستحبة من الاهتمام أكثر مما كان يولى العلم الجاف . وكان حاضر البديهة ، يقرض الشعر ، ويجيد الكلام ، ويحذق الغناء ، وقد وهب صوتا جميلا ، كما كان يعزف على الأرغن و « البيانو » . وكان هذا أكثر مما يكفى لأن يجعله منشودا ومرغوبا ـ وهكذا كان بالفعل ! ـ بيد أن ذلك كله لم يحمله على أن يهمل واجبات منصبه إلا بقدر تافه ، فلم يلبث أن اختير ـ برغم غيرة مزاحميه ـ نائبا لرئيس طائفته فى إقليمه . وبمعنى آخر ، كان من أرفع أفراد الطائفة شأنا !

ولقد تعرف الأب « كاتون » إلى « ماما » لدى المركيز « دانترمون » . وكان قد سمع عن حفلاتنا الموسيقية فى أحاديث القوم ، فأعرب عن رغبة فى المساهمة فيها . وقد فعل ، فأكسبها بهجة ! وسرعان ما توثق ودنا بفضل ميلنا المشترك للموسيقى ، إذ كان هذا الميل ـ لدى كل منا ـ ولعا متأججا ، وكان كل ما بيننا من فارق هو أنه كان موسيقيا موهوبا حقا ، فى حين أننى لم أكن سوى متطفل على الفن ! وكنا نذهب فنعزف فى غرفته ، مع « كانافا » والأب « باليه » ، كما كنا نعزف على أرغنه أحيانا فى أيام الأعياد . وكثيرا ما كنا نتناول

غذاءنا على مائدته الصغيرة ، فقد كان ـــ وهذا ايضا من دواعى العجب بالنسبة لراهب ـــ كريما ، مغداقا ، ذواقة للأطعمة فى غير نهم . وكان ، فى أيام حفلاتنا ، يتناول عشاءه فى دار «ماما» ، فكانت تلك المآدب كثيرة المرح والسرور ، يقال فيها كل ما يخطر بالبال ، وتلقى فيها الأغانى الثنائية .. بينما استرسل أنا على سجيتى ، فأغدق الملح والطرائف . وكان الأب « كاتون » يبدو لطيفا ، و « ماما » تستأثر بالاعجاب ، بينما يغدو الأب باليه هدفا للضحك ، بصوته الذى يشبه خوار الثور ! .. أيتها اللحظات العذبة الحافلة بعبث الشباب ، لكم طال بك البعاد !

وبما أننى لن أعود إلى الكلام عن هذا الأب كاتون المسكين ، فإنى أوجز هنا قصته المحزنة فى كلمتين : فإن الرهبان الآخرين ، الذين كانوا يغارون منه ـــ او بالأحرى يحقدون عليه ـــ إذ رأوا فيه كفاءة وخصالا حميدة ، ليس فيها من فساد الرهبان شيئا ، أوسعوه كراهية لأنه لم يكن بغيضا مثلهم ! .. فاجتمع رؤساؤهم عليه ، واوغروا ضده الرهبان الذين كانوا يحسدونه على مركزه ، والذين لم يكونوا يجرؤون من قبل على التطلع إليه ، ومناوأته .. فرمى بألف إهانة ، وأقصى عن منصبه ، وانتزعت منه حجرته التى كان قد أثثها بأناقة وبساطة معا ، وحبسوه حيث لا أدرى .. واخيرا ، أغرقه أولئك التعساء بوصمات لم تقو نفسه الشريفة الأبية ـــ بحق ـــ على احتمالها . وبعد أن كان بهجة أظرف المجالس ، مات أسى على فراش حقير (برش) ، فى ركن ما من « زنزانة » أو «جب» ، مأسوفا عليه

ومبكيا من جميع الأشراف الذين عرفوه ، والذين لم يجدوا فيه أى عيب ، سوى أنه كان راهبا !

* * *

وفى سياق هذه المعيشة ، لم ألبث أن غدوت ـــ بعد أمد وجيز ، غارقا فى الموسيقى . وألفيتنى بعيدا عن التفكير فى أى شىء آخر ، ولم أعد اذهب إلى مكتبى إلا غصبا ، فقد أصبح الارهاق والجهد الدائب يسببان لى عناء لا يطاق .. وانتهيت أخيرا إلى الرغبة فى ترك منصبى ، لأكرس نفسى بأكملها للموسيقى ! وفى وسع المرء أن يتصور أن هذه الحماقة لم تقابل بغير معارضة ، فإن ترك منصب شريف ، ودخل ثابت ، للجرى وراء تلاميذ غير مضمونين(١) ، كان نهجا خلوا من الحكمة ، بحيث لم يكن يرضى « ماما » .. بل إننا إذا افترضنا أن توفيقى المقبل بلغ ما كنت أتصوره من ضخامة ، فإن ذلك كان يحد من طموحى ويحصره فى نطاق متواضع ، إذ يهبط بى طوال العمر إلى مركز الموسيقى (الموسيقار) ! .. وأخذت تلك المرأة التى لم تكن ترسم سوى أبدع الخطط ، والتى لم تعد تحكم على قط وفقا لرأى السيد « دوبون » ، أخذت ترمقنى فى الم وانا اشغل جديا بموهبة كانت تراها غير مربحة ، وكثيرا ما كانت تردد لى ذلك المثل الريفى الذى قل ما يصدق فى باريس : « ان الذى يتقن الغناء ويحذق الرقص ، يتخذ لنفسه مهنة قل أن ترفع من قدره » ! .. على أنها ـــ من ناحية أخرى ـــ كانت ترانى منساقا

---

(١) كان يعتزم أن يتكسب عيشه من تدريس الموسيقى .

لميل لا يقاوم ، فإن ولعى بالموسيقى غدا جنونا ، ومن ثم فقد
حق لها أن تخشى أن يتأثر عملى من جراء انشغالى ، فيؤدى
إلى أن أحرم من منصبى ، وهو أمر كان من الخير أن أقدم عليه
بنفسى(٢) .. ومرة أخرى ، بينت لها أن هذا المنصب لم يكن
مقدرا له أن يدوم طويلا ، وأنه لابد لى من مهنة اكتسب منها
عيشى ، وأن السعى إلى أن اكتسب بالمران حذقا للفن الذى
كان ميلى يدفعنى إليه — والذى اختارته لى هى — أضمن من
أن أضع نفسى تحت رحمة من يولوننى حماهم ، أو أن أحاول
عملا جديدا قد يجانبنى فيه التوفيق ، وقد يدعنى — فى
النهاية — بلا موارد لكسب عيشى ، بعد أن أكون قد تجاوزت
سن التعليم ! .. وانتزعت أخيرا موافقتها ، بالغضب واللجاجة
والملاينة ، أكثر منى بالحجج المقنعة ! .. فهرعت لفورى مقدما
استقالتى إلى السيد كوتشيللى — المدير العام للمساحة — فى
زهو وخيلاء ، وكأننى أقدمت على أكثر الأعمال بطولة ..
وهكذا تركت منصبى طواعية، دون ما داع ، ولا عذر، ولا مبرر
.. بل فى اغتباط يفوق اغتباطى يوم ظفرت به قبل عامين !

هذه الخطوة — برغم أنها كانت حماقة مطلقة — اكسبتنى
فى البلاد نوعا من الاعتبار الذى أفادنى . وظن البعض أننى
استند إلى موارد لم أكن أمتلكها ، فى حين أن غيرهم قدروا
موهبتى على ضوء تضحيتى — وهم يروننى أنصرف بكل نفسى
إلى الموسيقى — واعتقدوا ، إزاء كل هذا الولع بالفن ، أننى

(٢) أى أنه كان من الخير أن يستقيل بدلا من أن يقال !

ولابد على معرفة فائقة به ! .. ولما كان الأعور ملكا فى مملكة
العميان ، فقد أخذنى القوم على أننى أستاذ بارع ، لأنه لم يكن
ثمة من المعلمين سوى الرديئين ! .. وإلى جانب ذلك ، فإننى
لم يكن يعوزنى حذق الغناء — إلى درجة لا بأس بها — كما كنت
مفضلا بسبب سنى وشكلى، فسرعان ما أصبح لى من التلميذات
أكثر مما كان يلزمنى لتعويض مرتبى كموظف كتابى !

ومن المؤكد أنه لم يكن بوسع امرىء أن ينتقل — فى سبيل
الاستمتاع بالحياة — من أمر إلى نقيضه ، بأسرع مما انتقلت
أنا ! .. ففى المساحة كنت أمارس — ثمانى ساعات فى اليوم —
أشد الأعمال كآبة ، مع أناس كانوا هم الآخرون أشد الناس
كآبة ، حبيسا فى مكتب مسمم بأنفاس وعرق كل هؤلاء الأجلاف
الذين كان معظمهم بالغى القذارة ، مشعثين — حتى أننى كنت
أشعر بدوار وغثيان لفرط الانتباه والرائحة والجهد والضيق
أحيانا ! فإذا بى الآن ، بدلا من ذلك ، أجدنى أغوص فجأة فى
المجتمع الراقى ، وأصبح مرغوبا ومنشودا فى خير البيوت ،
أحظى بالحفاوة والملاطفة والإكرام فى كل مكان ، حيث ترتقب
وصولى آنسات لطيفات أنيقات ، ليستقبلننى فى تلهف ! ..
لا أدرى سوى الأشياء الفاتنة ، ولا أشم سوى الورد وزهر
البرتقال ، ولا أحاط إلا بالغناء والكلام والضحك واللهو ..
ولا أغادر بيتا إلا لأجد كل هذا فى بيت آخر ! .. ولسوف يقرنى
القارىء على أنه — وقد تساوت الميزات — لم يكن ثمة مجال
للتردد فى الاختيار . والحق أننى رضيت عن اختيارى إلى
درجة أننى لم استشعر الندم قط .. حتى فى هذه اللحظة ،

وانا أزن أعمال حياتى بميزان العقل ، بعد أن تحررت من البواعث النزقة التى كانت تحدونى إذ ذاك !

ولقد كانت هذه هى المرة الوحيدة ـ تقريبا ـ التى لم أطع فيها سوى ميولى ، فلم يخب رجائى ! ولقد أدت الحفاوة السلسة ، والروح اللطيفة ، والطباع السهلة التى أوتيها أهل تلك البلاد ، إلى جعل اتصالى بالدنيا أمرا مستحبا ، وقد كان الميل الذى تملكنى إذ ذاك نحو هذا كله ، دليلا أثبت لى بجلاء أنه إذا كان قد قدر لى الا أحب العيش وسط الناس ، فقد كان هذا ذنبهم اكثر مما هو ذنبى !

ومما يؤسف له أن أهل (سافوا) ليسوا أغنياء ـ أو لعله كان أمرا أجدر بالأسف أن يكونوا أغنياء ! ـ ذلك أنهم ، على ما هم عليه ، خير من عرفت من الناس ، وأحسنهم معاشرة . وإذا كانت فى الدنيا مدينة صغيرة تتسنى فيها عذوبة الحياة ، فى وسط ملائم ومأمون ، فهذه المدينة هى (شامبيرى) .. فإن الأسرات العريقة فى الإقليم ، التى تتجمع فى هذه المدينة ، لم تؤت إلا ما يكفيها للعيش ، دون ما زيادة .. وهم بحكم الضرورة ـ نظرا لعجزهم عن الإغراق فى طموحهم ـ يتبعون نصيحة « سينياس »(١) ، فيكرسون شبابهم للخدمة العسكرية ، ثم يعودون ليقضوا شيخوختهم فى وطنهم بسلام . وبذلك يتقاسم

(١) كان « سينياس » وزير « بروس » ملك (ابيروس) ـ احدى جزر اليونان ـ وابن « أخيل » الذى قضى على طروادة ووضع خاتمة للحرب الطروادية .

الشرف والحكمة حياتهم . أما نساؤهم فجميلات ، وجميلات بحق ، إذ انهن يمتلكن جميعا ما يجعل للجمال قيمة ، بل وما يغنى عنه . ومن العجيب أننى ـ وقد قدر لى بحكم مهنتى أن أرى كثيرا من الشابات ـ لا أذكر أننى رأيت واحدة فى (شامبيرى) لم تكن فاتنة ! .. قد يقال إننى كنت ميالا لأن أراهن فاتنات ، وربما كان فى هذا بعض الحق ، ولكنى لم أكن بحاجة إلى أن اضيف إليهن سحرا من خيالى . والحقيقة أننى لا أملك أن أفكر فى تلميذاتى الشابات دون أن أطرب .. وكيف اذكر هنا أبدعهن حسنا ، دون أن أتمثلهن معى فى تلك الأيام الهانئة التى نعمنا بها ! .. تلك اللحظات البريئة العذبة التى قضيناها معا ؟! .. كانت أولاهن الآنسة « دى ميلاريد » ، جارتى وأخت تلميذ السيد جايم . وكانت سمراء طروب ، مليئة بنشاط ورشاقة ناعمين ، ومجردة من كل نزق . وكانت ـ كمعظم لداتها ـ تميل إلى النحافة ، ولكن عينيها اللامعتين، وقوامها الأهيف ، وخلقها الجذاب ، لم تكن فى حاجة إلى زينة كى تروق للأبصار . ولقد اعتدت أن اذهب إليها فى الصباح ، فأجدها عادة فى ثياب البيت ، لا يزين راسها سوى شعرها الذى رفعته فى إهمال ، وقد ازدان ببضع زهرات كانت توضع عند وصولى ، ثم ترفع عقب انصرافى ليتسنى تنسيق الشعر! .. ولست أخشى فى الدنيا أكثر من شابة فى ثياب البيت ! ـ وتقل خشيتى هذه مائة مرة إذا كانت الفتاة فى كامل ثيابها ! ـ أما الآنسة «مانتون»، التى كنت أذهب إليها بعد الظهيرة، فكانت دائما فى كامل ثيابها ، وكانت هى الأخرى تحدث فى نفسى اثرا بالغ الرقة ، ولكنه من نوع مختلف . كان شعرها اشقر معبر

اللون ، وكانت بالغة الظرف ، وبالغة الخجل ، ناصعة البياض ، ذات صوت صاف ، واضح ، موسيقى الرنين ، ولكنها لم تكن تجسر على رفعه . وكانت ثمة ندبة على صدرها خلفها حرق نشأ عن ماء مغلى . ولم يكن الوشاح الحريرى الأزرق ليستر هذه الندبة تماما ، فكانت تجتذب انتباهى ، الذى لم يعد ــ بعد زمن قصير ــ ينحصر فى الندبة وحدها !

وهناك الآنسة دى « شال » ، التى كانت هى الأخرى من جاراتى . وكانت فتاة ناضجة ، وافية العود ، عريضة المنكبين ، تميل للبدانة . وكانت طيبة جدا . ومع أنها لم تكن جميلة ، إلا أنها جديرة بالذكرى لكرم خلقها ، واعتدال طباعها ، وطيبة سجيتها . أما أختها السيدة « دى شارلى » ــ أجمل امرأة فى شامبيرى ــ فكانت قد تجاوزت سن تعلم الموسيقى ، ولكنها أتاحت التعلم لابنتها التى كانت لا تزال صغيرة ، والتى كان جمالها الناشىء يوحى بأنه سيضارع جمال أمها ، لولا أنها ــ لسوء الحظ ــ كانت ذات شعر ضارب إلى الحمرة . وكانت لى فى « دير الزيارة » آنسة فرنسية صغيرة (غاب عنى اسمها ولكنها جديرة بأن تحمل مكانا بين الأثيرات لدى) . وكانت قد اكتسبت ما للراهبات من لهجة متئدة ، متراخية .. وبهذه اللهجة المتراخية كانت تلقى ملحا طريفة ، لا تبدو ملائمة لوقارها ! وفيما عدا ذلك ، كانت كسولا ، لا تحب أن تتجشم عناء إظهار ذكائها ــ إذ كان ذلك صنيعا لا تبيحه لكل امرىء ! ــ ولم يخطر لها أن تولينى هذا الصنيع إلا بعد شهر أو اثنين من التدريس ، فقد شاءت أن تجعلنى أكثر مواظبة على موافاتها ،

إذ أننى ما استطعت قط أن أحمل نفسى على الدقة فى المواعيد ! كنت أحب دروسى أثناء قيامى بإلقائها ، ولكنى لم أكن أحب أن أقسر على حضورها ، ولا أن أكون مقيدا بموعد .. فقد كان التقيد والانصياع أمرين لا أطيقهما ، بحيث كانا يحملانى على أن أكره السرور ذاته ! .. ويقال إن فى تركيا ، لدى «المحمديين» ، ينطلق فى الطرقات عندما يشرف النهار على الطلوع ، رجل يدعو الأزواج إلى أن يؤدوا واجباتهم نحو زوجاتهم . وإنى لخليق بأن أكون تركيا غير صالح فى هذا الموعد(١) .

كذلك كانت لى تلميذات من الطبقة الوسطى ، ومنهن واحدة كانت سببا غير مباشر فى تحول فى علاقاتى ، أرى أن أتحدث عنه ، ما دمت ملزما بأن أروى كل شىء . كانت ابنة بدال (بقال) ، تدعى الآنسة « لار » . وكانت نموذجا كاملا لتمثال إغريقى ، حتى إننى كنت خليقا بأن أصفها بأنها أجمل فتاة رأيتها فى حياتى ، لو قدر للجمال الصادق أن يوجد بلا روح ولا حياة ! .. كان فتورها وبرودها وتجردها من الشعور ، تبلغ فيها درجة لا يصدقها العقل . وكان من المستحيل إرضاؤها ، كما كان من المستحيل إغضابها ، على السواء . وإنى لمقتنع بأنه لو قدر لامرىء أن يحاول العبث بها ، لتركته يفعل ، لا عن ميل ، وإنما عن بلادة ! .. وهكذا كانت أمها ــ التى لم تشأ لها أن تتعرض للخطر ــ لا تفارقها لحظة . ولقد حاولت بغاية جهدها أن توقظ

---

(١) من المفهوم أن هذه فرية من الفريات التى شاعت فى أوربا فى فترة الحروب الصليبية . وقد كان كل مسلم يسمى تركيا .



مشاعرها ، إذ أتاحت لها دراسة الغناء ، وجاءت لها بمدرس شاب كى يعلمها .. ولكن دون جدوى .. وبينما كان المدرس يسعى لفتنة الابنة ، كانت الأم تسعى لفتنة المدرس ، ولكن احدهما لم يكن أكثر توفيقا من الآخر ! .. كانت السيدة « لار » تجمع إلى نصيبها الطبيعى من الحيوية ، ما كان ينبغى لابنتها أن تحرزه ! كانت امرأة ذات وجه صغير ، يقظ ، عابس، تناثرت فيه آثار الجدرى . وكانت لها عينان صغيرتان ، شديدتا التألق ، يشوبهما شىء من الاحمرار ـ لأنها كانت منحرفة الصحة باستمرار ـ وكنت أجد عند وصولى ، فى كل صباح ، قهوتى الممزوجة بالقشدة . ولم يفت الأم قط أن تستقبلنى بقبلة تجيد طبعها على الفم ، فكنت ـ بدافع من الفضول ـ أتمنى لو أردها إلى الابنة ، لأ تبين كيف تتلقاها ! .. على أن كل هذا كان يتم على صورة من البساطة وعدم التكلف ، بحيث كانت المغازلات والقبلات تأخذ مجراها كالمعتاد ، إذا ما كان السيد « لار » موجودا ! .. وكان رب الأسرة رجلا طيبا ، وأبا حقيقيا لابنته ، فما خدعته زوجته يوما ، لأنها لم تكن بحاجة إلى ذلك(١) !

وكنت أتلقى هذه المغازلات بغبائى المعهود، مفسرا إياها على أنها إمارات للود الصادق ! .. على أننى كنت أتضايق أحيانا ، لأن السيدة « لار » لم تكن تغفل اداءها قط ! .. وكنت

---

(١) يقصد أنها لم تكن بحاجة الى خداعه ، اما لأنها كانت تمارس التقبيل أمامه ، واما لأنها كانت تعجز عن اجتذاب الرجال رغم مغازلاتها .

إذا مررت خلال النهار بالحانوت دون أن أعرج عليه ، يخلق ذلك ضجيجا .. فكنت أضطر حين أكون فى عجلة من أمرى إلى أن أدور متخذا طريقا أخرى ، لفرط يقينى بصعوبة خروجى من لدن السيدة كما دخلت !

وهكذا كانت السيدة «لار» شديدة الانشغال بى، بالقياس إلى عدم اهتمامى بها . ولقد أثرت فى هذه الحفاوات كثيرا ، حتى أننى تحدثت عنها إلى « ماما » ، وكأنها أمر غير مستغرب . ولو كان فيها ما يستغرب لما كنت اقل حديثا عنها . فقد كان كتمان أى سر عن هذه السيدة أمرا غير ممكن . كان قلبى مفتوحا أمامها كما هو مفتوح أمام الله ! .. لكنها لم تتلق الأمر بمثل ما تلقيته من بساطة ، فقد رأت أن ما كنت أعتبره « مودة » ، إنما كان فى حقيقته « مغازلات » ! .. وحدست أن السيدة « لار » رأت من الكرامة الا تدعنى غرا كبيرا كما وجدتنى ، فسعت ـ بشتى الطرق ـ إلى أن تكشف لى غايتها ! .. وكان لدى « ماما » من البواعث اللائقة بها ، ما جعلها ترغب فى أن تعصمنى من الشراك التى كانت سنى وشكلى يعرضانى لها ، فضلا عن أنه لم يكن من الإنصاف أن تتولى امرأة أخرى تعليم تلميذها !

ثم نصب فى طريقى شرك أخطر من المعتاد !.. وبرغم أننى استطعت أن أنجو منه ، فإن هذا الشرك نبه « ماما » إلى أن الأخطار التى كانت تهددنى دون انقطاع ، أصبحت تستوجب كل الاحتياطات التى رأت أن تتخذها ! .. ذلك أن السيدة كونته « مانتون » ـ أم إحدى تلميذاتى ـ كانت امرأة واسعة الذكاء،

عرفت بأنها أوتيت من الخبث ما لا يقل عن ذكائها . وقد تسببت ـ كما كان يقال ـ فى كثير من المنازعات، منها ما كان ذا عواقب مشئومة على أسرة « دانترمون » . وكانت « ماما » على علاقة بها تكفى لأن تطلعها على أخلاقها ، فقد أولعت « ماما » ـ فى براءة ـ بشخص كانت مدام دى « مانتون » قد بنت عليه آمالا ، فاتهمتها بالعدوان على إيثار كان موجها إليها ، برغم أن « ماما » لم تفعل .. بل إنها لم تسع إلى هذا الإيثار ، ولم تتقبله ! .. ولكن منذ ذلك الحين عمدت مدام « مانتون » إلى تدبير عدة مكائد لغريمتها ، لم يقدر لأية مكيدة منها أن تنجح . وسأروى واحدة من أكثرها إثارة للضحك ، على سبيل المثال : فقد كانتا مرة فى الريف مع عدد من السادة ـ من الجيران ـ بينهم الشخص المذكور ، الذى كانت مدام دى « مانتون » تعلق عليه آمالها . وفى أحد الأيام ، قالت هذه لأحد السادة إن مدام دى فاران لم تكن سوى امرأة متحذلقة ، وأنها عديمة الذوق ، لا تحسن ارتداء ثيابها ، وتحرص على أن تغطى عنقها كنساء الطبقة الوسطى . فقال السيد ، الذى كان مولعا بالمزاح : « أما عن هذه النقطة الأخيرة ، فإن لديها عذرا ، إذ إننى أعرف أن لديها ندبة كبيرة على شكل الفأر البشع ، مطبوعة على صدرها ، وهى شديدة الشبه بالفأر ، حتى ليقال إنها تجرى ! » .. والحب ـ كالبغضاء ـ يوحى بالتصديق ، لذلك اعتزمت مدام « دى مانتون » أن تستغل هذا الاكتشاف . وفى ذات يوم ، بينما كانت « ماما » تلعب الورق مع الشخص الذى جحد إيثار السيدة ، إذا بهذه تنتهز الفرصة فتتسلل إلى ما وراء غريمتها ، ثم توشك أن تقلب مقعدها لتزيح وشاحها عن

عنقها .. وبدلا من أن يرى السيد فارا كبيرا ، رأى شيئا على النقيض تماما ، لم يكن نسيانه بأسهل من مشاهدته ! .. وهذا ما لم يكن فى حسبان السيدة !

وبرغم أنى لم أكن بالشخصية التى تشغل بال مدام « دى مانتون » ، التى لم تكن تبغى حولها سوى اللامعين ، فإنها أولتنى بعض الاهتمام ، لا من أجل شكلى ـ الذى لم يشغلها البتة بالتأكيد ـ وإنما من أجل ذكائى المزعوم ، الذى كان من المحتمل أن يجعلنى ذا نفع لها .. فلقد كانت محتدمة الميل للهجاء ، وكانت تحب نظم الأغانى والأشعار فى هجو الذين لا يروقون لها .. فلو أنها وجدت لدى كفاءة كافية لمعاونتها فى نظم أشعارها ، واستعدادا كافيا لكتابتها ، لكان فى وسعنا ـ فيما بيننا ـ أن نقيم (شامبيرى) ونقعدها ! .. وكان فى الوسع طبعا الاهتداء إلى مصدر هذه الهجائيات ، وإذ ذاك كانت السيدة « مانتون » كفيلة بأن تتنصل من المسألة بأن تضحى بى ، فيلقى بى فى السجن .. ولعلنى كنت أمكث فيه بقية عمرى ، لأننى قمت بدور « فيبوس »[1] مع السيدات !

لكن شيئا من كل هذا لم يحدث ـ لحسن الحظ ـ فقد استبقتنى مدام « دى مانتون » مرتين أو ثلاثا للغداء ، لتستدرجنى فى الحديث ، فألفت أننى لم أكن سوى أبله ! وكنت

---

(١) فيبوس : من أسماء أبوللون اله التنبؤات والطب والشعر والموسيقى عند الرومان .. كما أنه كان اله النهار والشمس [illegible] اشتق اسم « فيبوس » . وهو ابن الاله « جوبيتر » رب الأرباب [illegible] الرومان .

— انا نفسى — أشعر بذلك ، وأتحسر له ، وأغبط صديقى « فينتور » على مواهبه ، فى حين أننى كنت جديرا بأن أحمد غبائى إذ أنقذنى من المخاطر ! وهكذا ظللت — بالنسبة لمدام مانتون — المدرس الذى يلقن ابنتها الموسيقى ، لا أكثر .. ولكنى عشت فى أمان ، وظللت مرغوبا فى (شامبيرى) . وهذا أفضل من أن أكون ذكيا — فى نظرها — وأفعوانا فى نظر بقية القوم !

* * *

وإذ كان الأمر على هذه الشاكلة ، فقد رأت « ماما » — لانتزاعى من مخاطر شبابى — أن الوقت قد حان كى تعاملنى كرجل ، وهذا ما فعلته .. ولكن ، بأغرب طريقة فذة خطرت لامرأة فى ظروف مشابهة : فقد وجدتها أكثر جدية فى مسلكها ، وأكثر أدبا فى قولها ، مما عهدتها .. واستبدلت — للفور — بالمرح الماجن الذى اعتادت أن تمزجه بتعاليمها ، لهجة متحفظة على الدوام ، لم تكن مألوفة ولا قاسية ، ولكنها كانت تشبه التمهيد لشرح ما ! .. وبعد أن بحثت عبثا ، فى أطواء نفسى ، عن سبب لهذا التحول ، سألتها .. وكان هذا ما تنتظره ، فإذا بها تقترح أن نخرج للنزهة فى البستان الصغير فى اليوم التالى ، فذهبنا إليه منذ الصباح . وكانت قد اتخذت من الإجراءات ما يكفل بقاءنا وحيدين طوال النهار الذى استغلته فى إعدادى للنعم التى شاءت أن تغدقها على .. لا بالمغازلات والإغواء — كما تفعل أية امرأة أخرى — وإنما بأحاديث مفعمة بالعاطفة والحكمة ، قصدت بها إلى تعليمى أكثر مما قصدت إلى اغوائى ،

وكانت تنفذ إلى قلبى أكثر مما تنفذ إلى حسى ! ومع ما كانت عليه هذه الأحاديث من بهاء ونفع ، وبالرغم من أنها لم تكن سوى أحاديث فاترة حزينة ، إلا أننى لم أولها كل ما كانت تستحق من انتباه ، ولا نقشتها على ذاكرتى كما فعلت فى كافة الأوقات الأخرى .. بل ان استهلالها — ذلك المسلك التمهيدى — بلبل فكرى ، فجعلنى أحلم وأشرد — بالرغم منى — وهى تتكلم .. وغدوت أقل اهتماما بما كانت تقوله ، منى بالبحث عما كانت تبغى الوصول إليه ! .. وما أن فهمت — وهو ما لم يكن بالسهل على — طرافة الفكرة التى لم تجل أبدا بخاطرى ، طيلة الوقت الذى عشته معها ، حتى تملكتنى الفكرة تماما ، فلم أعد قادرا على التفكير فيما كانت تقوله لى «ماما» .. لم أعد أفكر إلا فيها هى وحدها ، دون أن أنصت إليها !

إن الرغبة فى حمل الشباب على الإصغاء لما يراد قوله لهم ، باطلاعهم مقدما على غاية جد مشوقة لهم ، أسلوب معكوس ، وإن كان جد مألوف لدى المعلمين ، حتى لقد عجزت — أنا نفسى — عن تحاشيه فى كتابى « اميل » . فإن الشاب إذ يؤخذ بالغاية التى يوعد بها ، يشغل بها وحدها ، ويتخطى فى تسرع أحاديثك التمهيدية ، ليصل مسرعا منذ البداية إلى الغاية التى تسعى به إليها فى بطء بالغ — حسبما يرى هو — أما إذا أريد الاستحواذ على انتباهه ، فيجب الا يمكن من أن ينفذ إلى الغاية مقدما ، وهذا ما أساءت «ماما» تقديره . فبطريقة فذة تتمشى مع عقلها المنسق المنتظم ، عمدت إلى احتياط لا طائل منه قط ، إذ فرضت شروطا . ولكنى لم أكد أتبين جزاء هذه الشروط ،

حتى انصرفت عن سماعها ، وبادرت إلى الموافقة على كل شىء .. بل إننى لأشك فى وجود رجل فى الدنيا يقوى – مهما تكن امانته وجلده – على المساومة فى مثل هذه الحال ، وفى وجود امرأة واحدة تقبل أن تغفر له ذلك إذا فعله ! .. وكنتيجة لطريقتها الفريدة ، وضعت «ماما» فى هذا الاتفاق أشد قيود أدبية ، ومنحتنى ثمانية أيام أفكر خلالها .. وهى مهلة أكدت لها – كذبا وزورا – أننى لم اكن بحاجة إليها .. فالواقع انه مما زاد من غرابة الموضوع ، وبلغ بها ذروتها ، أننى كنت جد مغتبط بتقبل هذا المشروع ، بقدر ما أذهلتنى طرافته ، وبقدر ما شعرت بانقلاب فى أفكارى ، كان يتطلب منى وقتا لتنظيمها !

ولقد يخال ان هذه الأيام الثمانية بدت لى كثمانية قرون، ولكن الأمر كان على النقيض ، فلقد تمنيت لو أنها امتدت فعلا إلى هذا الأجل ! .. ولست أدرى كيف أصف حالى ، فقد كانت لونا من الجزع الممتزج بنفاد الصبر ، إذ كنت خلالها جزعا مما كنت اتوق إليه ، إلى درجة أننى فكرت جديا – فى بعض الأوقات – فى وسيلة مهذبة لتفادى الهناء الموعود ! .. وتصور طباعى المتهورة النزقة ، ودمى الفائر ، وقلبى المنتشى بالحب، وصحتى الموفورة ، وسنى ! .. وتذكر أننى فى هذه الحال ، وفى ظمئى إلى النساء ، لم أكن قد مسست بعد واحدة منهن!.. ومن هنا فإن الخيال ، والحاجة ، والغرور ، والفضول، تجمعت كلها لتذكى فى نفسى رغبة نهمة متأججة فى ان اكون رجلا ، وفى أن أثبت أننى رجل ! .. يضاف إلى ذلك – وهذا أمر يجب الا يغفل – أن تعلقى الحنون ، المحتدم ، بماما ، كان

بعيدا عن التضاؤل ، بل إنه راح يزداد اتقادا يوما بعد يوم ، حتى لم أعد أهنأ إلا بقربها ، وحتى أننى لم أكن أفارقها إلا لأفكر فيها ، وحتى أن قلبى كان مترعا ، لا بطيبتها ولطفها فحسب ، وإنما بجنسها ، وشكلها ، وشخصها .. وبإيجاز : بها ، بجميع الاعتبارات التى كانت تجعلها عزيزة على ! ..

ولا يخطرن بالبال أنها كانت قد اكتهلت ، أو بدت لى مكتهلة لأننى كنت أصغرها بعشر أو اثنتى عشرة سنة ، فالواقع أنها لم تتعرض إلا لتغيير بسيط ، بل أنها – فى نظرى – لم تتغير البتة خلال السنوات الخمس أو الست التى كنت أغيب فيها فى نوبات من النشوة ، من سحر النظرة الأولى ! .. كانت تبدو لى فاتنة دائما ، وكان كل امرىء يعتبرها كذلك ، فى تلك الآونة .. كل ما هنالك أن قوامها وحده ازداد بدانة ، بعض الشىء . وفيما عدا ذلك ، فإنها احتفظت بنفس العين ، ونفس البشرة ، ونفس الصدر ، ونفس الملامح، ونفس الشعر الأشقر الجميل ، ونفس المرح .. وبكل شىء ، حتى صوتها ، ذلك الصوت الشاب ذى الجرس الفضى ، الذى كان له دائما تأثير كبير على نفسى ، حتى أننى لا أستطيع – إلى اليوم – أن أسمع رنين صوت عذب لفتاة شابة ، دون أن أتأثر به !

ومن الطبيعى أن الأمر الذى كان لى أن أخشاه خلال انتظار الظفر بامرأة حبيبة كهذه ، هو التعجل وعدم المقدرة على ضبط شهواتى بدرجة كافية ، فأصبح خيالى مسيطرا على . ولسوف ترى أن مجرد التفكير فى بعض الأفضال الطفيفة التى كانت ترتقبنى بالقرب من الحبيبة – فى سن متقدمة – كانت

تلهب دمى إلى الدرجة التى يستحيل على عندها أن أجتاز دون عناء الفارق القصير الذى كان يفصل بينى وبينها . فكيف كان يتسنى لى ــ وأنا فى عنفوان الشباب ــ أن أشعر بشوق قليل إلى المتعة الأولى ؟ .. وكيف قدر لى أن أرقب ساعة القرب ، بألم أكثر منى بابتهاج ؟ .. كيف حدث أننى شعرت بنفور وخوف تقريبا ، بدلا من أن أشعر بالمباهج التى كانت خليقة بأن تسكرنى ؟ لا شك فى أننى لو كنت قد استطعت الفرار من هنائى ــ بطريقة مهذبة ــ لفعلت بكل قلبى .. ولقد وعدت بأن أروى عجائب فى تاريخ تعلقى بها ، وهذه ــ بلا شك ــ عجيبة لم تكن متوقعة إطلاقا !

ولا شك أن القارىء يرى ــ فى استنكار ــ أنها وقد استسلمت لرجل غيرى ، قد حطت من قدرها فى نظرى وهى تشركنى مع هذا الرجل ، وأن الشعور بعدم التقدير لها خليق بأن يكون قد هدأ من سورة تلك المشاعر التى الهمتنيها .. ولكن القارىء يخطىء فى هذا الظن، فإن هذا الإشراك كان قاسى الإيلام لى حقا .. وكان هذا راجعا إلى رقة مشاعرى بطبيعتها، بقدر ما كان ناشئا عن أننى وجدت الأمر غير لائق بها ولا بى فى الواقع . وبوسعى أن أقسم بأننى لم أكن مشغوفا بحبها يوما قدر ما شغفت عند ما كنت قليل الرغبة فى الظفر بها ، فلقد كنت أعرف عن قلبها الطاهر ، ومزاجها الجليدى ما يعصمنى من أن أظن لحظة أن للذة الحسية دخلا فى هذا الإقدام منها على أن تمنحنى نفسها ! .. وإنما كنت مقتنعا ـ تمام الاقتناع ـ بأن مجرد الاهتمام بتجنيبى مخاطر لم يكن من سبيل سوى

هذا لتفاديها ، وبصونى من أجل نفسى وواجباتى فحسب ، هو الذى جعلها تأخذ على عاتقها « واجبا » لم تكن تنظر إليه نظرة غيرها من النساء ، كما سأبين فيما بعد . ولقد أشفقت عليها ، كما أشفقت على نفسى ، ووددت لو أقول لها : « لا يا ماما ، لا ضرورة لهذا ، سأردع نفسى بدون هذا » .. ولكنى لم أجسر، أولا : لأن هذا لم يكن بالشىء الذى يقال ، وثانيا : لأننى شعرت فى قرارتى بأن هذا غير صحيح ، وأنه ليست ثمة سوى امرأة واحدة تملك ــ فى الواقع ــ أن تصوننى عن بقية النساء ، وأن تعصمنى من الغوايات . وكنت ــ دون أن أشتهى الظفر بها ــ جد مسرور لأنها كانت تصدنى عن اشتهاء الظفر بالأخريات ، إلى درجة أننى رحت أعتبر كل ما يشغلنى عنها لونا من النحس والشقاء !

ولقد كانت ألفتنا الوثيقة ، ومعاشرتنا البريئة ، أبعد من أن توهن مشاعرى نحو « ماما » ، بل إنها عززتها ، ولكنها ــ فى الوقت ذاته ــ اتجهت بها اتجاها جديدا ، فجعلتها أكثر وجدا ، وربما أكثر هياما ، ولكنها كذلك أقل شهوة . وبحكم مناداتى إياها بماما ، وبحكم معاملتها بألفة الابن ، اعتدت أن أعتبر نفسى بمثابة ابنها ! وأعتقد أن هذا كان السبب الحقيقى فى قلة تعجلى للظفر بها ، برغم أنها كانت جد حبيبة لدى. وإنى لأذكر بجلاء أن أحاسيسى الأولى كانت أكثر شهوانية ، دون أن تكون نشيطة متحنزة . فكنت فى (أنيسى) نشوانا ، ولكنى لم أعد كذلك فى شامبيرى . ومع أننى ظللت أحبها دائما بكل وجد ممكن ، إلا أننى ازددت حبا لها لذاتها ، كما غدوت أقل حبا لها



وبحكم مناداتى اياها بماما ، وبحكم معاملتها بالفة الابن ، أعتدت أن أعتبر نفسى بمثابة ابنها !

من أجل نفسى ، أو أننى لم أعد ـ على الأقل ـ أسعى إلى هنائى بقدر ما كنت أسعى إلى استمتاعى بقربها . كانت ـ بالنسبة لى ـ أكثر من أخت ، وأكثر من أم ، وأكثر من صديقة ، بل وأكثر من عشيقة ، ولهذا السبب بالذات ، لم تكن عشيقة ! . . وبإيجاز : كنت أحبها إلى درجة تجعلنى لا أشتهيها . . وهذا أوضح ما فى آرائى وأفكارى !

وحان أخيراً اليوم الذى كان مرهوبا، أكثر منه مرغوبا !. . ووعدت بكل شىء ، فلم انكث بوعودى . ولقد عزز قلبى عهودى دون أن يطمع فى جزاء . ومع ذلك فإننى ظفرت بالجزاء . ورأيتنى للمرة الأولى فى أحضان امرأة ، وامرأة كنت أعبدها . . أفكنت سعيدا ؟ . . لا ! . . لقد تذوقت اللذة ، ولكن شعورا بأسى طاغ سمم سحرها ، فكنت وكأننى ارتكبت جريمة الزنا مع إحدى المحرمات . . ولقد بللت صدرها بدموعى مرتين أو ثلاثا ، وأنا أضمها بين ذراعى فى وجد . . أما هى ، فلم تكن حزينة ولا مرحة ، وإنما كانت حنونا وساكنة . ولما كانت على قدر ضئيل من الحس الشهوانى ، ولم تكن تنشد اللذة الحسية قط ، فإنها لم تشعر بالمتعة ، ولا عانت الندم إطلاقا !

وإنى لأكرر أن كل زلاتها ترتبت على أخطائها ، وليس عن شهواتها قط . . كانت طيبة المنبت ، وكان قلبها طاهرا ، وكانت تحب الأمور الشريفة ، كما كانت كل ميولها مستقيمة صالحة ، وذوقها رقيقا . . ولقد نشأت على لطف الشمائل ، وهو ما كانت تحبه دائما ، وإن لم تتبعه قط ، لأنها بدلا من أن تنصت إلى قلبها ـ الذى كان يرشدها إلى الصواب ـ كانت تصغى إلى

عقلها الذى كان يخطىء فى إرشادها ! .. وعندما كانت المبادىء الزائفة تضللها ، كانت المشاعر الصادقة تكذب هــذه المبادىء دائمــا . ولكن ماما كانت ــ لســوء الحظ ــ تخــدع نفسها بالفلسفة ، وقد أدت المبادىء الخلقية التى استمدتها منها ، إلى إفساد المبادىء التى كان قلبها يمليها عليها !

وكان السيد «دى تافيل» ـ عشيقها الأول ـ هو أستاذها فى الفلسفة ، وكانت المبادىء التى لقنها إياهــا هى تلك التى وجدها ضرورية لاغوائها! فلقد وجدها وفية لزوجها ولواجباتها، فاترة دائما ، مفكرة ، منيعة على الأحاسيس الشهوانية ، فعمد إلى مهاجمتها بالسفسطة والمغالطات . وانتهى إلى إقناعها بأن واجباتها ــ التى كانت متشبثة بها ــ لغو من تعاليم الدين التى وضعت خصيصا لتسلية الأطفال ، وأن الاتصال الجنسى ــ فى حد ذاته ــ هو أقل التصرفات أهميــة ، وأن الوفاء الزوجى محض التزام ظاهرى ، كل قيمته الخلقية مجرد رأى ! .. وأن راحة الأزواج هى الأصل الوحيد لواجبات النساء، ومن ثم فإن الخيانات المجهولة ـ التى لا يكون لها أثر لدى من ترتكب ضدهم، لأنهم لا يدرون بها ــ لا أثر لها على الضمير كذلك ! .. ومجمل القول أنه أقنعها بأن الأمر لا قيمة له فى حد ذاته ، وأنه لا يكون ذا شأن إلا إذا افتضح ، وأن كل امرأة تبدو فاضلة إنما تدين بمظهرها الفاضل لهذا السبب وحده . وهكذا وصل الوغد إلى غايته ، فأفسد عقل طفلة ، ولكنه لم يقو على إفساد قلبها !.. ولقد عوقب على ذلك بأعتى ألوان الغيرة ، إذ اعتقد أنها كانت تعامله كما علمها أن تعامل زوجهــا ! ولست أدرى ما إذا كان

على خطأ فى ذلك ، فإن الراهب « بيريه » خلفه فى علاقته بها . إنما الذى أدريه ، هو أن الطبع البارد الذى أوتيته هذه المرأة ، والذى كان خليقا بأن يعصمها من هــذا المسلك ، كان هو عين ما منعها ــ بعد ذلك ــ من أن تنبذه ! .. فما قدر لها أن تدرك أن الناس تخلع أهمية على الشىء الذى لا قيمــة له لديهــا ، وما مجدت قط ــ باسم الفضيلة ــ زهدا لا يكبدها سوى جهد بسيط !

على أنها لم تسىء قط استغلال هذه المبادىء الزائفة من أجل نفسها ، وإنما استغلتها من أجل الغير ، وكان ذلك من جراء نظرية تعادل تلك المبادىء زيفا ، وأن تمشت مع ما فطر عليه قلب السيدة من طيبة . فلقــد كانت تعتقد دائمــا أن لا شىء يربط أى رجل بامرأة سوى ظفره بأربه منها. ومع أنها لم تكن تحب أصدقاءها إلا بدافع من المودة ، فإن مودتها كانت من اللطف والرقة بحيث أنها كانت تســتخدم كل وســيلة ممكنة لتوثق ارتباط هؤلاء الأصــدقاء بها .. والغريب فى الأمر أنهــا كانت توفق فى بلوغ غايتها باستمرار تقريبا . فقد كانت حبيبة حقا ، حتى أن المرء كلما عظمت الألفة التى يعيش عليها معها ، ازداد اكتشافا لأسباب جديدة تدفعه إلى حبها . وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة ، هو أنها بعد ضعفها الأول ، لم تكن تخلع أفضالها الناعمة قط إلا على البائسين . وكان اللامعون يفقدون ــ سدى ــ العناء الذى يتكبدونه للوصول إليها ، ولكن .. إذا ما بدأت تشعر بالإشفاق يوما على رجل ، فلا بد من أن يكون هذا الرجل قليــل الجدارة بالحب ، إذا هى لم تنته إلى أن

تحبه ! .. وكانت إذا أقدمت على اختيار أشخاص يليقون بها ، لا تصدر فى اختيارها عن الميول الخسيسة التى لم تكن قط تقارب فؤادها النبيل ، بل إنها لم تكن تصدر إلا عن خلقها المفرط الكرم ، المفرط الرحمة ، المفرط الحنان ، المفرط الحساسية .. هذا الخلق الذى لم تكن تحكمه دائما بحكمة وبصيرة كافيتين !

وإذا كانت بعض المبادىء الزائفة قد غررت بها ، فكم من مبادىء رائعة اعتنقتها ، فلم تتخل عنها قط ! .. وبكم من الفضائل كفرت عن نواحى ضعفها ، إذا جاز للمرء أن يطلق هذا الاسم على أخطاء لم يكن للإدراك فيها نصيب يذكر ! .. بل إن هذا الرجل الذى غشها فى ناحية ، أحسن تعليمها فى ألف ناحية أخرى . ثم إن عواطفها ــ التى لم تكن متأججة مندفعة ــ كانت تتيح لها أن تتبع دائما أضواء العقل ، فكانت تسلك جادة الصواب عندما لا تضللها السفسطة .. كانت دوافعها حميدة، حتى فى أغلاطها ، وكانت آراؤها الزائفة كفيلة بأن تدفعها إلى الزلل ، ولكنها لم تكن تقوى على الزلل عن رغبة وطواعية .. كانت تكره الرياء والكذب ، وكانت منصفة ، عادلة ، شفوقة، منكرة لذاتها ، وفية لوعدها ولأصدقائها ولواجباتها ــ التى كانت تعترف بأنها واجبات ــ عاجزة عن الانتقام والبغضاء ، دون أن تكون لديها أقل فكرة عن أن فى الصفح أية ميزة أو فضيلة ! .. وأخيرا ، لو أننا عدنا إلى تلك الخصال التى لم يكن لها فيها عذر يذكر ، نجد أنها لم تكن تدرك كيف تقدر قيمة الأفضال الناعمة التى كانت تخلعها على من يقع عليهم اختيارها،

ولا كانت تتخذ منها مادة للاتجار أو المساومة .. كانت سخية فى إغداق هذه الأفضال ، ولكنها أبدا لم تكن تبيعها ، بالرغم من أنها كانت فى شغل دائما بموارد العيش .. وإنى لأجرؤ على القول بأنه إذا كان سقراط قد استطاع أن يحترم «أسباسيا»(١) فإنه كان قمينا بأن يحترم مدام دى فاران !

وإنى لأعرف مقدما أننى إذ أصفها بالشخصية الحكيمة ، والطبيعة الباردة ، سوف أتهم بالتناقض كالمعتاد ، وبحق . ولكن من الجائز أن الطبيعة قد أخطأت ، وأن اجتماع هاتين الخلتين ما كان يجب أن يوجد . ولكنى لا أعرف سوى أنه قد وجد فعلا ! .. إن كل الذين عرفوا مدام دى فاران ــ ومنهم عدد كبير لا يزال على قيد الحياة ــ يعلمون أنها كانت كذلك . بل إننى لأجرؤ على أن أضيف أنها لم تعرف سوى متعة واحدة من المتع الحقيقية فى الحياة ، وتلك هى : تيسير الاستمتاع بالحياة لأولئك الذين كانت تحبهم . ومن المباح لكل امرىء أن يناقش ما تقدم بحرية تامة ، وأن يثبت عن علم ودراية أنه غير صحيح . إن مهمتى هى أن أقول الحق ، ولكن ليس أن أحمل الناس على تصديقه !

ولقد ألممت شيئا فشيئا بكل الذى قلته ، خلال الأحاديث التى أعقبت اتحادنا(٢) ، والتى كان لها وحدها الفضل فى جعل

---

(١) أسباسيا : كانت عشيقة بريكليس السياسى الأثينى ، فى النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد وقد كان صالونها ملتقى اللامعين من مشاهير أثينا .

(٢) يقصد العلاقة الجنسية التى قامت بينه وبين مدام دى فاران .

هذا الاتحاد عذبا . ولقد كانت على حق إذ داخلها الأمل فى أن يكون صنيعها ذا نفع لى ، فقد أفدت منه فى تعلمى فوائد كثيرة : فلقد كانت « ماما » ـ حتى ذلك الوقت ـ تتحدث إلى كما لو كنت طفلا ، ولكنها بدأت تعاملنى كرجل ، فحدثتنى عن نفسها . وكان كل ما قالته لى مشوقا ومثيرا لاهتمامى ، فتأثرت به إلى درجة أننى كنت ـ إذا ما استعدته لنفسى ـ أخرج من اعترافاتها بفوائد تفوق كل ما خرجت به من دروسها . ونحن عندما نشعر أن محدثنا إنما يتحدث من فؤاده ، تتفتح قلوبنا لتلقى اعترافاته .. ولن يقدر لكل ما لدى أى مدرس من علم ، أن يصل إلى مرتبة الثرثرة العاطفية الناعمة التى تفيض من امرأة ذكية ظفرت بولاء المرء وتعلقه !

ولقد هيأت لها ظروف الألفة الوثيقة التى عشت فيها معها، فرصة تكوين رأى عنى ينطوى على مزيد من التقدير عن ذى قبل .. كانت ترى أننى ـ على الرغم من خجلى وتقاعسى ـ أهل لأن أدرب على الحياة ، وأننى لو ظهرت يوما فى مستوى معين ، لتسنى أن أصبح فى مركز يمكننى من أن أشق طريقى. وبهذه الفكرة ، كرست نفسها لا لتشكيل وعيى فحسب، وإنما لصوغ مظهرى ومسلكى كذلك ، حتى تجعلنى جديرا بالحب وبالتقدير معا . وإذا صح أن النجاح فى الدنيا يقترن بالفضيلة ـ وهو ما لا أؤمن به من ناحيتى ـ فإننى مقتنع ، على الأقل ، بأنه لم تكن ثمة وسيلة تؤدى إلى مثل هذه الغاية سوى تلك التى اتخذتها « ماما » ورغبت فى أن تلقننى إياها ! .. فلقد كانت مدام دى فاران تفهم الجنس البشرى ، وتفهم ـ إلى درجة

عالية ـ فن التعامل مع الناس دون خداع أو تهور ، ودون غش أو إساءة ، ولكنها كانت تلقن هذا الفن بشخصيتها أكثر منها بدروسها ، وكانت أكثر معرفة بممارسته منها بشرحه ، وكنت أنا ـ دون رجال العالم طرا ـ أقلهم قابلية لأن أتعلمه ! .. ومن ثم فقد كانت محاولاتها ـ فى هذا الاتجاه ـ جهودا مضيعة ، وكذلك كان حال كل ما تجشمته لتزودنى بأساتذة للمبارزة والرقص . ومع أننى كنت لدن العود ، حسن القوام ، إلا أننى لم أتعلم قط كيف أرقص ، ولو لدقيقة واحدة ، فلقد اعتدت ـ بفضل البثور (الكاللو) ـ أن أسير على كعبى قدمى ، وهى عادة لم يستطع «روش» أن يشفينى منها . وبالرغم من خفة مظهرى ، فإننى لم أكن قادرا يوما على أن أقفز عبر حفرة عادية.

وكانت حالى أنكى فى مدرسة المبارزة . فقد ظللت ـ بعد ثلاثة أشهر من الدراسة ـ مضطرا إلى أن أقتصر على الصد والمراوغة، بعيدا عن أن أقوى على الهجوم .. كما أننى لم أوت قط رسغا لينة أو ذراعا ثابتة ، بحيث تحتفظ بالشيش كلما حلا للأستاذ أن يطوح بها . أضف إلى ذلك أننى أوتيت نفورا قاتلا من هذه الرياضة ، ومن المدرس الذى كان يحاول أن يعلمنيها . فما آمنت قط بأن من المستساغ الفخر بفن قتل أى إنسان ! .. ولكى يدخل المدرس علمه الواسع فى ذهنى ، اعتاد ألا يشرحه إلا بمقارنات مقتبسة عن الموسيقى ، التى لم يكن يلم بشىء منها، فوجد أوجها لتشابه عجيب بين أبعاد الثلث والربع[1] ، وبين

---

(١) من مصطلحات أبعاد الخطوات فى المبارزة .

المسافات الموسيقية التى تحمل الاسم ذاته . وكان إذا اراد أن يقوم بحركة خادعة ، دعانى إلى أن انتبه إلى DIESE (١) ، لأن النغمات الحادة كانت تسمى قديما FIENTES(٢) .. وإذا اراد ان يطوح بشيشى من يدى ، قال ضاحكا إن هذه « وقفة » .. وقصارى القول ، اننى لم أر فى حياتى متعالما(٣) لا يطاق ، اكثر من هذا المسكين ، بريشته وصدارته الجلدية ..

ومن ثم فإن تقدمى فى تدريباتى كان بسيطا ، حتى اننى لم البث ان هجرتها لمجرد كراهيتى لها ، ولكنى احرزت تفوقا فى فن اكثر نفعا ، هو : القناعة بحظى ، وعدم الطمع فى نصيب اشد بريقا ، كنت قد بدأت اشعر اننى لم أخلق له ! .. وإذ كنت منصرفا بكل نفسى إلى الرغبة فى إتاحة حياة سعيدة لماما، فإننى كنت أحس دائما بمزيد من الغبطة فى قربها .. ولما كانت دروسى الموسيقية كثيرا ما تضطرنى إلى البعد عنها لأهرع إلى المدينة ، فإنى بدأت ـ برغم شغفى بالموسيقى ـ اشعر بضيق من هذه الدروس !

ولست أدرى ما إذا كان « كلود آنيه » قد لاحظ توثق علاقتنا ، وعندى ما يحملنى على الاعتقاد بأن هذا لم يخف عليه، لقد كان فتى شديد الذكاء ، ولكنه كان شديد التكتم، لا يتحدث

---

(١) علامة من علامات الموسيقى ترفع العلاقة التى تليها بنصف مقام .

(٢) المعنى اللغوى يخدع او يغرر .. وفى الموسيقى نغم حاد ..

(٣) المتعالم هو الذى يدعى العلم ..

قط بما يناقض تفكيره ، بيد أنه لم يكن يبوح بهذا التفكير دائما . ومع أنه لم يبد أتفه بادرة عن علمه بالأمر ، إلا أنه أظهر هذا العلم ، بمسلكه .. وما كان هذا المسلك صادرا عن خسة نفس ، وإنما عن اعتناق لمبادىء سيدته ، مما لم يكن يملك معه أن يستهجن تصرفها وفقا لهذه المبادىء . ومع أنه كان أصغر منها سنا ، إلا أنه كان من النضوج والوقار ، بحيث أنه نظر إلينا كما لو كنا طفلين جديرين بالإشفاق والتسامح . بينما رحنا ننظر إليه كرجل محترم ، نكن له تقديرا ومراعاة .. وما أدركت مدى العلاقة التى كانت بينه وبينها ، إلا بعد أن خانته . ولما كانت تعلم أننى لم أكن أفكر إلا بفكرها، ولا أشعر إلا بشعورها، ولا أتنفس إلا عن طريقها ، فقد أطلعتنى على مدى حبها له ، حتى أكن له نفس المحبة ، وكانت أقل إسهابا فى بيان ودها ، منها فى بيان تقديرها له ، فقد كان هذا هو الشعور الذى أستطيع أن أشاركها إياه كل المشاركة . وكم من مرة هفت بقلبينا ـ أنا وهو ـ وجعلتنا نتعانق باكيين ، إذ راحت تقول لنا إننا لازمان معا لإسعاد حياتها ! .. ألا ليت اللائى يقرأن هذا لا يبتسمن فى خبث ! .. فإن طباع السيدة كانت تجعل هذه الضرورة أمرا لا مرية فيه .. كانت ضرورة نابعة عن فؤادها فحسب !

وهكذا قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض ! .. كانت جميع أمانينا ، وميولنا ، وقلوبنا مشتركة ، وما كان أى منها يتجاوز نطاق هذه الحلقة الصغيرة . وأصبح اعتياد العيش معا ، والحياة فى معزل عن الدنيا ، من القوة

بحيث أن كل شىء كان ينقلب فى أنظارنا إذا غاب واحد من ثلاثتنا عن المائدة ، أو شاركنا الوجبات رابع ! .. وبالرغم من الروابط الخاصة التى كانت بيننا ، فإن الخلوات بين أى اثنين منا لم تكن فى حلاوة اجتماع ثلاثتنا .. وكان الذى حال دون أى توتر بيننا هو الثقة البالغة المتبادلة ، والذى عصمنا من الملل هو أننا كنا جد مشغولين ، إذ كانت « ماما » لا تنفك تبتكر المشروعات ولا تكف عن العمل ، ولا تسمح لأى منا بأن يركن إلى الخمول .. كما كان لدى كل منا من العمل الخاص ما يكفى لملء أوقاتنا . وفى رأيى أن البطالة ليست أقل من الوحدة إفسادا للجماعة ! .. وليس أدعى لتضييق الأفق ، ولا أكثر مدعاة للتفاهة ، واللغو ، والأحقاد ، والمنغصات ، والأكاذيب ، من أن تمكث جماعة — إلى الأبد — بين جدران غرفة واحدة ، متقابلين ، وليس لديهم من عمل سوى الثرثرة باستمرار ! .. فإنه إذا كان لدى كل امرىء ما يشغله ، فهو لن يتكلم إلا إذا كان لديه شىء يقال . أما إذا لم يكن لديه عمل ، فإنه لا يجد أمامه سوى الكلام بلا انقطاع ، وهذا أدعى الأمور للضجر وأخطرها ! .. بل إنى لأجرؤ على أن أذهب إلى أبعد من هذا ، فأقول إنه لابد — لجعل أية صحبة ملائمة حقا — من أن يقوم كل امرىء لا بعمل أى كان ، فحسب ، وإنما بعمل يتطلب قدرا من الاهتمام . فالحياكة مثلا ليست عملا ، ومن ثم فإن مهمة تسلية امرأة تقوم بالحياكة ، تتطلب عناء يعادل ما تتطلبه تسلية امرأة تجلس مكتوفة اليدين . أما حين تطرز ، فإن الأمر يختلف ، إذ أن التطريز يشغلها بدرجة تكفى لملء فترات الصمت . والمزعج ، المضحك ، هو أن ترى فى

مكان ما مثلا اثنى عشر أخرق ثقيل الدم ، يقومون ، ويجلسون ، ويغدون ، ويروحون ، ويدورون على أعقابهم ، ويحركون التحف — التى على رف المدفأة — مائتى مرة ، ويعتصرون أمخاخهم ليبقوا على تيار الكلمات دافقا لا ينضب .. ما أبدعها من مهمة ! .. مثل هؤلاء — أيا كانوا — يصبح بعضهم عبئا على بعض ، وعلى أنفسهم ! ولقد اعتدت — حين كنت فى (موتيير) — أن أذهب لصنع الأشرطة المجدولة فى دور الجيران .. ولو أننى عدت إلى ذلك المجتمع ، لحملت فى جيبى دائما «البيبلوكة»(١) ، وللعبت بها طوال النهار ، لأشغل بها عن الكلام عندما لا يكون لدى ما يقال . ولو أن كل امرىء فعل ذلك ، لأصبح الناس أقل شرا ، ولأصبحت مجتمعاتهم أسلم ، وأحب ، على ما أعتقد ! وقصارى القول ، أن دع الماجنين يضحكون ، ولكنى أرى أن المذهب الخلقى الوحيد الذى فى متناول القرن الحاضر ، هو مذهب « البيبلوكيه » !

وإلى جانب هذا ، لم يكن لدينا وقت كاف للتحوط ضد السأم عندما نكون معا ، فإن الزائرين المزعجين كانوا يسببون لنا من السأم ما يجعلنا لا نشعر بشىء منه إذا ما خلا بعضنا إلى بعض ! .. ولم يكن الضيق — الذى اعتادوا أن يوحوا إلى

---

(١) البيبلوكة : لعبة تتألف من كرة مثقوبة ، تتصل بخيط دقيق بعصا صغيرة مدببة فى أحد طرفيها ، ومجوفة فى الآخر .. ويمسك المرء بالطرف المدبب ، ويطوح الكرة فى الهواء محاولا ادخالها فى الطرف المجوف . وقد شاع أخيرا نوع منها يتألف من كرة وكوب صغير من البلاستيك .

به من قبل ـ قد تضاءل . وكل ما كان هنالك من اختلاف ، هو أننى لم أعد أجد وقتا كافيا لأن أسلم نفسى إليه ! .. ولم تكن « ماما » المسكينة قد فقدت شيئا من شغفها القديم بالمشروعات والخطط ، بل إن الأمر كان على النقيض ، فبازدياد إلحاح حاجاتها المعيشية ، أخذت تزداد إغراقا فى المشروعات لسد هذه الحاجات .. وبقدر ما قلت مواردها الراهنة ، ازدادت تدبيرا لها فى أوهامها بشأن المستقبل . ولم يزدها مرور السنين إلا إغراقا فى هذا التهوس ، وبقدر ما كانت تفقد من ميل إلى ملاذ الدنيا والشباب ، أخذت تعوضه بميل إلى الأسرار والخطط . فلم يكن البيت ليخلو قط من المشعوذين ، والصناع ، والكيمياويين ، والمغامرين على اختلاف أنواعهم ، الذين كانوا يبعثرون الثروات بالملايين ، وينتهون إلى أن يصبحوا بحاجة إلى دينار ! .. ولم يكن أى واحد منهم ليخرج من لدنها صفر اليدين ، وقد كان من بواعث ذهولى أنها كانت قادرة ـ لوقت طويل ـ على مثل هذا الإسراف دون أن ترهق مواردها ، أو تستنفد صبر دائنيها !

كان المشروع الذى شغلها أكثر من أى شىء آخر ، فى الوقت الذى أتحدث عنه ، والذى لم يكن أبعد المشروعات التى صاغتها عن المعقول ، هو إنشاء حديقة ملكية للنباتات فى (شامبيرى) ، يعين لها مدير ! وفى وسع المرء أن يفهم مقدما من الذى كان موعودا بهذا المنصب . فإن موقع هذه المدينة وسط جبال (الألب) كان جد مناسب للتجارب النباتية ، ولما كانت « ماما » تحاول دائما أن تساعد كل مشروع بآخر ، فإنها قرنت

هذا المشروع بمشروع كلية للصيدلة ، الأمر الذى بدا جد مفيد ـ حقا ـ لمنطقة فقيرة فى هذا الباب إلى درجة أن الصيادلة كانوا الأطباء الوحيدين فيها تقريبا ! .. وكانت إقامة الطبيب الأول «جروسى» فى (شامبيرى) ، بعد موت الملك فيكتور ، تبدو لها ملائمة جدا للفكرة ، أو لعلها هى التى أوحت بها . ومهما يكن الأمر ، فإنها أقبلت على تملق « جروسى » المذكور ، الذى لم يكن بالشخص السهل المراس ، بل كان أكثر من عرفت فى حياتى سخرية وقسوة ، وسيحكم القارىء على ذلك من حادثين أو ثلاثة أذكرها كنماذج !

فلقد كان « جروسى » يتشاور يوما مع أطباء آخرين ، استدعى أحدهم من (أنيسى) ليعالج مريضا . وجرؤ هذا الأخير ـ الذى لم يكن قد استكمل لباقته كطبيب ـ على أن يعارض رأى السيد « الطبيب الأول ، جروسى » ، فكان رد هذا الأخير عليه ، أن سأله عن موعد عودته من حيث أتى ، وعن الطريق التى اعتزم أن يسلكها ، والمركبة التى سوف يستقلها ! وإذ أجاب الآخر عن كل هذه الأسئلة ، سأل « مستجوبه » بدوره عما إذا كان يستطيع أن يؤدى له أية خدمة ، فقال جروسى : « لا ، لا خدمة هناك .. وإنما أريد أن أقف فى نافذة على طريقك ، لأستمتع برؤية حمار يركب جوادا » !

وكان « جروسى » بخيلا بقدر ما كان غنيا وصعب المراس . ولقد أراده أحد أصدقائه يوما على أن يقرضه نقودا ، بضمانات طيبة ، فقال له وهو يمسك بذراعه ، وقد كشر عن

أنيابه : « ياصديقى .. إذا هبط القديس بطرس من السماء ليقترض منى عشر « بيستولات »(١) ، وقدم لى المهد المقدس ضمانا ، لما أقرضته ! » .. وفى ذات يوم ، دعى للغداء لدى السيد الكونت بيكون ، حاكم (سافوا) ـ الذى كان شديد التدين ـ فوصل قبل الموعد ، وكان صاحب السعادة منصرفا إلى تسبيحاته ، فعرض عليه أن يتسلى بالتسبيح . وإذ لم يدر الطبيب بماذا يجيب ، ابتسم ابتسامة رهيبة ، وركع ، ولكنه لم يكد يتلو اثنتين من التسبيحات الملائكية ، حتى عجز عن الاحتمال ، فنهض على حين غرة ، وتناول عصاه ، وانصرف بدون أن ينبس ببنت شفة ! فهرع الكونت بيكون خلفه ، وهو يصيح به : « يا سيد جروسى ! يا سيد جروسى ! امكث ، فإن على السفود حجلا بديعا »(٢) . فالتفت إليه الآخر مجيبا : « يا سيدى الكونت ، لو أنك وهبتنى ملاكا مشويا لما بقيت! » .. هذا هو السيد الطبيب الأول جروسى ، الذى تولته « ماما » وانتهت إلى ترويضه . ومع انه كان جم المشاغل إلى أقصى حد ، فقد اعتاد أن يتردد كثيرا جدا على دارها ، وقد اصطفى « آنيه » فآثره بوده ، مبديا تقديره لعلمه ، متحدثا عنه باحترام . والأمر الذى ما كان ليتوقعه أحد من دب شرس كهذا ، إنه راح يعامل الوصيف باعتبار كبير ، ليمحو آثار الماضى !

---

(١) عملة ذهبية قديمة ، كانت قيمتها تتغير بتغير العصر والبلد الذى يصكها .

(٢) السفود : المشواة . والحجل : نوع من الطيور .

ذلك لأنه وإن كان « آنيه » لم يعد فى مرتبة الخدم ، إلا انه كان من المعروف انه كان من قبل خادما ، ولم يكن يعوزه شيء قدر مسلك الطبيب الأول ، واحترامه ، كيما يعامله الناس بأسلوب ما كانوا ليأخذوه قط عن شخص آخر سوى جروسى! .. وكان « كلود آنيه » ببزته السوداء ، وشعره المستعار الجيد التنسيق ، ومظهره الجاد الوقور ، ومسلكه الرصين الحذر ، والمامه الواسع بعلم النبات والطب ، وتأييد رئيس الكلية له ، خليقا بأن يجعله يأمل ـ بحق ـ فى ان يشغل منصب مدير حديقة النباتات الملكية ، لو قدر للمشروع أن يتحقق ! والواقع أن جروسى حبذ المشروع ، واحتضنه ، ولم يعد ينتظر لعرضه على البلاط الملكى ، سوى اللحظة التى يسمح فيها استقرار السلم بالتفكير فى الأشياء المفيدة ، وتوفير بعض المال من أجلها .

ولكن هذا المشروع ـ الذى كان من المحتمل أن يصرفنى تحقيقه إلى التفرغ لعلم النبات ، إذ كان يخيل إلى اننى خلقت له ـ أخفق بسبب حادث من هذه الحوادث التى تقلب خير الخطط المتناسقة . وكان مقدرا على أن أصبح تدريجا مثالا للإنسان البائس . ومن الممكن القول إن العناية الالهية ـ التى كانت تبتلينى بتلك الاختبارات الضخمة ـ كانت تزيح بيدها كل ما كان يمنعنى من خوض تلك المحن . ففى إحدى الجولات التى كان «آنيه» يقوم بها إلى أعالى الجبال للبحث عن«الجنبة» ـ وهى نبات نادر لم يكن ينمو إلا على جبال الألب ، وكان السيد جروسى بحاجة إليه ـ تعرض التعس المسكين لحرارة

ادت إلى إصابته بنوبة من داء الجنب (التهاب غشاء «البلورا»)، لم تقو « الجنبة » على إنقاذه منها ، برغم ما كان يقال من أنها علاج لهذا الداء بالذات . وبالرغم من كل مهارة جروسى ، الذى كان نطاسيا حاذقا حقا ، وبالرغم من العناية التى لا حد لها والتى بذلناها ــ سيدته الطيبة وأنا ــ له ، فإنه مات بين أيدينا ، فى اليوم الخامس ، بعد أن عانى آلاما فظيعة فى النزع الأخير ، لم يجد خلالها سلوى سوى دعواتى التى رحت أبذلها فى أسى وحماس بالغين ، والتى كانت خليقة بأن تسرى عنه لو أنه فهمها ! .. وهكذا فقدت أوفى صديق حظيت به فى حياتى .. رجلا جديرا بالتقدير ، نادرا ، تولت الطبيعة تربيته وتعليمه ، وكان ــ وهو فى منصبه كخادم ــ يغذى قلبه بكل فضائل العظماء ، ولعله لم يكن بحاجة ــ لكى يظهر الدنيا باسرها على أنه من هؤلاء ــ إلا لعمر أطول ، ومركز افضل !

وفى اليوم التالى ، كنت أتحدث عنه إلى « ماما » باشد وأصدق الأسى ، عندما خطرت لى فجأة ــ وسط الكلام ــ أدنأ واخبث فكرة : تلك هى أننى خليق بأن أرث ثيابه ، ولا سيما بزة سوداء أنيقة كانت تستهوينى ! .. فكرت فى هذا ، فإذا بى أفصح عنه ، إذ أن التفكير والقول كانا مترادفين عندى حين أكون بالقرب من « ماما » . ولم يجعلها شىء أكثر شعورا بالخسارة التى منيت بها ، قدر هذه الكلمة المتهورة البغيضة ، فقد كان إنكار الذات ونبل النفس خصلتين امتاز بهما الراحل. واشاحت عنى المراة المسكينة ــ دون أن تجيب بكلمة ــ وانخرطت فى البكاء .. وما كان أعز دموعها وأغلاها ! لقد



واشاحت عنى المراة المسكينة ـ دون أن تجيب بكلمة ـ وانخرطت فى البكاء ..

افصحت هذه الدموع عن معانيها ، وانسابت إلى فؤادى ، فغسلت عنه آخر آثار الأحاسيس الخسيسة ، غير الكريمة .. فلم تدخله هذه الأحاسيس بعد ذلك !

ولقد أضرت هذه الخسارة بماما ، بقدر ما أحزنتها ، فلم تكف شئونها عن الانهيار منذ تلك اللحظة ، إذ كان « آنيه » فتى دقيقا ، منظما ، عنى بتنظيم دار سيدته . وكانت يقظته مهابة من الخدم ، فإذا الإسراف يتضاءل .. حتى « ماما » نفسها كانت تخشى لومه ، وتحد من نفقاتها . ولم تكن تكتفى بحبه ، بل كانت ترغب فى الاحتفاظ بتقديره ، وكانت تخشى اللوم العادل الذى كان يجرؤ أحيانا على إبدائه ، إذ كانت تسخو بمال غيرها لا بمالها فحسب ! .. ولقد كنت أرى رأيه فى هذا ، بل وأعربت عنه فعلا ، ولكنى لم أوت ما كان له من نفوذ عليها، فلم يكن لأقوالى ما كان لأقواله من تأثير لديها . ولما لم يعد له وجود ، اضطرت إلى أن أتخذ مكانه ، وهو ما كنت قليل المقدرة عليه والميل إليه ، فلم أحسن ملء المركز ، إذ أننى كنت قليل العناية ، شديد الخجل ، فتركت كل شىء يسير على هواه ، وأنا أنحو على نفسى باللائمة ، وبجانب هذا ، فإننى لم أحظ بسلطانه ، وإن حظيت بنفس الثقة التى كان ينعم بها . وكنت أرى الفوضى فأتحسر عليها ، وأشكو منها ، ولكن أحدا لم يكن يصغى إلى . فقد كنت أصغر سنا وأكثر مرحا من أن أبدو عاقلا حكيما . وعندما كنت أسعى للتدخل والرقابة ، كانت « ماما » تقابلنى بصفعات بسيطة مدللة ، وتدعونى بمرشدها الصغير ، وتضطرنى إلى أن أعود للدور الذى كان يلائمنى !

وكان الاقتناع العميق بالضائقة التى كان إسرافها المطلق كفيلا بأن يغرقها فيها ــ إن عاجلا أو آجلا ــ قد ترك أثرا فى نفسى .. وقد اشتد هذا الأثر كثيرا حين أصبحت ــ كمشرف على شئون الدار ــ قادرا على أن أتبين بنفسى الفارق بين دخلها ونفقاتها ، فقد كانت كفة الأخيرة أرجح ! ــ وإلى هذه الفترة أرجع تاريخ الميل الذى استشعرته منذ ذلك الحين إلى التقتير ــ وأنا لم أكن قط مسرفا فى نزق ، إلا فى نوبات عابرة ، ولكنى حتى ذلك الحين لم أكن قد حملت هم ما إذا كانت ثمة نقود كثيرة أو قليلة .. فبدأت أهتم بهذا ، وأعنى بكيس نقودى .. وهكذا تحولت إلى البخل ، نتيجة باعث رائع جدا ، ذلك أن همى الأوحد انحصر ــ فى الحقيقة ــ فى : كيف أقتصد لماما شيئا يقيها محنة الانهيار الذى كنت أراه مقبلا ! ؟ وكنت أخشى أن يحجز دائنوها على معاشها ، أو أن ينقطع هذا المعاش نهائيا ، فخيل إلى ــ لضيق عقلى ــ أن مدخراتى الضئيلة ستكون ، إذ ذاك ، عظيمة النفع لها ! على أنه لادخار شىء ما ، ولحفظه ــ قبل كل شىء ــ كان لا بد من مكان لاخفائه فيه عنها ، إذ لم يكن من المجدى لهذه الخطة أن تعرف « ماما » شيئا عن وجود مدخراتى القليلة ، عندما تكون فى أشد الحاجة إلى المال ! .. ومن ثم رحت أبحث عن عدة مخابىء أودعتها بضع قطع من فئة « اللوى » ، معتزما أن أضاعف الرصيد بين وقت آخر ، إلى أن تحين اللحظة التى كنت أعتزم أن أطرحه فيها عند قدميها ! ولكنى كنت من الارتباك فى اختيار مخابئى بحيث أن « ماما » كانت دائما تعثر عليها ، وإذ ذاك ، كانت

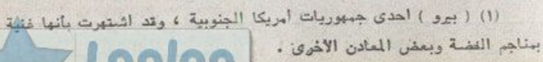
تشعرنى بذلك ، بأن تأخذ النقود التى أودعتها ، وتضع بدلا منها مبلغا اكبر ، من عملات اخرى مخالفة ! .. وكنت أشعر من ذلك بخجل بالغ ، فأضع كنزى الصغير فى صندوق النفقات العامة ، (فإنها لم تكن تغفل قط عن أن تنفقه على ثياب او اشياء اخرى لى ، كسيف ذى مقبض فضى ، أو ساعة ، او اى شىء من هذا القبيل) !

وإذ أيقنت من اننى لن افلح فى الادخار ، وان ما ادخره لن يكون ـ بعد ذلك ـ ذا نفع يذكر لها ، شعرت اخيرا بانه لم يعد ثمة ما يعمل إزاء النكبة التى كنت اخشاها ، اللهم إلا ان احصل على منصب يمكننى من أن أعولها بنفسى ، بمجرد أن تكف عن إمدادى بالمال ، وبمجرد أن تجد نفسها فى فاقة ! .. ووضعت خططى على اساس ميولى الخاصة ـ لسوء الحظ ـ فأصررت فى غباء على ان انشد نجاحا فى الموسيقى ، إذ أحسست بأنغام والحان تتصاعد فى راسى ، فظننت اننى مستطيع ـ بمجرد ان أصبح فى مركز يمكننى من استغلالها ـ ان اغدو شهيرا ، وأن أصبح « أورفيه »(١) حديثا ، لا تخفق أنغامه فى اجتذاب

(١) « اورفيه » هو « اورفيوس » ، الشاعر والموسيقى الاغريقى الذى ورد ذكره فى الاساطير على انه ابن « ابوللو » ، ويعزى اليه انه أيقظ الربة « هاديس » من الموت بموسيقاه العذبة واغانيه الساحرة . وقد استجابت له الآلهة على شريطة ان يسير امام « هاديس » دون أن يلتفت خلفه لينظر اليها ، ولكنه لم يستطع ان يحافظ على وعده ، فعادت الى موتها . وقد نسبت اليه عقيدة دينية تصوفية ، من أهم معالمها الايمان بحياة جديدة بعد الموت .

فضة (بيرو)(١) بأسرها ! .. ولما كنت قد بدأت إذ ذاك أقرأ « النوتة » باتقان كبير فإن المسألة اصبحت متمثلة فى : كيف أستطيع ان اتعلم التلحين ؟ .. وكانت الصعوبة هى أن اعثر على من يعلمنى ، لأننى لم اكن آمل ان أتمكن من أن أعلم نفسى بمساعدة كتاب « رامو » ـ الذى كنت اعتز به ـ فحسب .. ولم يكن فى (سافوا) ـ منذ رحيل لوميتر ـ امرؤ على دراية بأى شىء عن تناسق النغم !

وهنا يتراءى مظهر آخر من مظاهر التناقض التى تحفل بها حياتى ، والتى كثيرا ما أفضت بى إلى أن أحيد عن غايتى ، حتى وانا أظن أننى أسير إليها صادقا : فإن « فينتور » كان قد تحدث إلى كثيرا عن الراهب « بلانشار » ، أستاذه فى التلحين .. وكان رجلا قديرا ، عظيم الموهبة ، كان إذ ذاك أستاذا للموسيقى فى كاتدرائية (بيزانسون) ، وهو يشغل اليوم عين المنصب فى كنيسة (فرساى) . وقلت لنفسى إننى خليق بالذهاب إلى (بيزانسون) لأتلقى دراسة على الأب بلانشار ، وقد بدت لى هذه الفكرة معقولة ، حتى اننى سعيت إلى أن أحمل « ماما » على أن تراها كذلك . فإذا بها تعمل على إعداد متاعى البسيط ، و قد فعلت ذلك بالإسراف الذى كانت تلجأ إليه فى كل شىء . وهكذا .. بينما كنت أهدف دائما إلى تفادى إفلاسها ، وإلى أن أصلح فى المستقبل نتائج إسرافها ،



(١) (بيرو) احدى جمهوريات أمريكا الجنوبية ، وقد اشتهرت بأنها غنية بمناجم الفضة وبعض المعادن الأخرى .



إذا بى أبدأ ــ فى نفس اللحظة ــ بتكبيدها ثمانمائة فرنك !.. فعجلت بخرابها لكى أهيىء نفسى لعــلاج حالها ! ومهما تكن الحماقة التى انطوى عليها هذا التصرف ، فإن الوهم كان بأكمله راجعا إلى ، وإليها هى الأخرى . فقــد اقتنع كل منا الآخر ، فكنت من ناحيتى مقتنعا بأننى أقوم بعمل نافع من أجلها ، وكانت هى مقتنعة بأننى أقوم بعمل نافع من أجل نفسى !

وكنت أعول على أننى سأجد فينتور باقيا فى (انيسى) ، فأحصل منه على خطاب إلى الأب « بلانشار » . ولكنه لم يكن هناك ، وكان على أن أقنع ــ من الدراسة كلها ــ بقداس من أربعة أجزاء ، من تلحينه ، كان قد تركه لى . وبهذه الشفاعة ذهبت إلى (بيزانسون) ، مارا بجنيف ــ حيث زرت أهلى ــ وبـ (نيون) ، حيث زرت أبى الذى تلقانى كالمعتاد ، وتكفل بأن يرسل فى أثرى حقيبتى ، لكنها لم تصل إلا بعدى ، لأننى كنت مسافرا على جواد .. ووصلت إلى (بيزنسون) ، فأحسن الأب بلانشار استقبالى ، ووعدنى بأن يزودنى بدروسه ، وقدم إلى خدماته . وفيما نحن على أهبة البدء ، إذا بى أعلم من أبى بأن حقيبتى قد ضبطت وصودرت فى (روس) ، وهى نقطــة للجمارك الفرنسية على الحدود السويسرية . وفى غمرة انزعاجى لهذا النبأ ، انتفعت بالأصدقاء الذين اكتسبتهم فى (بيزانسون) لمعرفة السبب الداعى لهذه المصادرة ، إذ لم اتصور اى مبرر لها ، بحكم اطمئنانى إلى أننى لم أكن أمتلك شيئا من المهربات . وأخيرا عرفت السبب ، ولا بد لى من ذكره لأنه أمر عجيب !

ذلك أننى كنت قد التقيت فى (شامبير) بكهل من (ليون) يدعى « ديفيفييه » ، كان قد عمل فى إدارة الجوازات ، فى عهد الوصاية ، وقد وفد ليعمل فى المساحة ، لحاجته إلى عمل . وكان قد عاش فى المجتمعات الراقية ، وأوتى مواهب وقدرا من المعرفة ، واللطف ، والأدب ، كما كان ملما بالموسيقى . ولما كنت أعمل فى حجرة واحدة معه ، فإن كلا منا مال إلى إيثار الآخر ، وسط الدبية المسعورة التى كانت تحيط بنا .. وكان له مراسلون فى باريس ، يوافونه بتلك التفاهات الرخيصة ، وتلك المطبوعات اليومية التى تنتشر دون أن يدرى أحــد كيف تنتشر ، وتموت دون أن يدرى أحد كيف تموت ، ثم لا يعود أحد إلى التفكير فيها بعد أن تغيب عن الذكر . ولما كنت اصطحبه معى أحيانا لتناول الغداء لدى ماما ، فإنه كان يعاملنى بقــدر كبير من الاحترام . ولكى يجعل نفسه حلو المعشر ، كان يحاول أن يحملنى على أن أحب هذه الصحف التافهة التى كنت انفر منها دائما إلى درجة أننى لم أقرأ من تلقاء نفسى شيئا منها فى حياتى . ولسوء حظى أن إحدى هذه الوريقات اللعينة ، ظلت فى جيب صدر إحدى السترات الجديدة التى لم أكن قد ارتديتها سوى مرتين أو ثلاثا لكى لا يتعرض لها رجال الجمارك . وكانت تلك الوريقة تضم تحريفا « يانسينيا »(١) غثا لمشهد جميــل

---

(١) اليانسينية مذهب دينى ابتدعه قس هولنــدى يدعى « كورنيليوس يانسين » فى القرن السابع عشر ، ونادى فيه بأن تعــاليم القديس أوغسطين بشأن الغفران وحرية الارادة والقدر تتعارض مع آراء رجال الدين المحدثين ،

لمسرحية راسين « ميثريدات » .. ولم اكن قد قرأت من هذا التحريف سوى عشرة أبيات شعرية ، ثم تركتها ، ونسيتها فى جيبى . وكان هذا ما أدى إلى مصادرة أمتعتى ، فإن رجال الجمارك الذين اشرفوا على تفتيش حقيبتى بنوا على هذه الوريقة قضية كبيرة ، زاعمين أنها اجتلبت من جنيف لتطبع وتوزع فى فرنسا ، وشنوا حملة من الطعن والقدح المبنيين على التقوى ، ضد « أعداء الله والكنيسة » . ومن المدح والثناء على أولئك الذين استطاعوا بيقظتهم وتقواهم أن يحولوا دون تنفيذ هذا المشروع الجهنمى ! .. ولا بد أنهم وجدوا أن أقمصتى كانت هى الأخرى تنضح بالزندقة ، إذ أنهم — استنادا إلى هذه الوريقة الرهيبة — صادروا كل شىء ، فلم اتلق ابدا اى نبأ او بيان عن حقيبتى البائسة ! ولقد طلب الموظفون الذين كتبت إليهم أوسطهم فى الأمر ، معلومات وبيانات ، وشهادات ، ومذكرات ، بلغ من كثرتها أننى بعد أن تخبطت ألف مرة فى هذا التيه ، اضطررت إلى التخلى عن كل شىء ! وإنى لنادم حقا على عدم الاحتفاظ بالدعوى التى وضعها موظفو (روسو) ، فقد كانت خليقة بأن تبرز وأن تكون موضع امتياز بين الوثائق التى ستصحب هذا المؤلف .

=

لا سيما الجيزويت (اليسوعيين) . وقد اشتد الصراع بين اتباع « يانسين » والجيزويت فى فرنسا ، ومن هذا ندرك الأهمية التى اضفاها موظفو الجمارك على القصيدة التى وجدت لدى « روسو » .

وجعلتنى هذه الخسارة أبادر بالعودة إلى (شامبيرى) دون أن أكون قد أبرمت شيئا مع الأب « بلانشار » . وبعد أن وزنت كل الأمور ، وتبينت أن النحس يلاحقنى فى كل مشروعاتى ، عقدت العزم على أن انصرف بكل جوارحى إلى « ماما » وحدها ، وأن أشاركها حظها ، وألا أعود إلى الاهتمام غير المجدى بمستقبل لم أكن أملك إزاءه شيئا . وقد تلقتنى « ماما » وكأننى جلبت إليها كنوزا ، وزودت صوان ملابسى الصغير شيئا فشيئا ، وسرعان ما تنوسى تقريبا سوء طالعى ، الذى كان فادحا سواء لى أو لها !

ومع أن هذا النحس قد هدأ من حدة مشروعاتى الموسيقية ، إلا أننى لم أتخل قط عن أن ادرس كتاب « رامو » باستمرار ، وانتهيت بفضل الجهد الشاق إلى أن أستوعبه ، وإلى أن أقوم ببضع محاولات صغيرة فى التلحين ، شجعنى نجاحها . وكان الكونت « دى بيلجارد » — ابن مركيز دانترمون — قد عاد من (درسدن) بعد موت الملك « اوجيست » . وكان قد أقام ردحا طويلا فى باريس ، وأحب الموسيقى حبا جما ، وشغف بمؤلفات « رامو » بوجه خاص . وكان أخوه الكونت (دى نانجى) يعزف على الكمان ، والسيدة الكونتة ديلاتور — شقيقتهما — تجيد الغناء بعض الشىء . فأدى كل هذا إلى أن أصبحت الموسيقى هى الهواية الشائعة فى (شامبيرى) ، وأنشىء نوع من الفرق الموسيقية العامة . وقد أرادوا فى بادىء الأمر منحى إدارة هذه الفرقة ، ولكن سرعان ما تجلى أنها فوق طاقتى ، فاتخذت تدبيرات أخرى . ولم أتخل عن تقديم بضع قطع صغيرة من تلحينى ، بينها أغنية أصابت رضاء كثيرا . ولم تكن

هذه الأغنية قطعة بديعة التلحين ، ولكنها كانت مليئة بألوان جديدة من الغناء ، وبمؤثرات ما كان أحد يرتقبها منى . ولم يستطع هؤلاء السادة أن يصدقوا أننى ـ وقد كنت أسىء قراءة المقطوعات الموسيقية ـ كنت فى وضع يمكننى من تأليف ألحان مقبولة ، فلم يرتابوا قط فى أننى انتحلت لنفسى فخر عمل سواى ! .. ولكى يتحروا الأمر أقبل السيد دى نانجى ذات صباح ليبحث عنى ، ومعه إحدى أغانى « كليرامبو » ، وقد عدل فيها ـ كما قال لى ـ لكى تلائم صوته ، غير أنه كان من الضرورى وضع أنغام أخرى للترنيم الثانى ، إذ أن التعديل جعل من غير الممكن عزف الأنغام التى وضعها كليرامبو على الكمان الكبيرة . وأجبته بأن هذا عمل ضخم ، لا يمكن أداؤه فى التو ، فظن أننى أبحث عن مهرب ، وألح على فى أن أضع له ـ على الأقل ـ أنغام رنيم القائى ففعلت . وقد أسأت فى ذلك بلا شك ، لأنه لابد لى ، لكى أجيد أداء أى أمر ، أن أكون على سجيتى وحريتى .. بيد أننى وضعت ما طلب منى وفقا للقواعد على الأقل ، ولما كان السيد حاضرا ، فإنه لم يستطع أن يرتاب فى أننى ملم بأصول التلحين . ومن ثم فإننى لم أفقد تلاميذى ، ولكننى ازددت فتورا ـ بعض الشىء ـ نحو الموسيقى ، إذ رأيت القوم قد ألفوا فرقة موسيقية وأهملونى فى تأليفها !

* * *

وحوالى ذلك الوقت ، عقد الصلح وساد السلام ، وعبر الجيش الفرنسى الجبال عائدا إلى بلاده .. وجاء عدد من

الضباط لزيارة « ماما » ، كان بينهم السيد الكونت « لوتريك » ـ قائد كتيبة (أورليان) ، والمندوب المفوض فى جنيف بعد ذلك ، ثم مارشال فرنسا(٤) فى النهاية ـ فقدمتنى « ماما » إليه ، وإذ سمعها تتحدث عنى ، أبدى اهتماما كبيرا بى ، ووعدنى بأمور كثيرة ، لم يتذكرها البتة إلا فى العام الأخير من حياته ، عندما لم أكن بحاجة إليه ! .. كما مر بشامبيرى ـ فى الوقت ذاته ـ مركيز دى سنيكتير الشاب ، الذى كان أبوه إذ ذاك سفيرا لدى (تورين) ، فتناول الغداء فى دار السيدة « دى مانتون » ، وكنت أنا الآخر أتغدى هناك فى ذلك اليوم . وبعد الغداء أثار المركيز ذكر الموسيقى ، وكان واسع الدراية بها . وكانت أوبرا « جيفته » JEPHTE حديثة العهد إذ ذاك ، فتكلم عنها ، وجىء إليه بها ، فإذا به يجعلنى أرتجف ، إذ اقترح أن نؤديها معا .. وما أن فتح الكتاب ، حتى وقع بصره على هذه المقطوعة الشهيرة ، التى يؤديها فريقان من المنشدين (الكورس) :

« إن الأرض ، والجحيم ، بل والسماء
ذاتها لترتجف جميعا أمام الرب »

وسألنى : « كم دورا تريد أن تؤدى ؟ » .. فأجبت : « سآخذ لنفسى هذه الأدوار الستة » .. ولم أكن قد اعتدت بعد هذه النزوة الفرنسية ، وإذا كنت قد أديت الأدوار ـ مرتبكا فى بعض الأحيان ـ إلا أننى لم أدر إطلاقا كيف يملك رجل واحد أن يؤدى ستة أدوار ـ بل دورين ـ فى وقت واحد ! وما كبدنى شىء من المشقة ، فى ممارسة الموسيقى ، أكثر من القفز ببساطة

من دور إلى آخر ، موجها عينى إلى فصل بأكمله فى آن واحد . ولا بد أن السيد دى سنيكتير انساق — من جراء الطريقة التى اديت بهـا هذا المشروع — إلى الظن بأننى لم أكن على معرفة بالموسيقى . ولعله أراد أن يتحرى صحة ارتيابه ، فاقترح على أن أكتب «نوتة» أغنية كان يريـد أن يقـدمها إلى الآنسـة « دى مانتون » ، فلم أملك أن أرفض .. وراح يترنم بالأغنية وأنا أكتب ، دون أن أسأله أن يكثر من التكرار . ثم قرأها بعد ذلك ، فوجدها — كما كانت حقيقة — صحيحة التسجيل . وكان قد لاحظ ارتباكى ، فطـاب له أن يطنب فى امتـداح توفيقى البسيط . والواقع أننى كنت على معرفة طيبة جدا بالموسيقى، ولم يكن ينقصنى سوى سرعة الاستيعاب ، من أول نظرة ألقيها، وهو الأمر الذى لم أملكه ، والذى لا سبيل إلى اكتسـابه فى الموسيقى إلا بالمران الدائب .. ومهما يكن الأمر ، فإننى تقبلت العناية الأمينة التى بذلها ليمحو من أذهان الآخرين ، ومن ذهنى، الحياء الذى عانيته . ولقد وجدتنى منساقا — عدة مرات بعـد ذلك — إلى أن أذكره بهذه القصة ، عندما كنت ألتقى به فى عدة دور بباريس ، بعد اثنى عشر أو خمسة عشر عاما ، لأريه أننى كنت احتفظ بالذكرى . ولكنه كان قد فقد بصره منذ ذلك الحين، نخشيت أن أجدد شجونه إذ أذكره بالنفع الذى كان يجنيه من هذا البصر فيما مضى ، وأمسكت لسانى ! .

* * *

واصل الآن إلى اللحظة التى بدأت تربط وجودى الماضى بوجودى الراهن ، فإن بعض الصداقات التى امتدت منذ ذلك

الوقت حتى وقتنا الحاضر ، أصبحت جد غالية لدى . وأنهـا لتحملنى كثيرا على أن أتحسر على ما كنت أسعد به من خمول الذكر ، حين كان أولئك الذين يعلنون أنهم أصدقائى ، أصدقاء بالفعل ، يحبوننى لذاتى ، بنية طيبة ، لا عن زهو بأن يكونوا مرتبطين برجل نابه الذكر ، أو عن رغبة خفية فى أن يجدوا مزيدا من الفرص للاساءة إليه !.. وإلى هذه الفترة أرجع معرفتى الأولى بصديقى القديم «جوفكور» الذى ظل دائما صديقا لى ، برغم جهود الآخرين لابعاده عنى .. ظل دائما ؟ .. لا ، مع الأسف ! .. فلقد قدر لى أن أخسره . ولكنه لم يكف عن حبى إلا حين كف عن الحياة ، ولم تنته صداقتنا إلا بانتهاء عمره . ولقد كان السيد « دى جوفكور » من أرق وأحب الرجال الذين وجدوا على ظهر البسيطة ، وما كان من الممكن لأحد أن يراه دون أن يحبه ، ولا أن يعيش معه بدون أن يتعلق به فى ولاء .. أبدا لم أر فى حياتى ملامح أكثر صراحة أو رقة .. ولا وجها أكثر وقارا ، أو أكثر إظهارا للحس المرهف والذكاء ، أو أكثر إيحاء بالثقة !.. ومهما يكن تحفظ المرء ، فقد كان من المستحيل عليه أن يتمالك نفسه — منذ أول نظرة — من أن يصبح على ألفة معه، وكأنه عرفه منذ عشرين عاما !.. حتى أنا — الذى كان يجد مشقة فى أن يكون على سجيته مع الأغراب — اطمأننت إليه منذ اللحظة الأولى . كان سلوكه ، ولهجته ، وأقواله ، تتمشى مجتمعة مع ملامحه . وكان رنين صوته جليا ، مليئا ، واضح الجرس . كان صوتا عذبا ، جهوريا ، قويا رنانا ، يملأ الأذن ويرن فى الفؤاد . وما كان فى الوسع أن يوجد مزج أكثر اعتدالا،

واكثر لطفا من مرحه . . ولا كياسة أصدق وأبسط من سذاجته، ولا مواهب أكثر تأصلا ونموا وارهافا من مواهبه !. . أضف إلى هذا قلبا ودودا ، مسرفا بعض الشيء فى حبه للناس جميعا ، وشخصية فعالة للخير دون ترو !. . وكان ميالا لخدمة الأصدقاء فى حمية ، أو لعله كان يسعى لاكتساب صداقة أولئك الذين يستطيع أن يخدمهم ، وهو يدرك انه إنما يغدو أحذق أداء لشئونه النزيهة ، عندما يخدم بحرارة شئون الغير !

وكان «جونفكور» ابن ساعاتى بسيط، وكان – هو الآخر– ساعاتيا ، ولكن شكله وكفاءته قاداه إلى جو آخر لم يتلكأ فى أن ينفذ إليه ، فقد تعرف إلى السيد ديلاكلوسير — مندوب فرنسا المقيم فى جنيف — الذى أولاه وده ، فأحرز له صلات تعارف اخرى فى باريس ، اجدت عليه نفعا ، واستطاع بنفوذ أصحابها ان يظفر بحق امداد (فاليه) بالملح ، مما عاد عليه بدخل قدره عشرين ألف ليبرة . وقد انتهت به ثروته — وهى جد كافية — إلى هذا الحد فى علاقته بالرجال . اما من ناحية النساء ، فقد كان يجد عناء . كان عليه أن يختار ، وان يفعل ما يشاء . وكان من اندر وأشرف ما امتاز به انه فى علاقاته بالاشخاص — من كافة الرتب والدرجات — كان محبوبا من الجميع ، مرجوا من الناس طرا ، دون أن يتعرض لحسد أو بغضاء أى شخص . وإنى لأعتقد بانه مات دون أن يرى فى حياته عدوا واحدا !. . كم كان سعيدا !. . وكان يذهب فى كل عام إلى حمامات (ايكس)، حيث يجتمع خيرة الناس من البلدان المجاورة . وإذ كان على ود مع علية القوم فى (سافوا) ، فقد جاء من (ايكس) إلى

(شامبيرى) لزيارة الكونت « دى بيلجارد » وأبيه المركيز دانترمون . . وفى دارهما عرفته « ماما » وعرفتنى به . وقد تجددت هذه المعرفة — التى لم يبد إذ ذاك أن من المقدر لها أن تنتهى إلى شىء ، والتى انقطعت عدة سنوات ، بعد ذلك — فى مناسبة سأرويها ، وأصبحت ودا وثيقا صادقا . وهذا كاف لأن يبرر حديثى عن صديق كنت وثيق الارتباط به . وحتى إذا لم يكن ثمة مصلحة شخصية فى تذكره ، فإنه كان رجلا حبيبا ، ولد سعيدا ، حتى أننى أعتقد دائما أن ذكراه جديرة بأن تبقى، لتكون فخرا للجنس البشرى . ومن المحقق انه كانت لهذا الرجل الساحر أخطاؤه ، كغيره من البشر ، وكما سيتجلى فيما بعد . ولكن، لعله كان يغدو أقل استئثارا بالمحبة إذا لم تكن له أخطاء . فقد كان من الضرورى — لجعله جديرا بالاهتمام إلى أقصى ما كان ممكنا — أن يوجد فى مسلكه ما يستحق الصفح والغفران !

وهناك علاقة اخرى تمت إلى ذلك العهد ، ولم تفتر بعد ، بل إنها لا تزال توعز إلى بالأمل فى الهناء الدنيوى ، الذى يتعذر موته فى قلب الإنسان . فلقد شغف السيد « دى كونزييه » — وهو سيد من ابناء (سافو) ، كان إذ ذاك شابا لطيفا – بتعلم الموسيقى ، أو — بالأحرى — بالتعرف إلى ذلك الذى يتولى تدريسها . ولقد أوتى السيد « دى كونزييه » ذكاء وميلا إلى الصداقات الجميلة ، وكان يقرن هذا بلطف الخلق ، مما جعله لين الجانب إلى حد كبير ، مثلما كنت انا الآخر — إلى حد كبير كذلك – بالنسبة لمن أجدهم على هذه الشاكلة . وسرعان

ما توثقت صلتنا(١) ، فإن بذور الأدب والفلسفة التى كانت قد بدأت تختمر فى راسى ، والتى لم تكن ترتقب سوى شىء من الرعاية والتشجيع لتترعرع لتوها وجدت هذه الرعاية والتشجيع لدى السيد « دى كونزييه » ، إذ كان على قدر من الميل إلى الموسيقى ، فكان فى هذا خير كبير لى ، لأن ساعات الدرس راحت تنقضى فى كافة الأشياء عدا التدريب على الألحان . وكنا نتناول الفطور معا ، ونتجاذب الحديث ، ونقرأ بعض المطبوعات الحديثة ، ولا نفوه بكلمة واحدة فى الموسيقى .وكانت الرسائل المتبادلة بين « فولتير » وولى عهد بروسيا قد أحدثت ضجة فى ذلك الحين ، فكنا كثيرا ما نتكلم عن هذين الرجلين الشهيرين ، اللذين ارتقى أحدهما العرش بعد ذلك بقليل ، فى حين كان الآخر موضع تشهير – بقدر ما هو الآن موضع تمجيد – مما كان يجعلنا نرثى فى إخلاص لسوء الطالع الذى بدا أنه كان يلاحقه ، والذى كثيرا ما يكون نصيب ذوى المواهب العظيمـــة . وكان الأمير البروسى قد حظى بقسط من السعادة فى شبابه ، أما فولتير فكان يلوح وكأنه خلق لكى لا يسعد البتة . وكان الاهتمام الذى تولانا نحو كل منهما قد امتد إلى كل ما كان يتعلق به ، فلم يكن

---

(١) قدر لى أن أراه بعد ذلك ، وأن أجده قد تغير تغيرا شاملا . فياللسيد شوازيل من ساحر قدير ! .. فما قدر لأحد من معارفى القدامى أن ينجو من مقدرته على التبديل !

هذه الاضافة وجدت فى الأصول الأولى المكتوبة بخط روسو ، ولـــكن لا اثر لها فى طبعة (جنيف) .

يفوتنا شىء مما كتبه « فولتير » . وقد ألهمتنى المتعة التى حظيت بها من هذه المطالعات ، بالرغبة فى أن أتعلم الكتابة البليغة ، وان أحاول أن أقلد ما لهذا المؤلف من أسلوب بديع ، كنت مفتونا به . ولقد ظهر بعد ذلك بقليل كتابه « الرسائل الفلسفية » ، ومع أنه لم يكن أفضل مؤلفاته ، إلا أنه كان أعظم ما اجتذبنى إلى الدرس ، ومنذ ولد فى هذا الميل ، لم يقدر له أن يخبو أو يفتر!

على أن الوقت لم يكن قد حان بعد كى أتفرغ للأدب تفرغا تاما ، إذ كانت لا تزال لدى بقية من النزق ، والرغبة فى الغدو والرواح ، التى كانت قد هدأت وإن لم تكن قد خمدت ، والتى وجدت ما يغذيها فى سياق العيش فى بيت مدام دى فاران .. فقد كانت الحياة هناك أكثر صخبا من أن تلائم مزاجى الانعزالى، إذ ان سيل الأغراب الذين كانوا يتدفقون عليها من كافة الأرجاء، واقتناعى بأنهم لم يكونوا يسعون إلا إلى التغرير بهـــا ــ كل بطريقته ــ جعلا حياتى فى البيت عذابا منتظما ! .. فمنذ أن خلفت « كلود آنيه » فى الظفر بثقة مولاته ، رحت أتعقب عن كثب تطور شئونها ، وأرى تدهورها الذى كان يزعجنى . ولقد أطلعتها ، وتوسلت إليها ، وضغطت عليها، ورحت أناشدها مائة مرة ، ولكن دون ما جدوى على الاطلاق ! .. لقد ارتميت على قدميها ، وعرضت عليها ـ بأقوى ما وسعنى ـ النكبة التى كانت تتهددها ، ورحت أنصحها فى الحاح بأن تحد من نفقاتها ، وأن تبدأ بتطبيق ذلك على أنا ، وأن تعانى قليلا من الحرمان وهى بعد لا تزال شابة ، بدلا من أن تضاعف ديونها ودائنيهـــا باستمرار ، مما يعرضها لمضايقاتهم وللفاقة أيام شيخوختها ..

ومس صدق تحمسى عواطفها ، فجارتنى فى شعورى، ووعدتنى بأجمل ما فى الدنيا من وعود . ولكن كل شىء كان يغـدو منسيا، بمجرد أن يصل احد الأفاقين ! وبعد الف دليل على عدم جدوى ارشاداتى ، ما الذى تراه قد بقى لى ـ كى افعله ـ سوى أن أغض بصرى عن الشر الذى لم أكن أملك دفعه ؟ .. لقد رحت أنأى عن البيت الذى عجزت عن حراسة بابه ، وأخذت أقوم برحلات قصيرة إلى (نيون) و (جنيف) و (ليون) ، شغلت بالى عن همى الكظيم ، بينما كانت ـ فى الوقت ذاته ـ تزيد من عبئه ، نظرا لنفقاتى ! .. وبوسعى أن أقسم بأننى كنت خليقا بأن اتحمل باغتباط كل تضييق ، لو أن « ماما » كانت تنتفع حقا من ذلك الاقتصاد .. ولكنى كنت موقنا من ان ما كنت أحرم نفسى منه ، كان ينتقل إلى الأفاقين ، ومن ثم فإننى كنت اسىء استغلال سخائها لكى أقاسمهم ما كانت تغدقه عليهم .. وكالكلب العائد من المذبح ، كنت استولى على قضمة من القطعة التى لم أستطع أن أنقذها من الكلاب الأخرى !

ولم تكن تعوزنى الحجج لتبرير كل هذه الرحلات ، وكانت «ماما» وحدها تغذينى بهذه الحجج ، إذ كان لديهـا الكثير من الاتصالات ، والمباحثات ، والشئون ، والمهـام التى تحتاج إلى شخص موثوق به . ولم يكن عليها سوى أن توفدنى ، كما أننى لم أكن أرجو سوى أن أذهب .. ولم تخفق هذه الحال فى تهيئة حياة مليئة بالترحال . ولقد هيأت لى هـذه الرحـلات فرص عقد صلات تعارف طيبـة ، كانت ـ فيمـا بعد ـ مستحبة ونافعة . ومن هذه الصلات التى عقدتها فى (ليون) معـرفتى

بالسيد « بريشون » ـ وهى المعرفة التى الوم نفسى لأننى لم أعمل على تنميتها بدرجة كافية ، برغم ما كان السيد قد أبداه لى من طيبـة وكرم ـ ثم تعرفى إلى « باريسو » الطبيب ، الذى سأتحدث عنه فى حينه .. وفى (جرينوبل) تعرفت إلى السيدة « دى ديبيان » ، والسيدة حرم رئيس « الباردونانش »(١) ، وكانت امرأة جمة الذكاء ، على استعداد لأن تؤثرنى بودها لو اننى أوتيت مزيدا من الفرص لزيارتها .. وفى (جنيف) تعرفت إلى السيد « ديلا كلوسير » ـ مندوب فرنسا المقيم ـ الذى حدثنى فى أحيان كثيرة عن أمى ، التى كانت ما تزال تحتل مكانة فى فؤاده ، برغم الموت والزمن .. كمـا تعرفت إلى السيدين « باربيو » ، وكان الأب منهما ـ وقد اعتاد أن ينادينى بابنه الأصغر ـ حلو المعشر ، ومن أجدر من عرفتهم بالاحترام . وقد قدر لهذين المواطنين ان ينحازا إلى فريقين متعارضين ـ أثناء اضـطرابات الجمهـورية ـ فـكان الابن فى صـفوف البورجوازيين » ، بينما كان الأب فى صفوف الطبقة الحاكمة. وعندما حمل كل من الفريقين السلاح ضد الآخر ـ فى سـنة ١٧٣٧ ـ كنت فى (جنيف) ، فقدر لى أن أرى الأب والابن يخرجان مسلحين من بيت واحد ، أحدهما ليذهب إلى دار محافظة المدينة، والآخر ليذهب إلى مركز قيادته ، وهما موقنان من انهما لن يلبثا أن يجدا نفسيهما ـ بعد ساعتين ـ وجها لوجه ، معرضين لأن يقتل كل منهما الآخر ! .. ولقد ترك هذا المنظر الرهيب طابعا عميقـا فى نفسى ، حتى أننى أقسمت الا اشترك قط فى أيـة

---

(١) BARDONANCHE



حرب اهليـــة ، وألا أذود بالسلاح عن الحرية — فى داخل البلاد — سواء بنفسى أو بتحبيذى ، إذا ما قدر لى أن أمارس حقوقى كمواطن . وإنى لأشـــهد بأننى وفيت بهـــذا العهد فى مناسبة عسيرة ، ولسوف يتبين — أو هكذا أظن ، على الأقل — ان هذا الاعتدال كان ذا فوائد جمة .

على أنى لم اكن قد بلغت — بعد — هذا الفوران الأول للوطنية ، الذى اثارته جنيف — بتسلحها — فى فؤادى . وللمرء ان يحكم على مدى بعدى من ذلك على ضوء واقعة خطيرة اثرت على ، وقد نسيت أن أذكرها فى مكانها ، ويجب الا اغفلها : ذلك أن خالى برنار كان قد انتقل منذ ســـنوات عـــديدة إلى (كارولينا)(١) لانشاء مدينة (تشارلستون) ، التى وضـــع تصميمها . وما لبث أن مات بعد ذلك بقليل . كذلك مات ابن خالى المسكين ، فى خدمة ملك بروسيا . وهكذا فقدت عمتى ابنهـــا وزوجها فى آن واحد تقريبا ، فأدى هذان المصابان إلى اذكاء ودها لأقرب قريب بقى لها ، وهو أنا . . فكنت إذا ما ذهبت إلى (جنيف) أنزل لديها ، وكنت أتسلى بأن أنبش الكتب والأوراق التى تركها خالى ، وأقلب صفحاتها . وقد وجـــدت كثيرا من الأشياء العجيبة ، من بينها أوراق ما كان احد ليحدس وجودها يقينا . وكانت عمتى — التى لم تعلق أهميـــة تذكر على تلك

(١) الظاهر ان « روسو » يقصد (كارولينا الجنوبية) ، وهى احـــدى ولايات امريكا الشمالية القائمة على الساحل الجنوبى الأطلسى . وتعتبر (تشارلستون) من اكبر مدنها .

الأوراق — على استعداد لأن تدعنى آخذها جميعا ، لو أننى شئت ذلك . على أننى قنعت بكتابين أو ثلاثة ، تحمل تعليقات وشرحا بخط جدى برنار القس ، ومنها مؤلفـــات « روهو » اليتيمة(١) ، وقد طبعت فى مجلد من حجم « ربع القطع »(٢) ، وملئت هوامشها بملاحظات رائعة ، حببت إلى العلوم الرياضية . ولقد بقى هذا الكتاب بين كتب مدام دى فاران ، وإنى لأشعر بالحزن دائما لأننى لم احتفظ به . وقد أضفت إلى هذه الكتب خمسا أو ستا من المذكرات المخطوطة ، وواحدة مطبوعة هى المذكرة الشهيرة التى كتبها « ميشيلى دوكريه » ، وكان رجلا عظيم العبقرية ، عالما متنورا ، ولكنه كثير الشطط فى آرائه ، فلقى معاملة سيئة من حكام (جنيف) . وقد مات مؤخرا فى قلعة (اربيرج) ، حيث ظل سجينا أعـــواما طويلة ، لأنه — على ما قيل — اشترك فى مؤامرة (بيرن) !

وكانت هذه المذكرة نقدا رصينا عادلا لتلك الخطة الكبيرة ، والسخيفة ، التى وضعت للتحصينات ، والتى حقق جزء منهـــا فى (جنيف) ، وقد كانت أضحوكة كبرى لدى الخبراء الذين لم يدركوا ما كان للمجلس(٣) من غاية سرية من وراء تنفيذ هذا المشروع الهائل . ولما كان السيد « ميشيلى » قـــد أقصى عن

(١) اى التى لم تنشر الا بعد موت مؤلفها .

(٢) يكاد يعادل ضعف حجم « كتـــابى » و « مطبوعات كتابى » او يزيد قليلا فى العرض .

(٣) المجلس الذى كان يضم عددا من المستشارين ، ويتولى حكم جنيف .

« هيئة التحصينات » لأنه عاب المشروع ، فقد إعتقد أن بوسعه كعضو من « المائتين »(١) ـ وكمواطن كذلك ـ أن يعلن رأيه بمزيد من الإسهاب ، وهذا ما فعله فى مذكرته هذه ، التى أقدم ـ فى غير حكمة ـ على طبعها ، ولكنه لم ينشرها ، لأنه لم يطبع منها سوى عدد محدود من النسخ ، أرسله إلى « المائتين » .. ولكن هذه النسخ صودرت جميعا فى البريد ، بأمر من المجلس الاستشارى الصغير(٢) . ولقد وجدت هذه المذكرة بين أوراق خالى ، مع الرد الذى عهد إليه بوضعه ، فأخذت كلا منهما . وكنت قد قمت بهذه الرحلة عقب انفصالى عن « المساحة » بقليل ، ولما أزل على بعض الارتباط بالمستشار « كوتشيللى » ، الذى كان رئيسا لها . وقد حدث ـ بعد وقت قصير ـ أن رجانى مدير الجمارك أن أقوم بدور الاشبين لطفله . وكانت السيدة « دى كوتشيلى » هى الاشبينة ، فأدار هذا التكريم راسى ، وحاولت ـ وأنا مزهو بأن أغدو فى مكانة جد قريبة من مكانة السيد المستشار ـ أن أقوم بعمل ذى قيمة ، لأبدو جديرا بمثل هذا الشرف العظيم .. وانسياقا وراء هذه الفكرة ، لم أر أفضل من أن أطلعه على مذكرتى المطبوعة التى ألفها السيد « ميشيلى » ، والتى كانت ـ فى الحقيقة ـ تحفة نادرة ، كى أبرهن له على أننى أنتمى إلى علية القوم فى (جنيف)،

---

(١) مجلس المائتين .. يظهر أنه كان مجلسا نيابيا يضم ذوى المواهب فى جنيف ، بمثابة مجلس للنواب .

(٢) مجلس الشيوخ .

ممن كانوا يعرفون أسرار الدولة ! .. على أننى ـ بدافع من شىء من الحذر ، لم أكن أدرى مأتاه ـ لم أطلعه قط على رد خالى عن المذكرة ، ولعل ذلك كان راجعا إلى أن الرد كان بخط اليد ، وأنه لم يكن ليليق بمقام المستشار سوى كل مطبوع ! .. بيد أنه شعر بقيمة كبرى للوثيقة التى كنت من الغباء بحيث ائتمنته عليها ، فلم يقدر لى قط أن أسترجعها أو أن أراها ثانية .. حتى إذا أيقنت من عدم جدوى جهودى ، رأيت أن أستغل الأمر ، وأن أحول السرقة إلى هدية ! .. ولست ارتاب إطلاقا فى أنه قد أحسن استغلال هذه التحفة فى بلاط (تورين) ـ فقد كانت طريفة أكثر مما كانت نافعة ـ وأنه عنى ، بطريقة أو بأخرى ، بالحصول على مبلغ كبير من المال كان من الطبيعى أن يزعم أنه انفقه فى الحصول عليها ! .. ولما كان من أقل أحداث المستقبل احتمالا وامكانا ـ لحسن الحظ ـ أن يقدم ملك سردينيا يوما على حصار (جنيف) ، وإن لم يكن هذا الأمر مستحيلا ، فقد ظللت دائما ألوم غرورى الأحمق الذى جعلنى أكشف مواطن الضعف فى استحكامات المدينة ، لألد أعدائها !

***

وقضيت عامين أو ثلاثة على هذه الحال ، بين الموسيقى ، والحكام ، والمشروعات ، والرحلات .. أتنقل دائما من أمر إلى آخر ، وأنشد دائما الاستقرار دون أن أدرى فيم أستقر ، ولكنى كنت أتجه تدريجيا إلى الدراسة ، وألتقى برجال الأدب ، وأسمع الأحاديث الأدبية ، وأجرؤ ـ فى بعض الأحيان ـ على أن أخوضها أنا الآخر ، مقتبسا أسلوب الكتب بدلا من أن

استوعب محتوياتها ! وكنت أقوم بين آن وآخر ، أثناء رحلاتى إلى (جنيف) ، بزيارات عابرة لصديقى القديم السيد سيمون، الذى أذكى كثيرا تحمسى الوليد للأدب بتزويدى بأحدث الأنباء عن « دولته » ، وهى أنباء كان يأخذها عن « بابيه » أو عن « كولومبيه » . كذلك كثيرا ما كنت التقى فى (شامبيرى) بواحد من (اليعاقبة) كان أستاذا لعلوم الطبيعة، وراهبا صالحا. ولقد نسيت اسمه ، ولكنه كثيرا ما كان يقوم بتجارب صغيرة أثارت اهتمامى للغاية ، فوددت ان احذو حذوه فأصنع المداد العاطفى(١) . وللوصول إلى هذه الغاية ، ملأت زجاجة إلى ما فوق منتصفها بالجير الحى ، وبمادة مركبة من الزرنيخ والكبريت والماء ، ثم أحكمت سدادها . وبدأ التفاعل فى الحال ـ تقريبا ـ وبعنف شديد ، فأسرعت إلى الزجاجة لأزيل سدادتها ، ولكنى لم أصل فى الوقت المناسب ، فإذا بها تقفز فى وجهى وكأنها قنبلة .. وابتلعت الزرنيخ والحديد والجير ، فكدت أموت ! وقد مكثت أكثر من ستة أسابيع وأنا أعمى ، وأدركت من ذلك أننى يجب ألا أقحم نفسى فى تجارب العلوم الطبيعية، دون إلمام بالعناصر المستخدمة !

وقد ألحقت هذه المغامرة ضررا بصحتى ، التى كانت فى

---

(١) نوع من المداد يعرف عادة باسم « المداد السرى » ، ولعل « روسو » اسماه المداد العاطفى ، لانه كان يستخدم فى المراسلات الغرامية ، فما أن يجف حتى تبدو الورقة وكأنها خالية من الكتابة ، الى أن تعرض لحرارة اللهب فيبرز ما تحتويه !

انحدار محسوس منذ فترة من الزمن . ولست أدرى من أين جاءنى هذا الانهيار ، فقد كنت حسن البنيان ، ولم أكن أقدم على أى افراط ، من أى نوع ومع ذلك فإننى كنت أنهار بجلاء! ولقد كنت جيد التركيب ، عريض الصدر ، مما كان يتيح لرئتى فراغا كافيا كى تتحركا بسهولة .. ولكنى كنت ـ برغم ذلك ـ قصير الأنفاس ، وكنت أشعر بضيق ، وأرسل الزفرات دون إرادة منى . ولقد أصبت باضطراب فى القلب ، وأخذت أبصق دما ، واستولت على الحمى البطيئة التى لم تفارقنى تماما على الاطلاق .. فكيف يقع المرء فى مثل هذه الحال وهو فى زهرة العمر ، دون أن يكون ثمة أذى داخلى على الاطلاق ، ودون أن يكون قد فعل ما يقضى على صحته ؟

ويقال أحيانا ان السيف يبلى القراب . وهذه هى قصتى، فإن شهواتى قد أحيتنى ، وشهواتى قد أماتتنى !.. وقد يقال: أية شهوات ؟.. كانت توافه .. كانت أكثر أمور الدنيا انطباعا بالطابع الصبيانى ، ولكنها كانت تثيرنى كما كان خليقا أن يثيرنى الاستيلاء على هيلين(١) ، أو على عرش الكون !.. وكانت النساء فى مقدمة هذه المثيرات ! فكانت حواسى تحتفظ بهدوئها ، إذا ما ظفرت بواحدة ، ولكن قلبى لم يكن يعرف الهدوء قط !

---

(١) هيلين الطروادية : كانت أجمل نساء الاغريق ، وقد تزوجت من « منيلاوس » ، ملك أسبرطة .. ولكن باريس ـ أمير طروادة ـ اختطفها ، فشن أمراء اليونان حربا على طروادة دامت عشر سنوات ، وانتهت برد هيلين الى زوجها .

كانت مستلزمات الهوى تنهشنى وأنا فى غمرة اللذة . وكنت قد أوتيت أما حنونا ، وصديقة حبيبة ، غير أنه كان لا بد لى من عشيقة . وكنت أتمثل العشيقة المنشودة فى مكان « ماما » ، واصورها لنفسى فى ألف صورة ووضع، لكى أموه على نفسى! .. ولو أننى تذكرت ـــ وأنا أعانقها ـــ أننى إنما كنت أضم « ماما » بين ذراعى ، لما فترت حرارة عناقى ، ولكن كافة شهواتى كانت خليقة بأن تخبو ، وكنت أبكى وجدا ، ولا استمتع بلذة ! .. لذة ؟ .. أفخلق هذا الحظ ليكون من نصيب الإنسان ؟ .. آه ، لو أنه قدر لى يوما ـــ بل مرة واحدة فى حياتى ـــ أن أتذوق كل لذاذات الحب فى أوج تدفقها ، فإنى أعتقد أن كيانى الهش لم يكن ليقوى على الاحتمال .. كنت قمينا بأن أموت فى مكانى !

وهكذا كنت أكتوى بالحب ، دون ما هدف . ولعل هذه الحال هى أشد الحالات ارهاقا ! .. وكنت قلقا معذبا لسوء حال شئون « ماما » المسكينة ، ولتصرفاتها غير الحكيمة ، التى كان مآلها أن تقود إلى خرابها تماما ، فى وقت قصير . وكان خيالى القاسى ـــ الذى يسبق المصائب دائما ـــ يصور لى هذه المصيبة بالذات ، دون انقطاع ، وبكل مداها ، وبكافة نتائجها ! .. فرأيت نفسى ، مقدما ، مضطرا إلى أن افترق ـــ بحكم الفاقة ـــ عن تلك التى كرست لها حياتى ، والتى لم يكن بوسعى أن أستمتع بهذه الحياة، بدونها! .. وهكذا كنت دواما مضطرب النفس .. كانت الشهوات والمخاوف تنهشنى بالتناوب !

وكانت الموسيقى ـــ بالنسبة لى ـــ شهوة أخرى ، أقل عتوا ولكنها لم تكن أقل ارهاقا ، بفضل التحمس الذى ارتميت

به فى غمرتها ، وبفضل الدراسة الدائبة لكتب « رامو » المبهمة، وبفضل إصرارى العنيد على الرغبة فى أن أحشو بهما ذاكرتى التى كانت ترفضها دائما ، وبفضل الجرى المستمر(1) ، وبفضل تلك المجموعات الهائلة التى كنت أراكمها ، وكثيرا ما كنت أقضى ليالى بأسرها فى نسخها ..

ولكن، لماذا أقتصر على الشهوات الدائمة، فى حين أن كل النزوات التى كانت تمر بخاطرى دون انقطاع : الاهواء العابرة التى لا تمكث سوى يوم واحد ، كرحلة ، أو حفلة موسيقية ، أو مسرحية فكهة أحب أن أشهدها .. كل هذه الأشياء التى كانت أبعد ما فى الدنيا عن مسراتى وعن أعمالى ، أصبحت لدى بدورها بمثابة شهوات عديدة عنيفة ، كانت فى جيشانها المستهجن تسبب لى أصدق ألوان العذاب ! .. بل ان قراءة مصائب « كليفلاند » الخيالية ـــ وهى القراءة التى كنت اقبل عليها فى نهم ، والتى كثيرا ما كنت أعجز عن الاسترسال فيها ـــ كانت تثير اشجانى ، فيما أعتقد ، أكثر مما كانت تثيرها مصائبى !

وكان ثمة شخص من أبناء (جنيف) يدعى السيد «باجيريه»، عمل فترة فى خدمة بطرس الأكبر فى البلاط الروسى ، وقد كان من أعظم الأوغاد ، ومن أشد الحمقى الذين رأيتهم فى حياتى .. وكان دائما يفكر فى مشروعات تماثله حماقة ، فقد كان

(1) يقصد التنقل والترحال باستمرار.



واحتبست نفسى فى غرفتى ، ورحت أقضى الأيام والليالى فى السعى لتعلم كل الحركات الافتتاحية .

ينثر الملايين كالمطر ، ولم تكن الأصفار تكبده شيئا(١) .. وإذ جاء هذا الرجل إلى (شامبيرى) من أجل بعض قضايا كانت معروضة على مجلس الشيوخ ، فقد استولى على إرادة «ماما»، كما كان متوقعا . وفى مقابل كنوزه من الأصفار ـ التى كان يغدقها بسخاء ـ أخذ يبتز منها تلك الدنانير البائسة ، قطعة بعد قطعة ! .. ولم أحبه إطلاقا ، وقد أدرك هو ذلك ـ فما كان الأمر يوما بالمهمة العسيرة(٢) ـ فلم يدع نوعا من الخسة لم يستخدمه كى يتقرب إلى .. وآلى على نفسه أن يغرينى بتعلم الشطرنج ، برغم أنه كان لا يحذقه ! .. ولقد حاولت ذلك ، بالرغم من نفسى تقريبا . وبعد أن تعلمت الحركات فى غير ما اكتراث بما إذا كانت صوابا أو خطأ ، إذا بتقدمى يتزايد سريعا ، حتى أننى استطعت قبل نهاية الجلسة الأولى أن أرد إليه الهزيمة التى كان قد اذاقنيها فى البداية ! .. ولم أقنع بذلك، فقد شغفت بالشطرنج، وابتعت طاقما ، كما اشتريت « الكالابروا »(٣)، واحتبست نفسى فى غرفتى ، ورحت أقضى الأيام والليالى فى السعى لتعلم كل الحركات الافتتاحية عن ظهر قلب ، وحشو رأسى بها طوعا أو كراهية ، وأنا ألعب وحيدا ،

---

(١) يقصد أن الرجل كان يدعى الثراء وهو لا يملك شيئا .

(٢) يريد « روسو » بذلك أن عرفان عواطفه وما يجول بنفسه ، لم يكن بالمهمة العسيرة على أى شخص .

(٣) « الكالابروا » رسالة فى الشطرنج ، وضعها لاعب ايطالى ماهر كان يدعى « جيواكينو جريكو » ، عاش فى عهد لويس الرابع عشر .

دون ما هوادة ولا نهاية ! .. وبعد شهرين أو ثلاثة من هـــذا
العمل الشاق ، والجهود التى تفوق الخيال ، ذهبت إلى المقهى
وأنا واهن ، شاحب ، متلبد الذهن تقريبا . وقمت بتجربة ،
فلعبت مرة أخرى مع السيد « باجيريه » .. وهزمنى مرة ،
فاثنتين ، فعشرين مرة ، فقد اختلطت كثير من الترتيبات المختلفة
فى رأسى ، كما كان خيالى بالغ الوهن ، حتى أننى لم أعد أرى
أمامى سوى سحابة غائمة ! .. وفى كل مرة حاولت فيها أن
أتدرب لحفظ الحركات بمعونة كتاب « فيليدور » أو كتاب
« ستاما » ، كان يحدث لى عين الشىء .. وبعد أن أنهك
قواى ، أجد نفسى أشد ضعفا من ذى قبـل . وسواء كنت
قد هجرت الشطرنج ، أو أننى وجدت فى لعبه متنفسـا لى ،
فاننى لم أحرز أبدا أى تقدم منذ تلك الجلسة الأولى ، حتى
أنى لأجد نفسى دائما حيث انتهيت إذ ذاك ، ولو أننى تدربت
آلاف القرون لما انتهيت إلا إلى اعطاء « باجيريه » الدور ،
فحسب ! .. وقد تقول : هكذا يستغل الوقت على أحســن
وجه ! .. والحق أن الوقت الذى أنفقته فى ذلك لم يكن قليلا ،
وما كففت عن المحاولة الأولى إلا عندما لم تعد لدى طاقة على
الاستمرار .. وعندما ظهرت خارج غرفتى ، كنت أبدو كشخص
خارج من قبر . ولو أننى استمررت على النهج ذاته، لما ظللت
« خارجا من القبر » طويلا(١) ! وإن المرء ليقر بأن من العسير

(١) يقصد أنه كان خليقا بأن يلازم القبر .. أى يموت .

ـ لا سيما فى تحمس الشباب ـ أن يدع مثل هذا الرأس جسد
صاحبه فى صحة !

ولقد أثر تداعى صحتى على طبعى ، كما هدأ من حمية
خيالى . فما أن شعرت بضعفى حتى ازددت هدوءا ، وفقدت
بعض شغفى بالأسفار . وإذ ازددت استقرارا ، تعرضت
لا للملل ، وإنما للأسى والسوداء ، فإذا التهوس يحل محل
الشهوات والعواطف المشبوبة، وإذا ذبولى ينقلب حزنا واكتئابا،
وأصبحت أبكى وأتنهد دون ما سبب ، وشعرت بأن الحياة
تفلت منى دون أن أكون قد تذوقتها ، وأخذت أتحسر على
الحال التى سأترك « ماما » البائسة فيها ، وعلى الحال التى
كنت أراها موشكة على التردى فيها .. وبوسعى أن أقول أن
فراقها وتركها فى مسغبة كان مصدر أساى الوحيد ! ..
وأخيرا ، سقطت مريضا حقا ، فراحت تعنى بى كما لم تعن
أم بطفلها ، وقد كان فى هذا خير لها هى الأخرى ، إذ حولها عن
المشروعات، وصرفها عن أصحاب المشروعات .. ما كان أعذب
الموت لو أنه جاء إذ ذاك ! .. وإذا لم أكن قد استمتعت بكثير
من نعم الحياة ، فاننى لم أشعر إلا بقليل من محنها . وكانت
روحى الوادعة خليقة بأن ترحل دون الشعور القاسى بظلم
الناس .. الشعور الذى يسمم الحياة والموت ... وكنت أجد

العزاء فى أننى كنت أحيا فى النصف الأفضل من نفسى[1] ، وهذا لا يكاد يعتبر موتا ! ولولا القلق الذى كنت أستشعره إزاء حظها ، لقضيت نحبى وكأننى أستسلم للنعاس .. بل إن هواجسى كانت ذات غاية رقيقة لطيفة ، خففت من مرارتها .. ولقد قلت لها يوما ، « إن كل كيانى بين يديك ، فاسعديه !» .. وحدث فى مرتين أو ثلاث ـ عند ما كنت فى أسوأ حال ـ أن نهضت فى الليل ، وجررت نفسى إلى غرفتها ، لكى أقدم لها نصائح بصدد تصرفاتها .. نصائح أجرؤ على القول بأنها كانت عادلة وحكيمة ، ولكن اهتمامى بمصير « ماما » كان يغلب فى هذه النصائح على كل شىء آخر .. وكأنما كانت الدموع غذائى ودوائى ، فقد كنت أستمد قوة من تلك الدموع التى كنت أذرفها فى قربها ، وأنا معها ، جالسا على سريرها ، ممسكا بيديها بين يدى . وكانت الساعات تنصرم ونحن مستغرقان فى هذه الأحاديث الليلية ، ثم أعود إلى غرفتى وأنا أحسن حالا مما كنت حين بارحتها ، وقد اغتبطت واطمأننت للوعود التى عاهدتنى عليها ، والآمال التى بثتها فى نفسى .. وإذ ذاك ، كنت أنام بقلب مطمئن ، وبثقة فى العناية الإلهية . إننى لأدعو الله ـ بعد أن تعرضت لكثير من الأسباب التى تدعو إلى كراهية الحياة وبعد كثير من العواصف التى هزت حياتى وجعلتها

---

(1) نصفه الأفضل هى مدام دى فاران !

مجرد عبء ـ أن يكون الموت الذى قدر له أن يختم هذه الحياة ، أقل قسوة مما كان فى تلك اللحظة !

وبفضل العناية ، والسهر ، والضنى الذى يفوق التصور ، استطاعت « ماما » أن تنقذنى ، ومن المحقق أنها الشخص الوحيد الذى كان بوسعه إنقاذى . فقد كان إيمانى ضعيفا بدواء الأطباء ، ولكننى أوتيت إيمانا عارما بدواء الأصدقاء الصادقين . والأشياء التى يتوقف عليها هناؤنا ، تفضل كثيرا كافة الأشياء الأخرى ! .. وإذا كانت فى الحياة عاطفة مستعذبة ، فإنما هى تلك التى استشعرناها إذ عاد كل منا إلى الآخر . ولم يزدد شغفنا المتبادل ـ فما كان من الممكن أن يزداد ـ ولكنه اتخذ مزيدا من الألفة ، لا أدرى كيف أشرحه .. وغدا ، فى بساطته الصافية ، أشد تأثيرا ! .. وهكذا أصبحت بكل كيانى صنع يديها . أصبحت ابنها تماما ، بل وأكثر مما لو أنها كانت أمى حقا ! .. ودون ما تفكير أو قصد ، لم نعد نفترق ، بل بدأنا ندمج كياننا فى وجود مشترك ، وداخلنا شعور مشترك بأن كلا منا لم يكن لازما للآخر فحسب ، وإنما كان فيه الكفاية والغناء له عن سواه .. فعودنا نفسينا على ألا نفكر فى أى شىء غريب عنا ، وعلى أن نقصر سعادتنا وكل شهواتنا قصرا تاما على ذلك « الاقتناء » المتبادل[1] ، الذى أحسبه كان

---

(1) يقصد بالاقتناء المتبادل ، العلاقة الجنسية الكاملة بينه وبين مدام دى فاران .

فريدا فى نوعه بين البشر ، والذى لم يكن ـ كما قلت ـ صادرا عن هوى فحسب ، وإنما كان اقتناء أكثر واقعية من المألوف . . كان ـ دون ما استناد إلى الأحاسيس أو الجنس أو السن أو المظهر ـ يرتبط بكل مقومات شخصية الفرد !

ترى كيف قدر لهذه المحنة ألا تجتلب السعادة إلى حياتنا ، حتى آخر أيام « ماما » وأيامى ؟ . . لم يكن هذا ذنبى ، ولدى من الدليل ما يعزينى ! . . كذلك لم يكن ذنبها هى ، أو لم يكن بإرادتها ، على الأقل ! . . فلقد كتب للطبيعة التى لا تلين ، أن تفرض سلطانها[1] سريعا . على أن هذه النكسة المشئومة لم تكن مفاجئة ، بل كانت ثمة مهلة ، والحمد للسماء ! . . كانت ثمة فترة قصيرة ، وغالية ، لم تنته نتيجة ذنب منى ، ولست ألوم نفسى أو اتهمها بإساءة استغلالها !

ذلك أننى ـ وإن كنت قد شفيت من مرضى الخطير ـ إلا أننى لم استعد قط قواى . فما عادت لصدرى عافيته ، وإنما لازمتنى دائما بقية من الحمى ، جعلتنى فى ذبول وكلل . فلم أعد أصبوا إلى شىء سوى أن انفق أيامى إلى جوار تلك التى كانت عزيزة لدى ، وأن أعضدها فى نواياها الطيبة ، وأن أمكنها

(1) يرمى « روسو » بهذا الى أن حكم الطبيعة ـ ممثلا فى الضعف الذى أصاب صحته ـ هو الذى فرض عليه وعلى مدام دى فاران الا يستمرا فى سعادتهما الى نهاية عمريهما .

من أن تحس بما للحياة الهائئة من سحر حقيقى ، وأن أجعل حياتها على هذه الشاكلة ، فيما يتوقف على . بيد اننى رأيت ـ بل شعرت ـ أن العزلة المستمرة التى كانت تجمعنا فى بيت معتم كئيب ، لن تلبث أن تتسم هى الأخرى بطابع حزين ! ولاح لنا علاج ذلك ، وكأنه قفز من تلقاء نفسه ، حين أوصتنى « ماما » باللبن ، ورغبت فى أن أذهب إلى الريف لأتناوله هناك . ووافقتها على شريطة أن تذهب معى . وكان هذا كافيا لأن تعقد عزمها ، ولم يبق سوى أن نختار المكان . ولم يكن البستان القائم فى الضاحية ، من الريف تماما . . إذ أنه ـ لوقوعه بين منازل وبساتين أخرى ـ لم يؤت فتنة المكان الريفى الملائم للاستجمام . . فضلا عن أننا ـ عقب موت « آنيه » ـ تخلينا عن البستان رغبة فى الاقتصاد ، إذ لم يعد يراودنا الشوق الا نباتاته النادرة ، كما أن ثمة اعتبارات أخرى حملتنا على أن نأسف على فقد هذا المعزل !

وانتهزت ـ إذ ذاك ـ فرصة الشعور بالملل الذى لمسته عندها نحو المدينة ، فاقترحت عليها أن تهجرها نهائيا ، وان نستقر معا فى عزلة مستحبة ، فى دار صغيرة على بعد كاف لأن يصد المتطفلين ! ولقد كانت على استعداد لأن تفعل ، وكان هذا الاقتراح الذى الهمنى إياه ملاكها الحارس وملاكى ، كفيلا بأن يضمن لنا ـ حقا ـ أياما سعيدة هادئة ، حتى اللحظة التى يفرق فيها الموت بيننا . ولكن هذا لم يكن الحظ الذى قدر

لنا ، فقد كتب على « ماما » أن تبتلى بكل بلايا الفاقة وسوء الحال ـ بعد أن قضت عمرها فى الرخاء ـ حتى تغادر الدنيا وهى غير آسفة عليها .. أما أنا ، فقد كتب على أن أعانى التعاسات ـ من كل نوع ـ كى أصبح يوما مثالا للمرء الذى لا يحدوه سوى حب الصالح العام والعدالة ، بحيث يجرؤ ـ وهو غير مسلح بغير براءته وحدها ـ على أن يقول الحقيقة للناس جهارا ، دون مؤازرة الأنصار ، ودون أن يؤلف حزبا لحمايته !

ولقد عمل هاجس تعس على استبقاء « ماما » ، فلم تجرؤ على أن تهجر بيتها الحقير ، خوفا من أن تغضب مالكه . وقالت لى : « إن فكرة العزلة التى تقترحها بديعة ، وإنها لتروق لى ، ولكن لابد من تدبير أسباب العيش ، حتى فى العزلة . وإنى لأتعرض ـ بمبارحة سجنى ـ لأن أفقد مصدر عيشى ، فإذا لم يعد لدينا خبز فى الغابات ، أصبح من المحتوم علينا أن نعود إلى المدينة بحثا عنه . ولكى نقلل من حاجتنا إلى العودة ، يجب ألا نهجر المدينة نهائيا .. فلندفع هذا الايجار البسيط للكونت دى سان لوران ، حتى يدع لى معاشى[1] ، ولنبحث عن مأوى

(١) ذكر « روسو » من قبل أن « سان لوران » كان مشرفا على الشئون المالية لبلاط ملك سردينيا ، وأن مدام دى فاران لم تطمئن الى استمرار معاشها الا بعد أن استأجرت منه ذلك البيت الحقير ، فاكتسبت بذلك وده.

منعزل بعيد عن المدينة بدرجة تمكننا من العيش فى دعة ، وقريب منها بحيث نستطيع أن نعود إليها فى الحال ، إذا ما دعت الضرورة » .. وهذا ما جرى ، فبعد بحث قصير ، استقر بنا المقام فى (شارميت)، وهى ضيعة كان يمتلكها السيد دى كونزيه، على مشارف (شامبيرى) ، ولكنها منعزلة وغير مطروقة ، حتى لكأنها تقع على مائة فرسخ منها .. فبين تلين مرتفعين ، يمتد ـ شمالا وجنوبا ـ واد صغير ، يجرى فى أسفله جدول، تحف به الصخور والأشجار . وعلى أحد الجانبين ـ بطول هذا الوادى ـ بضعة بيوت متناثرة ، تناسب كل المناسبة اى امرىء يهفو إلى مأوى خلوى منعزل . وبعد أن تفرجنا على بيتين أو ثلاثة ـ من هذه البيوت ـ اخترنا فى النهاية أبدعها ، وكان ملكا لسيد فى خدمة الحكومة يدعى السيد « نواريه » . وكان البيت جد ملائم للسكنى ، تقوم أمامه حديقة مرتفعة عن سطح الأرض ، تعلوها كرمة ، ويمتد تحتها بستان ، وفى مواجهتها غابة من أشجار البلوط ، ونبع قريب . وعلى مرتفع من الجبل ، مروج لرعى الأنعام . ومجمل القول ، توفرت فيه كل مستلزمات الأسرة الريفية الصغيرة التى كنا نعتزم إيواءها هناك . وبقدر ما أستطيع أن أتذكر الأزمان والتواريخ ، تسلمنا البيت حوالى نهاية صيف سنة ١٧٣٦ . ولقد طربت فى أول ليلة قضيناها هناك ، فقلت لصاحبتى العزيزة وأنا أعانقها واغرقها بدموع الحب والابتهاج : « أواه ، يا ماما ! .. إن هذا

المقر لهو وكر الهناء والبراءة .. فإذا لم نجدهما هنـا ـ وكل منا مع الآخـر ـ فليس لنا أن نرجو العثور عليهمـا فى أى مكان ! »(١) .

---

(١) فى أوائل القرن التاسع عشر ، آل هذا البيت ـ الذى أقام فيه روسو ومدام دى فاران ـ الى كاتب كانت له مؤلفات أدبية وعلمية ، وقد أصدر فى سنة ١٨١٧ كتيبا عن (شارميت) ، سجل فيه كل صغيرة وكبيرة من أوصاف هذا البيت الذى اعتاد السياح أن يترددوا عليه . وقد ثبتت الى جدار المنزل ـ بقرب مدخله ـ لوحة حجرية أمر بوضعها « هيرلو سيشيل » فى سنة ١٧٩٢ ـ عندما كان حاكما للمنطقة ـ وقد نقشت عليها أبيات شعرية للذكرى ، هذا معناها :

« أيها المأوى الذى شغله جان جاك .. انك لتذكرنى بعبقريته ، وبحبه للعزلة ، وبتحمسه وحميته .. وبمصائبه وطيشه .. لقد جرؤ على أن يكرس حياته للمجد والحقيقة .. وكان دائما مضطهدا ، اما بنفسه واما بالحاسدين» !

الكراسة السادسة

سنة ١٧٣٦

« هاك كل ما كنت أتمنى : قطعة أرض غير شاسعة ،
« وحديقة ، ونبع ماء فياض بقرب الدار ،
« وإلى جانب هذا .. غابة صغيرة .. »

ولم أستطع قط أن أضيف إلى هذا :

« لقد حبتنى الآلهة .. بأكثر مما اشتهيت »(١)

ولكن لا بأس ، فما كنت بحاجة إلى أكثر من ذلك ، بل إننى لم أكن بحاجة إلى أن امتلك هذه الأشياء ، وإنمـا كان يكفينى أن أستمتع بها ! .. ولقد قلت ـ وشعرت ـ منذ أجل طويل، أن المالك والمنتفع كثيرا ما يكونان شخصين جد مختلفين، حتى إذا أقصينا الأزواج والعشاق عن المقارنة !

هنا يبدأ هناء حياتى القصير ، وهنا أقبلت اللحظـات الوادعة ـ وإن كانت وجيزة ـ التى أباحت لى الحق فى أن أقول: « إننى عشت » ! .. أيتها اللحظات الغالية ، التى آسى عليها كل الأسى .. إلا ابدئى من جديد ـ من أجلى ـ سريانك الحبيب ، وتتابعى فى ذاكرتى أكثر بطئا مما كنت فى فرارك فى

---

(١) هذه الأبيات من أشعار « هوراس » ، وقد أوردها « روسو » باللاتينية ، وعلق عليها بالسطر الذى قطع به تتابعها .

الواقع ، إذا كان هذا ممكنا ! .. كيف لى بأن أطيل ــ كما أشاء ــ هذا الحديث المؤثر ، الساذج ، فأردد نفس الأقوال دائما ، دون أن أبعث فى نفوس قرائى ــ بتكرارها ــ سأما ، اللهم إلا إذا سئمت أنا نفسى العود إلى ترديدها دون انقطاع ! .. كذلك ، ليت كل هذا يتألف من وقائع ، ومن أعمال ، ومن أقوال أستطيع أن أصفها وأن أردها إلى الحياة بطريقة ما ، ولكن .. كيف لى أن أقول ما لم يقل ، ولم يفعل ، ولم يطف بخاطر ، ولكنه استمرىء ، بل استشعر ــ ولست أملك أن أبين أى سبب آخر لهنائى سوى هذا الشعور البسيط ؟ .. كنت أستيقظ مع الشمس ، وأنا سعيد .. فأتمشى ، وأنا سعيد .. وأرى « ماما » ، وأنا سعيد .. وأفارقها ، وأنا سعيد .. وأهيم فى الغابات والربى ، وأرتاد الوديان ، وأقرأ ، وأقعد عن العمل ، وأفلح الحديقة ، وأجنى الزهور ، وأساعد فى أعمال البيت .. والهناء يتبعنى فى كل مكان .. لم يكن ينحصر فى شىء معين ، وإنما كان يشيع فى كل كيانى ، ولم يكن يفارقنى لحظة واحدة !

ما من شىء جرى لى أثناء تلك الفترة الحبيبة ، ولا من شىء فعلته أو قلته أو فكرت فيه إبانها ، إلا بقى فلم يتسرب من ذاكرتى . ان الأوقات التى سبقته ، والأوقات التى لحقته ، لا توافى ذهنى إلا بين آن وآخر ، فأذكرها دون تمييز ، وفى تخبط .. ولكنى أذكر هذه الفترة بأسرها ، وكأنها ما تزال باقية ! إن خيالى الذى كان يتطلع دائما إلى الأمام ــ فى شبابى ــ والذى أصبح اليوم يلتفت إلى الوراء ، يعوضنى بهاتين الذكريين

الفاتنتين عن الرجاء الذى فقدته إلى الأبد ! فاننى لم أعد أرى فى المستقبل ما يستهوينى ، بل إن رجعات الماضى وحدها هى التى تستطيع أن تهفو بعواطفى .. وهذه الذكريات تمتاز ــ فى الفترة التى أتحدث عنها ــ بأنها بالغة الحيوية والصدق ، حتى أنها كثيرا ما تجعلنى أحيا سعيدا ، برغم بؤسى وسوء حظى !

وانى لأقدم من هذه الذكريات مثالا واحدا يمكن من الحكم على وضوحها وصدقها : ففى أول يوم ذهبنا فيه كى نبيت فى (شارميت) ، كانت « ماما » فى محفة محمولة على الأكتاف ، بينما تبعتها على قدمى . وكان الطريق صاعدا ، وهى ثقيلة الوزن ــ بعض الشىء ــ فخشيت أن تضاعف من إنهاك قوى الحمالين ، ورغبت فى أن تهبط فى منتصف الطريق تقريبا ، لتقطع ما تبقى منه على قدميها . وفيما كانت تسير ، رأيت شيئا أزرق فى الحسك[1] ، فقالت لى : « ها هو القضاب[2] لا يزال مزهرا ! . ولم أكن قد رأيت القضاب قط ، ومع ذلك فاننى لم أنحن لفحصه ، وكنت قصير النظر بدرجة لا تمكننى من أن أتبين النباتات التى على الأرض ، إذا كنت أقف منتصب القامة . واكتفيت بأن ألقيت نظرة على ذلك النبات ، وأنا أمر به .. ولقد مرت ثلاثون سنة تقريبا، قبل أن أرى أى قضاب ــ مرة أخرى ــ أو ألقى إليه بالا . وفى سنة ١٧٦٤ ، كنت فى (كريسييه) مع صديقى السيد « دى بييرو » ، فتسلقنا جبلا صغيرا تقوم

---

(١) الأعشاب الشوكية التى تحف بالطريق .

(٢) نوع من النبات البرى .



على قمته استراحة (صالون) بديعة ، تسمى بحق « بيلفى »
ـ المنظر الجميل ـ وكنت قد بدأت إذ ذاك أهوى دراسة
الأعشاب ، بعض الشىء . وفيما كنا نصعد ، ونحن نتأمل
الأدغال ، إذا بى أطلق صيحة جذلانة : « آه ! .. ها هو ذا
القضاب ! » .. وكان ذلك حقا . ولاحظ « دى بيرو » فرحى،
ولكنه جهل سببه . ولسوف يعرفه ، إذ أننى أرجو ان يقرأ
يوما ما كتبت هنا . وبوسع القارىء أن يحكم ـ من الأثر الذى
أحدثته فى نفسى مناسبة تافهة كهذه ـ على مدى التأثير الذى
يحدثه كل ما يمت إلى تلك الفترة !

* * *

على أن جو الريف لم يرد إلى صحتى السابقة إطلاقا .
فلقد كنت ذابلا ، وقد ازدادت حالى سوءا ، ولم أعد أطيق اللبن،
فلم يكن ثمة بد من التحول عنه . وكان الماء هو العلاج الشائع
ـ إذ ذاك ـ لكل داء ، فأقبلت على الماء فى غير ما حكمة ، حتى
انه كاد يشفينى ، لا من عللى ، وإنما من حياتى(١) ! .. ففى
كل صباح ، كنت أذهب ـ عندما أستيقظ ـ إلى النبع ، حاملا
وعاء كبيرا . وهناك ، كنت أشرب على التعاقب ـ وأنا أتمشى ـ
ما يعادل ملء زجاجتين . وتحولت نهائيا عن تناول النبيذ فى
وجباتى . وكان الماء الذى اعتدت شربه عسر الهضم قليلا ،

(١) هذا هو نص تعبير « روسو » . ومن الطريف أن كلمة « يشفى »
ـ فى العربية ـ تعنى « يبرىء » ، كما تعنى « يهلك » . وهو عين ما أراده
« روسو » !

شأن معظم مياه الجبال .. وموجز القول أننى ظللت على نهجى،
حتى أننى ـ فى أقل من شهرين ـ أتلفت تماما معدتى التى
كنت احتفظ بها حتى ذلك الوقت فى خير حال ! وإذ لم تعد
تهضم ، أدركت أننى لا ينبغى أن أرجو لها شفاء .. وفى ذلك
الحين بالذات ، وقع لى حادث كان فريدا فى نوعه وفى عواقبه
التى لن تنتهى إلا بانتهاء حياتى !

ففى ذات صباح لم أكن فيه أسوأ حالا من المعتاد ، كنت
أرفع مائدة صغيرة على قوائمها ، وإذا بى أشعر باضطراب حاد
ـ لا يكاد يبدو له سبب ـ فى جميع جسمى . ولست أجد له
تشبيها أفضل من أنه كان مثل نوع من عاصفة هبت فى دمى ،
وانتشرت لتوها فى كل أعضاء جسمى ! وأخذت عروقى تنبض
بقوة هائلة ، حتى أننى لم أشعر بنبضها فحسب ، وإنما
سمعته ، لا سيما نبض الشرايين السباتية . وقد صحب ذلك
ضوضاء هائلة فى أذنى ، وكانت هذه الضوضاء مؤلفة من ثلاثة
أو أربعة أنواع : طنين قوى مكتوم ، وخرير واضح كأنه ينبعث
من ماء جار ، وصفير حاد جدا ، ثم النبضات التى ذكرتها ،
والتى كان بوسعى أن أعد دقاتها دون ان أجس نبضى أو أمس
جسمى بيدى ! وكان هذا الصخب الداخلى من الضخامة بحيث
أنه حرمنى من إرهاق السمع الذى كان لدى قبل ذلك ، وجعلنى
ثقيل السمع ـ لا أصم تماما ـ كما هو شأنى منذ ذلك الحين!

وفى الوسع تقدير دهشتى وانزعاجى ، فقد خيل إلى أننى
أموت ، ولزمت سريرى ، واستدعى الطبيب فرويت له حالى
وأنا أرتجف ، إذ كنت أعتبرها بلا علاج ! واعتقد أنه تاركنى

هذا الراى ، ولكنه قام بما تحتمه عليه مهنته ، وراح يسرد على
تعليلات طويلة لم افقه منها شيئا البتة ، ثم عمد — تمشيا مع
نظريته الرفيعــة الشأن — إلى إجراء « تجــارب على كائنات
حية »(١) ، وهو العلاج التجريبى الذى طاب له أن يجربه معى،
وكان جد اليم ، ومثير ، وقليل المفعول ، حتى أننى سرعان
ما تحولت عنه .. وبعد بضعة أسابيع ، رأيت أننى لم أتحسن،
ولا ازددت سوءا ، فغادرت فراشى ، واستأنفت حياتى العادية،
مع استمرار نبض عروقى وطنين أذنى ، اللذين لم يفارقانى
دقيقة واحدة ، منذ ذلك الحين .. اى منذ ثلاثين عاما !

وكنت حتى ذاك الوقت كثير النوم ، فإذا الحرمان التام من
النوم — الذى رافق كل هذه الأعراض ، والذى ظل يلازمها
باستمرار حتى الآن — انتهى إلى إقناعى بأنه لم يبق أمامى
اجل طويل فى الحياة . وقد هدأ هــذا الاقتناع من اهتمــامى
بالشفاء ، فترة من الزمن . وإذ رأيت أن ليس بوسعى أن أطيل
من حياتى ، فقد اعتزمت أن أفيد بأكبر شطر ممكن مما تبقى
لى من العمر . وهذا ما تسنى لى بفضل صنيع فذ أسدته لى
الطبيعــة ، إذ أعفتنى — فى مثل هذه الحال المشئومة — من
الآلام التى يبدو أنها كانت قمينة بأن تنتابنى . كنت أتضــايق
من هذه الضوضاء فى أذنى ، ولكنى لم أكن أعانى منها ، كما أنها
لم تكن مصحوبة بأية مضايقات مستمرة أخرى ، اللهم إلا الأرق

(١) IN ANIMAL VILI اصطلاح يطلق على التجارب العلمية التى تجرى عادة على الحيوانات .

فى أثناء الليل ، وبضيق دائم فى التنفس ، لم يكن ليرقى إلى درجة
الربو ، ولا كان يبدو محسوسا إلا عندما أحاول الجرى ، أو
أرهق نفسى فى العمل أكثر مما ينبغى قليلا .

هذا الحادث — الذى كان خليقا بأن يقتل بدنى — لم يقتل
سوى شهواتى ، وانى لأبارك السماء فى كل يوم لهذا الأثر السعيد
الذى أحدثه فى نفسى . وأستطيع أن أقول إننى لم أبدا العيش
إلا حين اعتبرت نفسى رجلا ميتا ! . وبينما رحت أقدر الأشياء
— التى كنت مزمعا أن أتخلى عنها — بقيمتها الحقيقية ، شرعت
أشغل بالى بأمور أسمى وأنبل ، وكأنما كنت أريد أن أستبق
الزمن إلى تلك الأمور التى كان ينبغى أن أبادر إلى أدائها، والتى
كنت قد أهملتها — حتى ذاك الحين — إهمالا شــنيعا . كنت
كثيرا ما أمسخ الدين وفقا لهواى ، ولكننى لم أكن قط بلا دين
على الاطلاق . ولم يكن يكبدنى شيئا أن أعود إلى هذا الموضوع
الكئيب بالنسبة لكثير من الناس ، ولكنه لطيف بالنسبة لامرىء
ينشد فيه مادة للأمل والعزاء .. وكانت « ماما » — فى هــذا
الصدد — أكثر نفعا لى من كل رجال الدين قاطبة ! .. فلم
تغفل — وهى التى اعتادت أن تضع لكل شىء نهجا خاصا —
عن أن تطبق هذا على الدين كذلك . وكان منهجها يتألف من أفكار
جد متباينة ومفككة : بعضها معقول للغاية ، والأخرى طائشة
جدا .. ومن مشاعر مرتبطة بشخصيتها ، ومن أفكار قديمة
نبعت من تربيتها . فالقاعدة أن المؤمنين يتمثلون الله على ضوء
أنفسهم ، فالطيبون يتمثلونه طيبا ، والخبيثون يتمثلونه خبيثا ..
والمؤمنون الحقودون والمتشائمون ، لا يرون سوى الجحيم ،
لأنهم يبتغون النقمة للدنيا بأسرها .. أما النفوس المحبة

والوادعة ، فإنها لا تخشى الجحيم إطلاقا ! .. ومن المدهشات التى لم يقدر لى أن أتغلب عليها قط ، أن رأيت « فينيلون » الطيب(١) يتحدث عن ذلك فى مؤلفه « تيليماك » ، وكأنه كان يؤمن به حق الإيمان ! .. على أننى أرجو أن يكون قد لجأ ـ إذ ذاك ـ إلى الكذب .. إذ إنه لا بد للمرء ، بالرغم من كل اعتبار ، من أن يكذب أحيانا ، إذا ما كان أسقفا ! ـ وهذه حقيقة يعرفها الجميع ! ـ أما « ماما » ، فلم تكذب على . كانت هذه النفس المنزهة عن الغرض ، لا تقوى على أن تتصور الها منتقما دائم السخط ، وما كانت لترى فى الله سوى الرحمة والشفقة ، فى حين أن الأتقياء لا يرون فيه سوى القصاص والعقاب . وكثيرا ما كانت تقول لى أنه ليس من العدالة فى شىء أن ينشد الله القصاص منا ، لأنه لم يمنحنا ما يلزم لكى نكون كما يبغى ، ومن ثم فإن القصاص يكون بمثابة مطالبتنا بأكثر مما منحنا ! .. والغريب فى الأمر ، أنها ـ برغم عدم إيمانها بالجحيم ـ لم تتخل قط عن إيمانها بالمطهر(٢) ، وقد تأتى هذا عن أنها لم تكن تدرى ما تفعله بالنفوس الشريرة ، فما كانت تملك أن تدمغها بالشر ، ولا كانت تملك أن تسلكها فى الصالحين ريثما تغدو صالحة فعلا .. ولا بد فى الواقع من الاعتراف ـ سواء فى هذه الدنيا أو فى الآخرة ـ بأن الأشرار مصدر حيرة دائما !

---

(١) Fénelon, Télémaque.

(٢) المطهر فى المعتقدات الدينية ، هو الطريق الذى يفضى من النار الى الجنة ، ويقضى فيه البشر ـ عقب الموت مباشرة ـ مدة للتكفير عن خطاياهم ، قبل ان يصبحوا أهلا لدخول الجنة !

وهناك أمر غريب آخر ، فمن الواضح أن نظرية الخطيئة الكبرى والتكفير ، تنهار بفضل هذا النهج ، حتى أن أساس المسيحية الشائعة ليهتز ، وحتى أن الكاثوليكية لا تعود قادرة على أن تظل قائمة . ومع ذلك فقد كانت « ماما » كاثوليكية صالحة ، أو كانت تجهر بذلك ، ومن المؤكد أنها كانت تصدر فى جهرها عن إيمان جد صحيح . وكان يبدو لها أن الناس اعتادوا أن يفسروا الكتاب المقدس فى حرفية وتزمت أكثر مما ينبغى . وكان يلوح لها أن كل ما يقرأ عن العذاب الأبدى يجب أن يؤخذ على أنه وعيد أو مجاز وكناية .. وكان موت المسيح يتراءى لها مثالا للخير القدسى ، يرشد الناس إلى أن يحبوا الله وأن يتحابوا فيما بينهم على غراره ! .. وموجز القول ، أنها كانت وفية للديانة التى اعتنقتها ، وقد تقبلت فى إخلاص كل مقررات العقيدة .. غير أنه كان يبدو منها ـ إذا ما نوقشت فى كل مادة على حدة ـ أن عقيدتها تختلف تماما عن الكنيسة التى كانت تقر لها بالولاء دائما .. ولقد أوتيت ـ فوق ذلك ـ سذاجة قلب ، وصراحة أكثر تأثيرا من أى رياء . وكثيرا ما كانت هذه الصراحة تحير الناس ، حتى الراهب الذى اعتاد أن يتلقى اعترافاتها ، والذى لم تكن تخفى عنه شيئا ، فقد اعتادت أن تقول له : « إننى كاثوليكية صالحة ، وأود أن أكون دائما كذلك .. وانى لأعتنق ـ بكل طاقة نفسى ـ مقررات أمنا الكنيسة المقدسة ، على أننى لا أتحكم فى إيمانى ، وإن كنت أتحكم فى إرادتى ، فأسيطر عليها دون ما تحفظ . وانى لراغبة فى أن أؤمن كل الإيمان . فبماذا تطالبنى فوق هذا ؟ »

وإنى لأعتقد بأنها كانت خليقة بأن تتبع القانون الخلقى المسيحى ــ ولو لم يكن يوجد ثمة قانون خلقى مسيحى ــ لأن مبادئه تتمشى تماما مع أخلاقها . وكانت تفعل كل ما يأمر به ، لكنها كانت قمينة بأن تفعله ولو لم تؤمر به ! .. وكانت تحب أن تبدى طاعتها فى الأمور غير المهمة : فمثلا لو كان أكل اللحوم مباحا ــ بل لو أنه كان مفروضا ــ فى أيام الصوم ، لصامت عنه فيما بينها وبين الله، دون أية حاجة لمراعاة الاعتبارات التى تمليها الحكمة . ولكن هذه القواعد الخلقية كانت تتبع دائما مبادىء السيد « دى تافيل »(١)، أو بالأحرى كانت « ماما » تدعى أنها لا ترى تناقضا بينها ، فكانت على استعداد لأن تضاجع عشرين رجلا ــ فى كل يوم ــ وهى مطمئنة الضمير ، دون أن يكون لها هم سوى إرضاء الشهوة . وإنى لأعرف أن كثيرات من المتدينات لسن أكثر منها ترددا فى هذه الناحية ، ولكن الفارق بينها وبينهن هو انهن ينسقن إلى الغواية بفضل شهواتهن ، فى حين أنها تنساق بفضل فلسفتها السفسطائية ! .. ولقد كانت فى أثناء أكثر الأحاديث العاطفية تأثيرا ــ بل وأجرؤ على أن أقول : أكثر الأحاديث التهذيبية عبرة ــ تنساق إلى هذا الموضوع ، فلا تتغير هيأتها ، ولا تتغير لهجتها ، ولا يخطر ببالها أنها تناقض نفسها. بل إنها كانت تقطع تلك الأحاديث ــ إذا دعت الحاجة ــ لتتكلم فى هذا الموضوع ، ثم تعود إلى حديثها الأول بنفس الهدوء

---

(١) سبق لروسو أن ذكر ان المسيو دى « تافيل » قد أفسد معتقدات مدام دى فاران ، فى سبيل بلوغ مأربه منها فأرسى فى نفسها الاعتقاد بأن إرضاء شهوات النفس لا يتعارض مع إرضاء الله والضمير !

السابق .. وهكذا كانت صادقة فى اقتناعها ، إلى درجة أن الأمر كله لم يكن يعدو أن يكون ــ فى نظرها ــ مبدأ اجتماعيا يستطيع كل من أوتى إدراكا أن يؤوله أو يطبقه أو ينبذه ، وفقا لنظرته إلى الموضوع ، دون أقل تعرض للإساءة إلى الله !

ومع أننى ــ بالتأكيد ــ لم أكن أرى رأيها فى هذا الموضوع، إلا أننى أعترف بأننى لم أجرؤ على معارضتها ، خجلا منى من أن أبدى من قلة اللطف والأدب ما كانت تتطلبه المعارضة . ولقد كان بوسعى أن أضع قاعدة للآخرين ، وأن أحاول أن استثنى نفسى منها(١) . ولكن طباع «ماما» لم تكن فيها الوقاية الكافية لها من أن تسىء استغلال مبادئها ، كما أننى كنت أعرف أنها امرأة لا تميل إلى التقلب والتلون ، وأن استباحة الاستثناء لنفسى كان معناه أن أدع لها فرصة إباحته لكل من يروق لها ! .. على أننى أورد هذا التناقض هنا ــ بين ما أورد من تناقضات ــ بمحض المصادفة ، برغم أنه كان دائما قليل الأثر فى سلوكها ، بل إنه لم يكن ذا أثر البتة، فى ذلك الحين.. غير أننى وعدت بأن أعرض مبادئها فى صدق واخلاص ، وإنى لراغب فى أن أفى بوعدى .

---

(١) كان روسو لا يقر مدام دى فاران فى فلسفتها السفسطائية التى لقنها اياها المسيو دى تافيل . ولكن هذه الفلسفة بالذات ، هى التى يسرت له أن يصبح عشيقا لمدام دى فاران ، فلو أنه هدم هذه الفلسفة ــ ليمنع قيام مثل هذه العلاقة بين السيدة وغيره من الرجال ــ لتحتم عليه أن يبحث عن سبيل ليستثنى نفسه ، حتى لا يحوم من حبها [illegible]



ووجدنا فى قطف الثمار وجنى الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام .

ولأرجع ثانية إلى الحديث عن نفسى . . فما إن وجدت لدى « ماما » كل المبادىء التى كنت بحاجة إليها لأعزز نفسى ضد مخاوف الموت وما وراءه ، حتى اقبلت باطمئنان على هذا المصدر للثقة ، وأصبحت أكثر تعلقا بها منى فى أى وقت آخر ، وكأنما كنت أود أن أنقل إليها الحياة التى كنت أحس بأنها توشك أن تهجرنى ! . . وترتبت على مضاعفة تعلقى بها ، وعلى الاقتناع بأنه لم يبق أمامى فى الحياة سوى أجل قصير ، وعلى رضائى العميق بما كتب لى فى المستقبل . . ترتبت على كل هذا ، حالة دائمة من الطمأنينة ــ بل ومن اللذة ــ خمدت فيها كافة الانفعالات التى تنأى بالهواجس والآمال عنا ، ولكنها ــ فى الوقت ذاته ــ تركتنى أنعم فى سكينة ، ودون ما هم ، بما تبقى فى عمرى من أيام ! . . وكان ثمة عامل ساهم فى جعل هذه الحال أكثر عذوبة ، ذلك هو السعى إلى تنمية ميل « ماما » إلى الريف ، بكل وسائل اللهو والتسلية التى كان بوسعى توفيرها . وفيما كنت أحملها على أن تحب حديقتها ، وساحة دواجنها ، وحماماتها ، وبقراتها ، اكتسبت أنا الآخر ميلا نحو هذه جميعا ، وإذا بهذه الشواغل البسيطة ــ التى كانت تملأ نهارى دون أن تعكر صفائى ــ تجدينى تحسنا فى صحتى يفوق ما أجدانيه اللبن وسائر الأدوية الأخرى التى استخدمت للمحافظة على كيانى البائس ، إلى أقصى ما كان ممكنا !

ووجدنا فى قطف الثمار وجنى الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام ، فأخذنا نزداد شغفا بالحياة الريفية ، وسط الناس الطيبين الذين كانوا يحيطون بنا . وشهدنا اقتراب الشتاء

بأسف بالغ ، فعدنا إلى المدينة وكأننا كنا نذهب إلى منفى .. لا سيما أنا ، إذ كنت فى ريب من أننى سأشهد الربيع مرة أخرى ، فاعتقدت أننى ودعت (شارميت) إلى الأبد . ولم أبرحها دون أن أقبل الأرض والأشجار ، ودون أن أرتد إليها عدة مرات كلما ابتعدت عنها ! ولما كنت قد تخليت ـ منذ زمن طويل ـ عن تلميذاتى ، وفقدت شغفى بملاهى المدينة ومجتمعاتها ، فاننى لم أعد أغادر البيت ، ولم أعد أرى أحدا سوى « ماما » والسيد سالومون ، الذى أصبح ـ منذ قليل ـ طبيبها وطبيبى .. وكان رجلا أمينا ، ذكيا ، « كارتى »(١) متحمس ، يحسن الحديث عن نظام العالم ، وقد عادت على أحاديثه العذبة ، المفيدة ، بخير يفوق ما عادت على به كل وصفاته الطبية . وما كنت لأطيق يوما ذلك الغباء وذاك التخبط الأحمق الذى تحفل به الأحاديث العادية ، ولكن الأحاديث النافعة الدسمة تبعث دائما فى نفسى سرورا عارما ، وما اعتدت أن أرفضها قط ! .. وقد تولانى ميل شديد إلى أحاديث السيد سالومون ، فقد لاح لى أننى كنت اكتسب معه ـ سلفا ـ تلك المعلومات الرفيعة التى كان مقدرا لروحى أن تكتسبها حين تتخلص من القيود التى كانت تثقلها . وقد امتد الميل الذى استشعرته نحوه إلى الموضوعات التى كان يعالجها ، فشرعت أبحث عن الكتب التى تستطيع أن تساعدنى على أن أحسن فهمه . وكانت الكتب التى تمزج التقوى بالعلوم هى أكثرها

(١) أى من أتباع تعاليم « ديكارت » .

ملاءمة لى ، لا سيما كتب « الخطابة » وكتب « بور ـ رويال »(١) ، التى أخذت أطالعها ، أو بالأحرى ، التهمها . ووقع بين يدى منها كتاب للأب « لامى » عنوانه « أحاديث عن العلوم » . وكان عبارة من مقدمة للتعريف بالكتب التى تعالج العلوم . وقد قرأته وأعدت قراءته مائة مرة ، وعقدت العزم على أن أجعله مرشدى . وألفيتنى فى النهاية أنجذب ، بالرغم من حالتى الصحية ، أو بالأحرى بفضلها ، إلى الدراسة دون أن أملك مقاومة . وبينما كنت أنظر إلى كل يوم وكأنه آخر أيامى ، رحت أدرس فى تحمس عارم ، وكأننى سأعيش دوما !.. ولقد قيل لى ان هذا كان ضارا بى ، ولكنى اعتقد ـ من ناحيتى ـ أن هذا قد أفادنى ، لا ذهنيا فحسب ، وإنما جسديا كذلك .. إذ أن هذا الشغل ، الذى شغفت به ، صار مستعذبا لدى ، حتى أننى لم أعد أفكر فى عللى ، ومن ثم أصبحت أقل تأثرا بها . ومن الصحيح يقينا ، أن شيئا لم يوفر لى شفاء حقيقيا ، ولكنى ـ إذ لم أعد أشعر بألم حاد ـ تعودت الوهن ، وعدم النوم ، وأن أفكر بدلا من أن أعمل ، و ـ أخيرا ـ أن أنظر إلى التداعى التدرجى البطىء ، الذى ألم بكيانى ، وكأنه تطور لا مناص منه ، ولا يملك أن يوقفه سوى الموت !

ولم تصرفنى هذه الفكرة عن كل هموم الحياة التى لا جدوى منها فحسب، وإنما أعفتنى أيضا من مضايقات الأدوية التى كنت

(١) من كتب المدرسة اليانسينية .. وقد سبق أن أوردنا نبذة عنها فى تعليق سابق .

ـ حتى ذلك الوقت ـ أضطر إلى تقبلها مرغما . فإن سالومون
لم يلبث أن اقتنع بأن هذه العقاقير لم تكن تملك لى إنقاذا ،
فأعفانى من غضاضتها ، وقنع بأن يهدىء من شجن « ماما »
المسكينة ببعض الوصفات غير الضارة ، التى تغر المريض
وتحفظ على الطبيب سمعته ! وتحولت عن نظام التغذية الضيق
النطاق ، فعدت إلى تناول النبيذ وكل مستلزمات حياة الإنسان
الموفور الصحة ، بقدر ما كانت قواى تسمح . وكنت أقبل على
كل شىء فى اعتدال ، ولكنى لم أحرم نفسى من شىء البتة ! ..
بل اننى عدت إلى الخروج ، واستأنفت زيارة معارفى ، سيما
السيد دى « كونزييه » ، الذى كانت صحبته تروق لى كثيرا .
وقصارى القول ان ارتقاب الموت لم يعق ميلى للدرس ، بل بدا
انه أذكاه ، سواء كان ذلك راجعا إلى اننى رايت ان من الجميل
ان ادرس حتى ساعتى الأخيرة ، أو كان راجعا إلى ان بقية من
الأمل فى الحياة كانت تكمن متوارية فى قرارة قلبى ! .. ورحت
أسرع فى جمع بعض المعرفة للعالم الآخر ، وكأنما كنت أعتقد
اننى لن امتلك فيه من المعرفة سوى القدر الذى ساحمله إليه.
واصبحت ولوعا بحانوت كتبى يدعى السيد « بوشار » ، أعتاد
أن يتردد عليه عدد من رجال الأدب .. وعندما أصبح الربيع
ـ الذى كنت اظننى لن أشهده ثانية ـ على الأبواب ، جمعت
لنفسى عددا من الكتب لأحملها معى إلى (شارميت) ، إذا كان
لى حظ الرجوع إليها !

واتيح لى هذا الحظ ، فاستغللته لصالحى .. وإن الاغتباط
الذى شهدت به البراعم الأولى للربيع ليجل عن الوصف ! ..

كانت رؤية الربيع مرة أخرى ، بمثابة البعث فى الفردوس ..
فما ان بدأت الثلوج فى الذوبان ، حتى هجرنا وكرنا ، ووصلنا
إلى (شارميت) لنحظى هناك بأولى أنغام البلبل . ومنذ ذلك
الحين لم اعد أفكر فى الموت ! ومن العجيب حقا أننى لم أصب
قط بأمراض شديدة الوطأة فى الريف . ولقد عانيت كثيرا من
الآلام هناك ، ولكننى لم الزم السرير أبدا . وكثيرا ما كنت
أقول ، عندما أشعر اننى أسوأ حالا من المعتاد « عندما ترونني
موشكا على الموت ، احملونى إلى ظل بلوطة ، واعدكم بأن أعود
إليكم معافى » !

ومع أننى كنت لا أزال ضعيفا ، إلا أننى عاودت أعمالى
الريفية ، ولكن بقدر يتناسب مع قواى . وقد عانيت أسى
حقيقيا لعدم استطاعتى أن أعنى بالحديقة وحدى .. بيد أننى
كنت إذا هويت ست مرات بالمعول ، شعرت بأننى أفقد
أنفاسى ، وتصبب العرق منى ، وشعرت بعجز عن الاستمرار
.. وإذا انحنيت ، كان خفقان قلبى يتضاعف ، والدم يندفع
إلى رأسى بقوة بالغة تضطرنى إلى الاعتدال سريعا . وإذ
اضطررت إلى أن أقتصر على أعمال أقل إرهاقا ، فقد تكفلت
ـ بين ما اضطلعت به من مهام ـ بأعشاش الحمام ، فشغفت
بها جدا ، حتى أننى كثيرا ما كنت أقضى عدة ساعات هناك دون
أن أشعر بالملل لحظة .. والحمامة جد هيابة ، وصعبة
الترويض ، إلا أننى توصلت إلى أن أبث فى حماماتى الثقة ، حتى
أنها راحت تتبعنى فى كل مكان، وتدعنى أمسكها متى شئت! ..
ولم أكن أظهر فى الحديقة أو فى ساحة الدار ، دون أن تحط

اثنتان أو ثلاث على ذراعى ورأسى فى الحـــال ! .. وبالرغم من
الغبطة التى كنت استشعرها ، فإن هذا الموكب لم يلبث أن غدا
متعبا إلى درجة اضطررت معها إلى أن أنبذ هذه الألفة . ولقد
اعتدت دائما أن أجد متعة فذة فى استئناس الحيوان ، لا سيما
ما يكون منه خجولا وبريا نفورا . وكان يبدو لى من المطرب أن
أوحى للحيوان بالثقة ، وما خدعته قط ، إذ كنت أود أن يحبنى
بانطلاق ودون قيد !

ولقد ذكرت أننى أحضرت معى كتبا .. وقد انتفعت بها ،
ولكن بطريقة أقل تمكينا لى من التعلم ، وأدعى إلى الحيرة
وبلبلة الفكر . فإن الفكرة الخاطئة التى كانت لدى عن الأمور،
أغرتنى بأنه لابد لقراءة كتاب قراءة مثمرة ، من أن يحرز المرء
كافة المعلومات الأولية التى يرتبط بها موضوع هذا الكتاب ،
دون أن يخطر ببالى أن المؤلف نفسه كثيرا ما لا يكون محيطا
بهذه المعلومات .. وأنه إنما يأخذها عن كتب أخـرى ، بقدر
ما تدعو الحاجة . وبهذه الفكرة الدالة على غباء ، رحت أتوقف
عن القراءة فى كل لحظة ، مضطرا إلى أن الهث باستمرار من
كتاب إلى آخر .. وكنت أحيانا أضطر إلى أن أستنفذ مكتبات
بأسرها ، قبل أن أصل إلى الصفحة العاشرة من الكتاب الذى
أرجو أن أدرسه ! .. ومع ذلك فإننى اتبعت هــذا الأسلوب
المجرد من الإدراك ، فى إسراف ، حتى أننى بددت وقتا لا حد
له ، وأرهقت رأسى إلى درجة أننى لم أعد أقوى على رؤية أو
استيعاب شىء ما .. وفطنت ـــ لحسن الحظ ـــ إلى أننى كنت
أسلك طريقا خاطئا ، يقودنى إلى تيه هائل ، فعدلت عنه قبل
أن أضل تماما !

ومهما تكن قلة ما لدى الإنسان من ميل حقيقى للعلوم ، فإن
أول شىء يشعر به حين يقبل على دراسة العلوم ، هو ترابطها
الذى يجعلها تتقارب ، وتتعاون ، ويلقى كل منهـــا الضوء على
الآخر ، بحيث لا يكون ثمة غنى لواحد منها عن الآخر . ومع أن
الذكاء البشرى لا يقوى على أن يسعها جميعا ، بل لابد له دائما
من أن يتخذ واحدا منها كأساس ، إلا أن المرء كثيرا ما يجد
نفسه فى الظلام ـــ لا سيما فى العلم الذى اختـــاره ـــ إذا هو لم
يلم بفكرة عن العلوم الباقية .. ولقد شعرت بأن هذا الذى
آليته على نفسى ، كان ـــ فى حد ذاته ـــ شيئا طيبا ونافعا ، وأنه
ليس من حاجة إلا إلى تبديل الأسلوب . فأقبلت على « دائرة
المعارف » أولا ، وقسمتها وفقا لفروعها ، ثم رأيت أن لا بد لى
من أن أفعل العكس تمـــاما فأدرس هـــذه الفروع منفصلة ،
وأمضى فى كل منها على حدة ، إلى النقطة التى يلتقى عنـــدها
بسواه ، فتتحد جميعا . وبهذا عدت إلى التقسيم المـــألوف ،
ولكنى عدت إليه وقد أصبحت رجلا يعرف ما ينبغى أن يفعل.
وفى هذا عوضنى التأمل عن المعرفة ، وساعد التفكير الطبيعى
للغاية ، على إرشادى للصواب . وسواء كان مقدرا لى أن
أعيش أو أن أموت ، فقد رأيت أننى لم أوت وقتا أضيعه .
وعدم الالمام بشىء ـــ فى سن تقرب من الخامسة والعشرين ـــ
مع الرغبة فى التعلم ، يتطلب الانهماك فى الإفادة من الوقت .
ومع أننى لم أكن أدرى عند أية نقطة قد يحلو للحظ أو للموت
أن يوقف تحمسى ، إلا أننى كنت راغبا ـــ مهما تكن الظروف ـــ
فى أن ألم بفكرة عن كل شىء، لكى أتبين اتجاه كفاءاتى الطبيعية،

اكثر منى لكى أحكم بنفسى على قيمة الجدارة القـائمة على التثقف !

ووجدت فى تنفيذ هذا المشروع فائدة اخرى لم اكن قد فكرت فيها ، وهى توفير أطول وقت ممكن، لاستغلاله فى ذلك. ولا بد اننى لم أخلق للدرس ، لأن العكوف عليه طويلا يضجرنى إلى درجة أنه من المستحيل على أن اضطر نفسى إلى الانشغال بموضوع واحد لنصف ساعة بأكمله ، سيما حين أكون منصرفا إلى متابعة سير تفكير شخص غيرى(١) ، فى حين أننى أقوى أحيانا على أن استغرق فى تفكيرى الخاص أمـدا أطول ، بل وبتوفيق كبير ! .. أما حين أتتبع تفكير مؤلف ما ، لبضع صفحات أضطر إلى مطالعتها بإمعان واستيعاب ، فإن عقلى يشرد ويتوه بين السـحاب ! .. فإذا أصررت ، فاننى أرهق نفسى عبثا ، وأصاب بدوار ، ولا أعود أرى شيئا .. أما إذا تعاقبت موضوعات متباينة ــ ولو كان تعاقبهـا متواصلا دون إهمال ــ فإن الواحد منها يسرى عنى عناء الذى سبقه ، ومن ثم فانى أمضى فيها بيسر ، دون أن اشعر بحاجة إلى اية مهلة للراحة أو التخفف . ولقد عمدت إلى الإفادة من هذه الملاحظة فى الخطة التى انتهجتها للدرس ، فرحت أمزج الموضـوعات بشكل كان يجعلنى اشغل بها طيلة اليوم دون أن اسأم البتة! .. ومن الصحيح أن المهام الريفية والمنزلية كانت تحدث تغييرا

---

(١) كما يحدث حين يقرأ المرء كتابا للدرس ، اذ يحاول أن يتفهم سير تفكير المؤلف ، وان يستوعب آراءه .

نافعا ، ولكننى ــ فى غمرة التحمس المطرد ــ لم البث ان وجدت الوسيلة لتوفير وقت للدرس ــ إلى جانب اداء هـذه المهام ــ ولأن أشغل بأمرين فى آن واحد ، دون أن يخطـر لى أن هذا يقلل من إتقانى لكل منهما !

علىاننى أعمد إلى شىء من التحفظ، بشأن هده التفصيلات الدقيقة التى تفتننى ، والتى اثقل بها أحيانا على قارئى .. وهو تحفظ لا يحدسه القارىء اطلاقا ، إذا انا لم أعن بتنبيهه إليه. فهنا ــ على سبيل المثال ــ اذكر فى استعذاب كافة المحاولات المتباينة التى قمت بها لتقسيم وقتى على نمط اتاح لى أن اجد فيه أكثر قدر ممكن من المتعة ومن الفائدة ، فى آن واحـد . وبوسعى أن اقول ان تلك الفترة ، التى قضيتها فى عزلة ، وفى مرض مسـتمر ، كانت أقل فترات عمـرى تعرضا للخمـول والضيق . وقد انقضى شهران أو ثلاثة على هـذا النسق ، فى تعرف اتجاه عقلى ، وفى الاستمتاع ــ فى اجمل فصول السنة، وفى البقعة التى أحالها هذا الفصل فاتنة ــ بسحر الحياة الذى أحسست بقيمته تماما : كسحر الزمالة العذبة ، غير المقيدة ــ إذا صح أن نطلق هـذا الاسم على معاشرة قامت على اتحاد كامل ــ أو سحر معرفة رائعة كنت أعتزم أن اكتسبها ، ولكننى كنت أنتشى بها وكأننى حصلتها فعلا .. أو لعل نشوتها كانت أشد لأن لذة الدرس والتعلم كانت ذات دخل كبير فى سعادتى!

ومن الواجب التجاوز عن هذه المحاولات ، التى كانت بالنسبة لى مبعث لذة وابتهاج، ولكنها كانت أبسط من أن تشرح. فأنا أكرر أن السعادة الحقة لا توصف ، وإنما هى تحس ..

وكلما عز وصفها ، كان الشعور بهـا أفضل وأجمل ، إذ أنها ليست نتيجة مجموعة من الوقائع ، وإنما هى حالة دائمـة . إننى كثيرا ما أكرر نفسى ، ولكننى خليق بأن أزداد تكرارا ، لو أننى رويت الشىء الواحد بعدد المرات التى يخطر فيها ببالى ! وعندما اتخذت حياتى ــ التى كانت كثيرة التغير ــ مجرى أكثر انتظاما ، فهاكم أقرب وصف ممكن لتوزيع أوقاتى .

كنت استيقظ قبل مشرق الشمس فى كل صباح ، فأمرق خلال بستان مجاور ، إلى طريق جد بديعة ، فوق حقـول الكروم التى كانت تمتد بطول سفح الجبل حتى (شامبيرى). وهناك ــ وأنا أتمشى ــ كنت أتلو صلاتى ، التى لم تكن تتألف من مجرد تحريك شفتى بتمتمة فارغة ، وإنما كانت تتمثل فى سمو صادق بالقلب إلى خالق هذه الطبيعة البديعة ، التى كانت آيات جمالها تنبسط أمام عينى .. فما أحببت قط أداء الصلاة فى الحجرة ، فقد كانت الجدران وكل تلك الأشـياء التى من صنع الإنسان ، تبدو لىَ دائما وكأنها تحول بينى وبين الله .. وإنى لأحب أن أفكر فيه وأتأمل آياته ، بينمـا يكون فؤادى متطلعا إليـه . وبوسعى أن أقول ان صلاتى كانت خالصة ، وكانت جديرة ــ لهذا السـبب ــ بأن تستجاب . ولم أكن أسأل لنفسى ــ ولتلك التى كانت دعواتى لا تفرق بينى وبينها إطلاقا ــ سوى حياة بريئة ، مطمئنة ، خالية من الرذيلة[1] ،

---

(1) من الغريب أن يصر « روسو » على أن العلاقة المشينة ــ مهما تكن مبرراتها ــ بينه وبين مدام دى فاران ، لم تكن من الرذيلة فى شىء !

ومن الألم ، ومن الفاقة المدقعة ، ومن موت الاسـتقامة .. وما إليها ، فى المستقبل . وفيما عدا ذلك ، كانت هـذه العبادة تنصرف فى معظمها إلى الإعجاب والتأمل ، أكثر مما تنصرف إلى الدعاء والسؤال .. إذ أننى أدرك أن خير وسيلة للحصول من مانح النعم الحقيقية على تلك النعم اللازمة لنـا ، هى فى العمل على أن نستحقها ، أكثر مما هى فى طلبها منه ! .. وكنت أعود من نزهتى بعد دورة طويلة ، وأنا منصرف البال إلى تأمل المناظر الريفية المحيطة بى ، فى سرور واستمتاع ، فهى الوحيدة التى لا تملها العين والقلب أبدا . وكنت أرقب من بعـد ما إذا كان النهار قد بدأ عند « ماما » ، فإذا ما أبصرت نافذتها مفتوحة، ارتجفت غبطة ، وهرعت نحو الدار . أما إذا كانت النافـذة مغلقة ، فقد كنت أدلف إلى الحديقة وأنتظر حتى تسـتيقظ ، وأنا أتسلى باسترجاع ما درست فى المساء السابق ، أو العمل فى الحديقة . وإذ يفتح مصراعا النافذة ، أبادر لأقبل « ماما » فى فراشها ، وهى ما تزال نصف نائمة ، فى كثير من الأحيـان .. وكان هذا التقبيل طاهرا أكثر منه عاطفيا ، يستمد من براءته ــ بالذات ــ سحرا لم يقترن قط بملاذ الحس !

وكنا نفطر عادة على قهوة باللبن . وكانت هذه أكثر فترات النهار هدوءا وسكينة لنا ، فكنا نسترسل فى الحديث على سجيتنا . ولقد خلفت لى هذه الجلسات ــ التى كانت طويلة فى العادة ــ ميلا قويا إلى الإفطار ، وإنى لأوثر الطريقةالإنجليزية أو السويسرية التى تعتبر الإفطار وجبـة كاملة تضم الأسرة بأكملها ، على الطريقة الفرنسية التى يفطر بمقتضاها كل امرىء فى حجرته بمفرده ، أو لا يفطر إطلاقا فى الغالب .

وبعد ساعة أو اثنتين ــ تمضيان فى الحديث ــ كنت أخلو إلى كتبى حتى موعد الفداء . وكنت ابدأ بكتاب من كتب الفلسفة ، مثل كتاب « المنطق » لبور ـ رويال ، و « المقالة » للوك ، وكتب مالبرانش ، وليبينيتز وديكارت ، إلخ . وسرعان ما كنت الاحظ أن بين هؤلاء المؤلفين تناقضا دائما . فخطرت لى فكرة خيالية أوحت بالتقريب بينهم ، مما أتعبنى كثيرا وجعلنى ابدد كثيرا من الوقت .. وكنت اربك ذهنى دون أن احرز تقدما ما ! .. وإذ طرحت عنى ــ فى النهاية ــ هذا الأسلوب كذلك ، انتهجت أسلوبا يفضله بدرجة لا حد لها ، وإليه أعزو كل التقدم الذى استطعت أن أحرزه، بالرغم من نقص استعدادى .. فمن المؤكد أننى لم أوت قط استعدادا كبيرا للدرس . ولقد آليت على نفسى ــ وانا اقرأ لكل مؤلف ــ أن استوعب كل أفكاره واتتبعها دون أن أخلطها بآرائى ، أو بآراء أى مؤلف آخر ، ودون أن أجادلها . بل اننى كنت اقول لنفسى : « لنبدأ باختزان الآراء بدقة ــ صحيحة كانت أو خاطئة ــ ريثما يتوفر لعقلى من الغذاء ما يمكنه من المقارنة بينها والمفاضلة » . وإنى لأعلم أن هــذا الأسلوب لا يخلو من العيوب ، ولكنه افلح فى تمكينى من غايتى ، وهى التعلم . وبعد بضع سنوات قضيتها فى عدم التفكير إلا على غرار ســواى ، دون ما تأمل بل وبدون تمحيص ، ألفيت نفسى مالكا لمدخر من العلم كاف لإرضائى ، ولتمكينى من أن أفكر دون معونة الغير ! .. وعنــدما كانت الرحلات والشواغل تحرمنى فرصة اللجوء إلى كتبى ــ فى ذلك الحين ــ كنت اتسلى باسترجاع ما قرأت والمقارنة بين بعضه

وبعض ، فأزن كل شىء بميزان ، وأصدر ـ فى بعض الأحيان ـ أحكاما على أساتذتى . ومع أننى بدأت أشحذ مقــدرتى على النقد فى سن متأخرة ، إلا أننى لم أجد أنها قد تبددت . وعندما نشرت آرائى الخاصة ، لم أتهم أبدا بأننى عبد لأســاتذتى ، ولا بأننى « أحلف بكلمات أستاذ ما »(١) !

وانتقلت من هذه الدراسات إلى مبادىء الهندسة ، التى لم أجاوزها كثيرا قط ، إذ أصررت على أن اقهر ضعف ذاكرتى ، بفضل الرجوع مائة مرة ومرة إلى حيث بــدأت ، والشروع باستمرار فى تتبع خطواتى السابقة . ولم استسغ تعــاليم « يوكليد »(٢) ، الذى كان يعنى بتسلسل البراهين ، اكثر من عنايته بترابط الأفكار . وفضلت هندسة الأب « لامى » ، الذى أصبح ــ منذ ذلك الحين ــ من أحب المؤلفين إلى ، والذى أعدت قراءة مؤلفاته فى استمراء .. وجاء الجبر بعد ذلك، فكان الأب « لامى » هو الذى اتخذته مرشدا . حتى إذا تقــدمت فى دراستى ، اقبلت على « علم الحساب » للأب « رينو » ، ثم على كتابه « تحاليل تستند إلى براهين » ، الذى لم افعل أكثر من ان مررت به مر الكــرام . ولم أمض قط إلى الحد الذى افهم عنده تطبيق الجبر على الهندسة ، فما أحببت قط هذه الطريقة

---

(١) مثل لاتينى شاع عن تلاميذ فيثاغورس ، الذين كانوا يرددون آراء استاذهم فى ايمان اعمى !

(٢) عالم يونانى عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، ووضع أصولا للعلوم الرياضية فى ١٣ كتابا ، خص الهندسة منها ثمانية كتب.

التى تجعلك تمضى فى العملية الرياضية دون أن تدرى ما الذى تفعله . وكان حل أية مسألة هندسية بالمعادلات الجبرية يبدو لى مثل عزف لحن بالاكتفاء بإدارة يد(١) !

وعندما وجدت بالحساب ــ لأول مرة ــ أن مربع المعادلة الجبرية ذات الحدين ، يتألف من مربع كل حد من حديها ، ومن ضعف حاصل ضرب كل منهما فى الآخر(٢) ، لم اشأ أن أصدق ذلك ــ برغم صحة عملية الضرب التى أجريتها ــ إلا بعد أن سجلت العملية بالأرقام . وليس معنى هذا أننى لم أوت ميلا عظيما إلى الجبر ، لأنه لا يعالج سوى كميات مجردة (مبهمة)، ولكننى كنت ــ عند تطبيقه على المساحات والأبعاد ــ أحب أن أرى العملية ممثلة بسطور وخطوط ، وبدون ذلك لم أكن أفهم منها شيئا !

* * *

وجاءت اللغة اللاتينية ، بعد ذلك . وكانت هذه أشق دراساتى ، فلم أحرز فيها أبدا أى تقدم كبير . واتبعت فى البداية أسلوب « بور ـ رويال » اللاتينى ، ولكن دون ما ثمرة . فإن هــذه الأشعار الاستروقوطية(٣) كانت تتبض قلبى ،

---

(١) يشبه « روسو » حل المسائل الهندسية بالمعادلات الجبرية ، بادارة يد آلة موسيقية ذات زنبرك ، فاذا بها تردد النغم دون أن يدرى من أدارها شيئا من طريقة عملها !

(٢) (ا + ب) = ا٢ + ٢ ا ب + ب٢

(٣) كانت قبائل « الاستروقوط » البربرية هى المصدر الأول اللغة اللاتينية.

ولا تستطيع أن تلج أذنى ! .. ووجدتنى أضل وسط أكداس القواعد ، وما أن استوعبت قاعدة حتى أكون قد نسيت التى سبقتها ! .. فليست دراسة الكلمات بالتى تليق بإنسان بلا ذاكرة ، وما أصررت على هذه الدراسة إلا لكى أغصب ذاكرتى على أن تقوى ، فحسب!.. وكان لابد من أن أهجرها فى النهاية ، على أننى استوعبت التركيب بالدرجة التى تكفى لأن أستطيع أن أقرأ أسلوب كاتب سلس ، بمساعدة قاموس . وقد اتبعت هذا النهج ، فوجدتنى أتقدم . وأقبلت على الترجمة ، لا كتابة ، وإنما فى الذاكرة ، واقتصرت على ذلك . وبفضل الزمن والمران ، أصبحت أقرأ بطلاقة كافية مؤلفات الكتاب اللاتينيين، ولكنى لم أستطع قط أن أتكلم أو أكتب هذه اللغة .. وهــذا ما حيرنى كثيرا ، حين الفيتنى ــ دون أن أدرى كيف ــ مدرجا فى عداد أهل الأدب . ومن العيوب الأخرى التى ترتبت على هذه الطريقة من طرق التعلم ، أننى لم أتعلم قط علم العروض ، وكنت أقل إلماما بقواعد نظم الشعر. ومع أننى ــ فى رغبتى أن أتذوق وقع اللغة شعرا ونثرا ــ بذلت جهودا كثيرة للاطاحة بها ، إلا أننى أوقن بأن تحقيق هذا ــ دون معونة أستاذ ــ أمر يقرب من المستحيل ، وإذ استوعبت تركيب أسهل الأشعار جميعا ، وهو السداسى الوزن ، تلمست صبرا كافيا لأن أزن كل شعر « فيرجيل » ، مبينا القاعدة والكم ، فإذا ما ارتبت فيما إذا كان أحد المقاطع طويلا أو قصيرا ، رجعت إلى كتاب « فيرجيل » لأسترشد به . ومن الواضح أن هذا جعلنى أرتكب أخطاء كثيرة بسبب التغير الذى تسمح به قواعد النظم ، على أنه إذا كان

لتعلم المرء بنفسه فائدة ، فإن له ــ كذلك ــ عيوبا عظيمة ، فى مقدمتها العناء الذى يفوق التصور . وانى لأدرى بهذا من اى شخص ، أيا كان !

وكنت أفارق كتبى قبيل الظهر ، فإذا لم يكن الغداء معدا ، فإننى كنت أسعى إلى زيارة صديقاتى الحمائم ، او للعمل فى الحديقة ، فى انتظار موعد الغداء . وعندما اسمع النداء ، أهرع ــ وانا جد مغتبط ــ وقد أوتيت شهية عظيمة . فمن الجدير بالملاحظة أن شهيتى لا تتخلى عنى ، مهما أكن مريضا . وكنا نتغذى فى انشراح ، ونحن نتبادل الحديث فى شئوننا حتى نفرغ « ماما » من الأكل . وكنا ــ إذا ما تحسن الجو ــ نذهب، مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، إلى ما وراء الدار ، لنتناول القهوة فى مقصورة عليلة الجو ، ظليلة ، زينتها بحشيشة الدينار(١)، وكنا نشعر بارتياح شديد إليها فى القيظ . وهناك ، كنا نقضى وقتا ليس بالطويل ، فى تفقد خضرنا وزهورنا ، وفى أحاديث تتعلق بطريقة معيشتنا ، كانت تجعلنا أقدر تذوقا لجمالها . وكانت لى أسرة أخرى ، فى أقصى الحديقة ، تتألف من نحل . ولم يكن يفوتنى قط أن أزورها ، وكثيرا ما كانت « ماما » تصحبنى . وكنت أهتم كثيرا بعملها ، وأنعم للغاية برؤيتها فى عودتها من جنى الزهور ، وقد أثقلت سيقانها الدقيقة بأحمالها، بحيث كان يتعذر عليها المشى أحيانا . ولقد حملنى الفضول ــ فى الأيام الأولى ــ على أن أحاول التثبت مما كنت أرى ،

---

(١) نوع من النباتات .

فلدغنى النحل مرتين أو ثلاثة ، ولكننا لم نلبث أن وثقنا تعارفنا، حتى أنه كان يدعنى وشأنى ، مهما أقترب منه .. وكان يتجمع حولى ــ مهما تكن الخلايا مليئة ، تأهبا للافراز ــ فيحط على يدى ووجهى دون أن يلدغنى قط ! .. إن كل الحيوانات توجس عادة من الإنسان ــ وهى ليست مخطئة فى ذلك ــ ولكنها ما ان تطمئن مرة إلى أنه لا يريد بها أذى ، حتى تصبح ثقتها به عظيمة إلى درجة أنه لا يسىء إلى هذه الثقة إذا كان همجيا بربريا !

وكنت أعود إلى كتبى ، بيد أن أعمالى ــ فيما بعد الظهر ــ كانت أقل جدارة بأن تحمل اسم « العمل والدراسة » ، منها باسم « الراحة والتسلية » . فما كنت لأطيق قط العمل المكتبى بعد غدائى ، لأن كل عمل ، فى الأيام الحارة ، يكبدنى عناء ، بوجه عام . على أننى كنت أشغل نفسى بالقراءة دون الاستذكار، وبغير إرهاق ، بل وبغير ضابط أو قاعدة . وكان الشىء الذى اعتدت أن أواظب عليه بدقة ، هو التاريخ والجغرافيا . ولما كان هذان لا يتطلبان أى جهد عقلى ، فإننى كنت أمضى فيهما قدما بقدر ما كانت تسمح ذاكرتى القاصرة . وحاولت أن أدرس مؤلف الأب « بيتو » ، وانغمست فى غياهب علم التاريخ ، ولكنى كنت لا أميل إلى الأجزاء الدقيقة منه ، التى لا قاع لها ولا شاطىء(١) ، وكنت أفضل عليها الأبعاد الدقيقة التوقيت، ومسرى الأجرام السماوية . بل إننى كنت خليقا بأن أغرم بعلم

---

(١) يقصد انها من العمق بحيث انه كان يتخبط فيها دون أن يهتدى الى غاية او يفقه منها شيئا .

الفلك ، لو أننى أوتيت أدوات له ، ولكنى كنت مضطرا إلى أن اقنع ببعض مبادئه التى تؤخذ عن الكتب ، وببعض مشاهدات غير دقيقة ــ خلال منظار مقرب ــ كانت كافية لمعرفة المواقع العامة للأجرام فحسب ، إذ أن نظرى القصير لم يكن يسمح لى بتمييز أى شىء بالعين المجردة ، فما بالك بالكواكب ؟ . .
وأذكر ــ فى هــذا الصدد ــ حادثا كثيرا ما يحملنى تذكــره على الضحك : فقد ابتعت خريطة فلكية لأدرس عليها الطوالع ، وثبتها إلى إطار ، وكنت فى الليالى الصافية أذهب إلى الحديقة فأضع إطارى على أربع قوائم فى ارتفاع قامتى تقريبا ، بحيث تكون الخريطة مقلوبة . ولكى أضيئها دون أن تطفىء الريح شمعتى ، كنت أضع هذه فى دلو على الأرض ، بين القــوائم الأربع ، ثم أنظر ــ بالتناوب ــ إلى الخريطة بعينى ، وإلى الكواكب بمنظارى ، وأروح أضنى نفسى بالتعرف على النجوم واستنتاج الطوالع . وأظننى قد قلت ان حديقة السيد «نواريه» كانت مرتفعة عن مستوى الأرض ، بحيث كان كل ما يجــرى يشاهد من الطريق . وحدث ــ ذات مساء ــ أن كان بعض الفلاحين مارين فى ساعة متأخرة ، فراونى فى هيئة مضحكة ، وقد انهمكت فى عملى . وكان الضوء الواهن المنعكس على خريطتى ـ والذى لم يكونوا يرون مصدره ، لانه كان محجوبا عن انظارهم بحواف الدلو ــ كما كانت هذه القوائم الأربع ، والصفحة الورقية الكبيرة المكسوة بالأشكال والأرقام ، والإطار ، وحركة منظارى ، الذى كانوا يرونه وهو يروح ويجىء . . كل هذه أوحت بفكرة السحر ، مما افزعهم ! . . ولم يكن لباسى صالحا لان يطمئنهم ،

فقد كنت أرتدى قبعــة ذات حافة عريضــة ، تعلو قلنسوتى (طاقيتى) ، وقد أجبرتنى «ماما» على ارتدائها ، مما هيأ لانظار أولئك الفلاحين صورة ساحر حقيقى ! ولما كان الوقت يناهز منتصــف الليل ، فإنهم لم يرتابوا إطلاقا فى انهم أمام اجتماع للسحرة ! ولما كان فضولهم أقل من أن يزين لهم مشــاهدة ما كان يجرى ، فإنهم فــروا وهم فى فزع شــديد ، وأيقظوا جيرانهم ليرووا لهم ما رأوا ! . . وانتشرت القصة بسرعة ، حتى أن كل امرىء فى الجيرة كان يعرف ـ فى اليوم التالى ـ أن اجتماع السحرة عقد فى دار السيد « نواريه » . ولست أدرى ما كانت تؤدى إليه هذه الشائعة فى النهــاية ، لو لم يعمد أحد الفلاحين الذين شهدوا حركاتى السحرية ، إلى أن يرفع شكاته ـ فى اليوم ذاته ــ إلى اثنين من « الجيزويت » ، اعتادا أن يترددا علينا ، فسفها الشكوى دون أن يعرفا جلية الأمر . ثم ذكرا لنا القصة ، فأدليت إليهما بالسبب ، وضحكنا لذلك كثيرا. على أنه تقرر ـ خشية تكرار ذلك الحادث ـ أن أقوم بمشاهداتى الفلكية فى المستقبل دون استعانة بضوء ، مكتفيا بالرجوع إلى الخريطة داخل الدار . والذين قرأوا كتابى : « رسائل الجبل» ، عن أعمالى السحرية فى (البندقية) ، رأوا ــ كما أرجو ــ أن السحر كان صنعتى ردحا طويلا !

هكذا كانت حياتى فى (شارميت) عندما لم أكن مشغولا بأية مهمة ريفية ، فقد كانت هذه تظفر بالأفضلية دائما ، كما أننى كنت ــ فى الأعمال التى لا تتجاوز طاقتى ــ أعمل كأى فلاح ! . . على انه من الصحيح أن ضعفى البالغ لم يدع لى ــ إذ ذاك ــ

من مقدرة فى هذا المجال ، اللهم إلا النية الطيبة .. هذا فضلا عن أننى كنت أبغى ان أقوم بعملين فى آن واحد ، ولهذا السبب لم أتقن أيا منهما . إذ كنت قد وضعت نصب عينى أن أهيىء لنفسى ــ بالقوة ــ ذاكرة طيبة ، فدابت على محاولة أن أحفظ كثيرا من المعرفة عن ظهر قلب . ومن اجل هــذا كنت أحمل معى دائما كتابا أدرسه وأستذكره وأردده على نفسى وأنا منهمك فى العمل ، متحملا فى ذلك عناء لا يصدقه العقل ! ولست أدرى كيف أن إصرارى على هــذه المحــاولات غير المجــدية وهــذه المجهودات المستمرة لم ينته إلى ان اغدو ــ فى النهاية ــ غبيا! .. كان لابد من أن أدرس ديوان الشاعر «فيرجيل» EGLOGUES وأن أكرر الدرس عشرين مرة ، ومع ذلك فاننى لم أفقه منــه كلمة واحدة ! ولقد فقدت ، أو فككت ، عددا كبيرا من الكتب باعتيادى حملها معى فى كل مكان ، سواء كان ذلك فى أعشاش الحمام ، أو فى الحديقة ، أو فى البستان ، أو فى مزرعة الكروم. وكنت أثناء انشغــالى بشىء ، أضع الكتاب فى أسفل إحدى الأشجار ، أو على السياج العشبى ، ثم كنت أنسى أن آخذه ثانية .. وكثيرا ما كنت أجده ــ بعد خمسة عشر يوما ــ تالفا، أو يكون قرضه النمل والقواقع . وأصبحت هذه اللهفــة إلى التعلم تهوسا دفعنى إلى ما يقرب من العته والحماقة ، حتى أننى ــ لانشغال بالى ــ كنت لا أنفك أتمتم وأغمغم !

ولقد أحالتنى مؤلفات « بور ــ رويال » وكتاب «الخطابة» ــ اللذان كنت أقرؤهما بكثرة بالغة ــ إلى شــخص نصــف « يانسينى » . وبالرغم من قوة إيمانى ، فإن «لاهوت» هــذا

المذهب القاسى كان يزعجنى أحيانا .. وأخذت رهبة الجحيم ــ الذى لم أكن حتى ذلك الوقت أخافه كثيرا ــ تقض طمأنينتى شيئا فشيئا .. ولو لم ترفه « ماما » عن نفسى ، لقلب هــذا المذهب الرهيب كل كيانى ! .. وقد بذل الراهب الذى اعتدت أن أفضى إليه باعترافاتى ــ والذى كان يتلقى اعترافاتها هى الأخرى ــ قصارى وسعه فى أن يجعلنى فى حال ذهنية طيبة. وكان هذا الراهب من « الجيزويت » ، ويدعى الأب « هيميه » . وقد كان شيخا طيبا ، حكيما ، سأظل دائما أوقر ذكراه . ومع أنه كان « جيزويتيا » ، إلا أنه كان فى سذاجة الطفل ، وكانت أخلاقه وادعة أكثر منها متراخية ، وهذا عين ما كنت فى حاجة إليه ، لأعيد إلى نفسى توازنها بعــد الانطباعات الكئيبة التى أحدثتها «اليانسينية» . وكان هذا الرجل الطيب وزميله ــ الأب كوبييه ــ يفدان كثيرا لزيارتنا فى (شارميت) ، برغم ان الطريق كانت شديدة الوعورة ، وأطول مما ينبغى بالنسبة لمن هم فى سنهما . ولقد كانت زيارتهما ذات اثر طيب عظيم على نفسى، أسأل الله ان يسبغ على روحيهما جزاء مثله ! .. إذ كانا طاعنين فى السن ــ فى ذلك الوقت ــ بحيث أننى لا أظنهما على قيــد الحيــاة اليوم . وكنت ــ أنا الآخــر ــ أذهب لزيارتهما فى (شامبيرى) ، فألفت دارهما تدريجا ، وأصبحت مكتبتهما رهن إرادتى . وإن ذكرى هذه الفترة السعيدة لترتبط ارتبــاطا وثيقا بذكرى «الجيزويتيين» ، حتى أننى أحب كلا منهما من أجل الآخر . ومع أن مذهبهما كان يبدو لى ــ دائما ــ خطرا ، إلا أننى لم أستطع أن أجــد قط ميلا إلى أن أوليهما كراهيــة صادقة !

ولكم أود أن أعرف ما إذا كان يطوف بقلوب الغير من الأفكار الصبيانية ما يطوف بقلبى أحيانا . ففى غمرة دراساتى ، وفى سياق حياة بريئة إلى أقصى ما يستطاع ، وبالرغم من كل ما قيل لى ، فإن الخوف من الجحيم لا يزال يزعجنى أحيانا . وكنت أسائل نفسى : « فى أى حال أنا ؟ .. وهل ادان لو أننى مت فى هذه اللحظة؟ » . وعلى هدى أساتذتى «اليانسنيين»، لم يكن ثمة ريب فى الأمر . ولكننى كنت أرى الحكم يختلف على هدى ضميرى ! .. وإذ كنت دائما فى خوف ، أتخبط فى هذا التذبذب القاسى ، فقد أخذت ألجأ ـ وأنا أبحث عن مخرج ـ إلى وسائل من أدعى الأمور للضحك ، وكنت من أجلها على استعداد لأن أحبس أى إنسان أراه يأتيها ! .. ففى ذات يوم ، أخذت ـ بطريقة آلية ، وأنا أفكر فى هذا الموضوع المقبض ـ أرمى جذوع الأشجار بالأحجار ، بما كان لى من مقدرة على الرماية .. أعنى دون أن أصيب أيا منها تقريبا ! .. وفيما كنت فى غمرة هذا العمل الطريف ، خطر لى أن أتخذ منه لونا من الشعوذة كى أطامن قلقى . فقلت لنفسى : « سأرمى هذا الحجر نحو الشجرة المواجهة لى ، فإذا أصبت ، كانت الإصابة بشيرا بالنجاة ، وإذا أخفقت ، فقد حاقت بى اللعنة » ! .. وفيما كنت أقول هذا ، طوحت بالحجر ، بيد مرتجفة، وبخفقان عنيف فى القلب .. ولكنى بتوفيق بالغ ، حتى أن الحجر أصاب الشجرة فى منتصفها تماما ، وهو أمر ـ إن شئتم الحق ـ لم يكن بالعسير ، إذ أننى كنت قد عنيت باختيار شجرة غليظة الجذع جدا ، وقريبة جدا . ومنذ ذلك الوقت لم يعد يخالجنى

شك فى خلاصى ! .. ولست أدرى ـ وأنا أذكر هذا الحادث ـ أأضحك أم أتحسر على نفسى ! أن لكم ـ أيها الكبار ، الذين تضحكون ولا شك ـ أن تطربوا ، ولكن .. لا تسخروا من ضعفى أو عبثى ، فإنى أقسم لكم إننى أشعر به تمام الشعور!

على أن هذه الاضطرابات ، وهذه الدموع التى قد لا يمكن فصلها عن التقوى والإيمان ، لم تكن حالا دائمة . فقد كنت ـ بوجه عام ـ موفور الهدوء ، وكان الأثر الذى خلفته فكرة الموت المبكر فى نفسى ، أقل انتماء إلى الحزن ، منه إلى الضعف والاستكانة الوادعة ، التى كان لها سحرها الخاص .. ولقد عثرت بين أوراق قديمة على قطعة رثاء كنت قد وجهتها إلى نفسى ، أهنئها فيها على موتى فى سن يشعر عندها المرء بقدر كاف من الشجاعة على مواجهة الموت ، دون أن أكون قد عانيت عللا قاسية ـ بدنية كانت أو عقلية ـ خلال حياتى ! .. ولكم كنت مصيبا ! .. كان ثمة هاجس يخيفنى من الحياة خشية العذاب ! .. لكأنما كنت أرى مقدما المصير الذى كان فى انتظارى فى أواخر أيامى ! .. أبدا ما كنت قريبا من الحكمة بقدر ما كنت فى تلك الفترة السعيدة ! .. ففى بعدى عن الحسرة البالغة على الماضى ، وفى تحررى من هواجس المستقبل ، كان الشعور الغالب على نفسى باستمرار هو شعور الاستمتاع بالحاضر . أن الأتقياء يؤتون ـ عادة ـ قدرا ضئيلا من شهوة متأججة ، تجعلهم يتذوقون فى استمراء تلك الملاذ البريئة المباحة لهم . ولكن الدنيويين يرون فى ذلك جرما من جانب الأتقياء . ولست أدرى لذلك سببا .. لا ، بل أحسبنى أعرف تماما .. فهم

يحسدون الأتقياء على بهجة الملاذ الساذجة التى فقدوا هم طعمها ! .. ولقد كان هذا الميل لدى ، فوجدت من بواعث الغبطة أن أرضيه وأنا مطمئن الضمير .. وكان قلبى ما يزال غضا ، فأسلم نفسه إليه تماما ، وفى فرح الطفل ، أو بالأحرى ـ إذا كان لى أن أجرؤ على القول ـ فى شبق الملاك ! .. فقد كان لهذه المتع الوادعة ، ما لمباهج الفردوس من سحر جليل ! .. كان تناول الغداء على الحشائش فى (مونتانيول) ، وتناول العشاء تحت الخمائل ، وجنى الفواكه ، واقتطاف العنب والأمسيات التى كانت تقضى فى انتزاع الياف القنب مع رجالنا .. كل هذه كانت أعيادا حافلة وجدت « ماما » فيها عين ما كنت أنا أجد من سرور .

وكانت النزهات التى نقوم بها وحيدين ، ذات فتنة أشد وأكثر ، لأن القلب كان ينطلق متحررا . ولقد قمنا ـ فيما قمنا به منها ـ بنزهة تعتبر من المعالم فى ذاكرتى : كان ذلك فى يوم عيد للقديس لويس ، الذى سميت « ماما » باسمه ، وانطلقنا معا ـ وحيدين ـ فى البكور ، بعد قداس جاء أحد الرهبان « الكرمليين » ليلقيه علينا ـ فى مطلع النهار ـ فى كنيسة صغيرة ملحقة بالدار . وكنت قد اقترحت أن نتمشى فى جانب الوادى المقابل للجانب الذى كنا فيه ، ولم نكن قد زرناه قط . فأرسلنا زادنا مقدما ، إذ كانت النزهة تستغرق اليوم بطوله . ولم تكن « ماما » ثقيلة فى سيرها ، برغم أنها كانت بدينة، ممتلئة الجسم ، فأخذنا نتنقل من هضبة إلى هضبة ، ومن غابة إلى غابة ، فى الشمس حينا وفى الظل أحيانا ، ونحن نستريح من

فاخذنا نتنقل من هضبة الى هضبة ، ومن غابة الى غابة فى الشمس حينا وفى الظل أحيانا .

آن إلى آخر ، وقد غفلنا تماما عن سير الزمن . وكنا نتحدث عن نفسينا ، وعن رابطتنا الوثيقة ، وعن عذوبة نصيبنا فى الحياة ، رافعين ــ من أجل دوامه ــ دعوات لم تستجب ! .. وكان كل شىء يبدو وكأنه يدبر فى الخفاء لجعل هذا النهار هنيئا . وكان ثمة مطر قد تساقط منذ فترة قريبة ، فلا اثر لغبار .. كما كانت ثمة جداول جارية ، ونسيم يداعب أوراق الشجر . وكان الهواء نقيا ، والأفق خلوا من السحب، والسماء ــ كقلبينا ــ يسودها الصفاء ! .. وتناولنا غداءنا فى دار أحد الفلاحين ، وقد تقاسمناه مع أسرته التى باركتنا وشكرتنا من صميم الأفئدة . ما أطيب أولئك الفقراء من أهل (سافوا) !

وبعد الغداء ، لذنا بالظل تحت الأشجار الوارفة ، حيث رحت أتسلى بجمع بعض العيدان الخشبية الجافة لنعد قهوتنا، بينما كانت « ماما » تتلهى بتفقد الأعشاب بين الأدغال .. ورأت الزهور التى كنت قد جمعتها أثناء الطريق ، فأخذت تلفت نظرى إلى الف غريبة وعجيبة فى تكوينها ، مما لذ لى كثيرا ، ومما كان خليقا بأن يجعلنى أميل إلى علم النبات ، لولا أن أوان هذا الميل لم يكن قد حان ، فقد كنت منصرفا عنه إلى كثير من الدراسات الأخرى . وخطرت لى فكرة حولتنى عن الزهور والنباتات : فإن الجو الروحى الذى ألفيتنى فيه ، وكل ما قلنا وفعلنا فى ذلك اليوم ، وكل الأشياء التى خلبت لبى ، ذكرتنى بذلك الحلم الذى رأيته وأنا فى كامل اليقظة فى (أنيسى) قبل سبع أو ثمانى سنوات ، والذى رويته فى مكانه[١] . وكان الشبه من القوة

(١) فى الكراسة الثالثة .

بحيث أننى حين تذكرت الحلم ، اهتزت مشاعرى تأثرا وانساب دمعى .. وفى نوبة من الانفعال العاطفى ، عانقت تلك الحبيبة الغالية ، وقلت لها فى وجد : « ماما ، ماما .. لقد كنت موعودا بهذا اليوم منذ أجل طويل ، ولست أرى ما يفوقه ! .. إن سعادتى ــ بفضلك ــ فى أوجها ، فليتها لا تتناقص بعد ذلك! .. ليتها تدوم طالما ظللت أنعم باستمرائها ! .. ليتها لا تنقضى إلا مع انقضاء أجلى » !

وهكذا أخذت تنساب أيامى السعيدة .. بل الأيام التى كانت أكثر من سعيدة ، حتى أننى ــ لعجزى عن أن أتبين ما قد يقوى على تعكيرها ــ كنت أتصور أنها لن تنتهى ، فى الواقع ، إلا مع نهايتى ! .. وليس معنى هذا أن نبع وساوسى كان قد نضب تماما ، وإنما كان معناه أننى رأيت هذه الوساوس تتخذ طريقا آخر مكننى من أن أوجه أحزانى وآلامى إلى أهداف نافعة ، جلبت عليها دواء ناجعا ! .. ولقد كانت « ماما » تحب الريف بطبيعتها ، فوجد هذا الميل منى ما يذكيه . وما لبثت أن انتقلت إليها ــ تدريجا ــ عدوى الشغف بالأعمال الريفية .. وكانت تحب تقويم الأرض[١] ، كما كانت لديها ــ فوق هذا ــ معرفة ومعلومات كانت تستغلها فى هذا الصدد باستمتاع . ولم تقنع بالأرض التى كانت تابعة للبيت الذى استولت عليه ، بل إنها كانت تستأجر تارة حقلا ، وتارة مرجا . وانتهت إلى أن ركزت روح ابتكار المشروع لديها فى الأمور الزراعية ، بدلا

(١) تقدير قيمتها وميزاتها .

من أن تبقى عاطلة فى الدار . وبدأت تعمل لكى تصير — فى القريب العاجل — مزارعة كبيرة !

ولم أكن أحب كثيرا أن أراها تتوسع فى ذلك ، فرحت أعارضها فيه قصارى ما استطعت ، وأنا واثق تمام الثقة من أنها كانت دائما تغتر فتخطىء ، وأن روحها المتحررة السخية كانت تحملها دائما على أن تنفق أكثر مما يعود عليها من إنتاج. على أننى وجدت عزاء فى التفكير فى أن هـذا الإنتاج لن يكون معدوما — على الأقل — وأنه قد يساعدها على العيش . . وبالنسبة إلى كافة المشروعات التى قدر لها أن ترسمها ، بدا لى هذا المشروع أقل إيقاعا للخراب بها . ومع أننى لم أر — مثلها — فيه موردا للربح ، إلا أننى رأيت فيه شاغلا يقيها باستمرار حيل المحتالين الخبيثة !

وبهذه الفكرة ، أصبحت أرغب كل الرغبة فى أن أسترد قوتى وصحتى معا ، حتى يتسنى لى أن أسهر على أعمالها ، وأن أغدو رئيسا لعمالها ، أو العامل الأول فى خدمتها . ومن الطبيعى أن المران والرياضة اللذين حملتنى هذه الرغبة على القيام بهما ، أصبحا ينتزعانى فى كثير من الأحيان من كتبى ، ويشغلانى عن حالى الصحية ، مما كان خليقا بأن يسير بها نحو التحسن !

من سنة ١٧٣٧ إلى سنة ١٧٤١

عاد « باريبو » من إيطاليا فى الشتاء التالى ، وقد جلب لى معه بعض الكتب ، منها كتابا الأب بانشيرى : « بونتمبى » و « كارتلا بير ميوزيكا » ، اللذان حببا إلى دراسة تاريخ

الموسيقى ، والأبحاث النظرية فى هذا الفن الجميل ، وبقى « باريبو » معنا فترة من الزمن . ولما كنت قد بلغت سن الرشد قبل ذلك ببضعة أشهر ، فقد اتفقنا على أن أذهب إلى (جنيف) فى الربيع التالى ، لأطالب بثروة أمى ، أو لأطالب — على الأقل — بذلك النصيب الذى خصنى منها ، ريثما نستبين ما ألم بأخى. ونفذت هذه الخطة كما اتفقنا ، فذهبت إلى جنيف حيث لحق بى أبى ، وكان قد ألف منذ فترة طويلة أن يزور المدينة دون أن يحتك به أحد ، بالرغم من أن الحكم الذى صدر عليه كان ما يزال قائما. ولكن أبى كان موضع التقدير لبسالته، والاحترام لأمانته ، فتظاهر أولو الأمر بأنهم نسوا قضيته الصغيرة . وكان الحكام فى شغل شاغل بالمشروع العظيم الذى بزغ فجره بعد ذلك بقليل ، ولذلك أبوا أن يثيروا ثائرة الطبقات الوسطى قبل الأوان ، بأن يذكروهم بتحزبهم السابق فى لحظة غير مواتية .

وخشيت أن تقوم فى وجهى الصعوبات بسبب ارتدادى عن مذهبى ، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث ، فقوانين جنيف فى هذا الشأن ليست فى صرامة قوانين (برن) ، حيث يفقد من يرتد عن دينه لا منزلته فحسب بل أملاكه أيضا . ولم يكن ثمة نزاع فى حقى ، إلا أن الميراث نفسه ، لسبب لا أدركه ، تضاءل إلى مبلغ تافه . ومع أن أخى كان — فى غالب الظن — قد لقى ربه ، إلا أنه لم يكن ثمة دليل قانونى على هذا . لم يكن عندى من الأسانيد ما يكفى لأن أطالب بنصيبه ، فتركته عن طيب خاطر لأبى يستعين به على حياته ، وقد كان له حق النفعة طالما هو على قيد الحياة . وما أن تمت الإجراءات القانونية وتسلمت

مالى حتى أنفقت شيئا منه فى شراء بعض الكتب ، وهرعت إلى «ماما» أضع الباقى تحت قدميها ، وكان قلبى يطفح بشرا أثناء الرحلة . وفى اللحظة التى وضعت فيها هذا المال فى يدها، كنت أسعد ألف مرة من اللحظة التى تسلمته فيها ! .. وتقبلت هى المال قبول النفس السامية الرفيعة ، التى لا تجد من العسير عليها أن تأتى مثل هذا الفعل ، فلا يدهشها أن يعاملها الغير نفس المعاملة .. وقد أنفقت المال كله تقريبا على شخصى ، بنفس تلك البساطة التى اتسمت بها . ولو كان هذا المال قد جاء من مصدر آخر لأنفقته على نفس هذه الصورة !

ولم أكن ، فى ذلك الوقت ، قد استعدت صحتى تماما ، بل ـ على العكس ـ كنت أذوى وأذبل بشكل واضح ! .. كنت فى شحوب الموتى وهزال الهيكل العظمى ، وكانت ضربات عروقى فظيعة لا تحتمل ، وازدادت نبضات قلبى ، وكنت أعانى على الدوام من عسر التنفس .. وازددت ضعفا آخر الأمر حتى كنت لا أكاد أستطيع الحراك .. كنت لا أستطيع أن أغذ السير إلا وأشعر بالاختناق ، ولا أنحنى دون أن يصيبنى الدوار، وتعذر على رفع أصغر الأثقال ، فأكرهت على البقاء ساكنا جامدا ، وهو أكبر عذاب يصيب رجلا فى مثل قلقى وضجرى . ولا شك فى أن مرضى كان مرده (الهستريا) إلى حد كبير، فكأنى قد بليت بذلك المرض الذى لا يصيب إلا السعداء ! .. فالدموع التى كثيرا ما كنت أذرفها دون سبب يدعو إلى البكاء .. وفرحتى وافتتانى بحفيف ورقة من أوراق الشجر ، أو تغريد طائر طروب .. ومزاجى المتقلب فى حياة بلغت ذروة الهناء

كل هذه كانت دلائل على كلال من تأثير السعادة يؤدى إلى حساسية مفرطة . ونحن لم نتزود للسعادة فى هذا العالم إلا بالقليل ، مما يقتضى أن يعانى الروح أو الجسم .. إذا لم يعانيا معا .. وسعادة الواحد منهما تؤذى الآخر دائما تقريبا . وبينما كنت مستطيعا أن أنعم بحياتى فى سعادة تامة ، فإن انحلال جهاز جسمى كان يحول بينى وبين ذلك ، دون أن يستطيع أحد أن يدلنى على موضع الداء منى . ويبدو أن جسمى قد استعاد فيما بعد قوته ، بالرغم من التداعى الذى أحسه فى كبرى وآلامى المبرحة الحقيقية التى أصبحت فى الكبر أشد قوة وتبريحا . واليوم ، وأنا أكتب هذه السطور ، وقد نال منى الضعف وبلغت الستين من عمرى أو أكاد ، وغلبتنى الآلام من كل نوع على أمرى ، أشعر أن فى كيانى من الحياة والقوة على احتمال الألم ، أكثر مما كان لدى من الحياة والقوة على الاستمتاع ـ فى ميعة الصبا ـ فى غمرة من أصدق آيات السعادة .

ورغبة فى إذلال نفسى إذلالا تاما ، شرعت ـ بعد أن قرأت شيئا من الفلسفة ـ فى دراسة التشريح ، وعرفت عدد الأعضاء المستقلة التى يتألف منها جهاز جسمى ووظائفها . وكنت أميل للشعور ، عشرين مرة فى اليوم ، بأن الخلل قد دب فى أعضائى جميعا ، ولم يكن يذهلنى قط أن أجدنى فى حالة احتضار ، وإنما كان يدهشنى أننى ما زلت قادرا على الحياة ! وكنت أعتقد أننى مصاب بكل مرض أقرأ أوصافه ، وإنى لمقتنع بأننى لو لم أكن مريضا فقد جعلتنى هذه الدراسة القاتلة كذلك .. فقد كنت

اجد فى الأعراض التى تنتابنى أعراض كل علة ، فحسبتنى مصابا بالعلل جميعا ! .. وبذلك انتابنى مرض ، هو أقسى الأمراض جميعا ، وكنت اظننى براء منه .. وأعنى به الرغبة الملحة فى أن اشفى ، وهى رغبة يتعذر على المرء أن يفلت منها إذا ما بدأ فى قراءة الكتب الطبية ! .. وانتهيت بشىء من البحث والتأمل والمقارنة إلى أن أساس مرضى هو « ورم ليفى فى القلب » ! .. وقد لاح على سالومون نفسه أن الفكرة أذهلته ، ولئن كان من الواجب أن تؤيدنى هذه الافتراضات تأييدا معقولا فى قراراتى السابقة ، إلا أن الحال لم تكن كذلك ، فقد بذلت كل ما وسعنى من جهد عقلى لأكتشف طريقة علاج الورم الليفى الذى يصيب القلب .. وقد صح منى العزم على أن أتكفل بهذا العلاج الرائع .

ولقد قيل للتعس «آنيه» فى رحلته إلى (مونبلييه) لزيارة حدائق النباتات ومسيو سوفاج ـ المعيد ـ بأن مسيو فيز قد شفى مريضا بهذا الورم الليفى ، وكان هذا كافيا لأن يوحى إلى برغبة ملحة فى أن اقصد مسيو فيز للاستشارة .. فقد أعاد الأمل فى الشفاء إلى نفسى الشجاعة وزودنى بالقوة على تجشم مشاق الرحلة ، وكان المال الذى جئت به من جنيف عونى على ذلك . وشجعتنى « ماما » على الذهاب ، وهى أبعد الناس عن أن تحاول إثنائى عن عزمى .. وهكذا وجدتنى فى طريقى إلى (مونبلييه) ! وما كانت بى حاجة لأن اذهب إلى هذا المكان النائى سعيا وراء الطبيب الذى أنا فى حاجة إليه ! .. واستقللت عربة فى (جرينوبل) ـ إذ كان ركوب الجياد يتعبنى كثيرا ـ فوصلت إلى (موران) ـ بعد عربتى ـ خمس أو ست عربات

غيرها ، الواحدة فى أثر الأخرى .. وكان معظم هذه العربات جزءا من موكب عروس زفت حديثا اسمها السيدة « دى كولمبييه » ، وكانت ترافقها سيدة أخرى هى السيدة « دى لارناج » ، أصغر منها سنا ، وإن لم تكن جذابة فى ملامحها مثلما هى فى ظرفها .. وكانت تنوى أن ترتحل من (رومانس) ـ وهى المدينة التى ستتوقف فيها السيدة « دى كولومبييه » ـ إلى مدينة (سانت أنديول) قرب (سان اسبرى) . ونظرا لما طبعت عليه من خجل ذاع صيته ، فلا تحسبن أننى تعرفت بهاتين السيدتين الظريفتين وحاشيتهما بسهولة .. ولكننى كنت أسافر فى نفس الطريق الذى يسافرون فيه ، وأنزل فى الفنادق نفسها التى ينزلون فيها ، فخشيت أن يقال عنى إننى أبعث على السأم والملالة ، وكنت مكرها أيضا على الجلوس معهم إلى مائدة واحدة .. فوجدت من المستحيل على آخر الأمر أن أتجنب التعرف بهم ، ففعلت هذا .. تعرفت بالسيدتين بأسرع مما كنت أريد ! .. وبرغم أن كل هذه الضوضاء لم تكن لتناسب رجلا مريضا ، وخاصة إذا كان فى مثل مزاجى ، إلا أن حب الاستطلاع يجعل هذه المخلوقات الماكرات غاية فى الاغراء ، حتى أنهن عندما يردن التعرف برجل ، يبدأن فى امتلاك لبه ، وهذا ما وقع لى ! .. بيد أنه كان يحيط بالسيدة دى كولومبييه بعض الشبان المتأنقين ، إحاطة السوار بالمعصم ، مما لم يفسح لها الوقت للتعرف بى .. أضف إلى هذا أن الأمر لم يكن ليستحق منها التفاتا طالما أننا كنا على وشك الافتراق . ولكن السيدة « دى لارناج » ، ولم يكن ليحيط بها هذا القدر من

المعجبين ، كان لا بد لها ان تتزود لرحلتها بما يلزم ، وهكذا كانت السيدة « دى لارناج » هى التى أخذت على عاتقها إذن ان تغزو قلبى .. ومنذ ذلك الحين ، وداعا لجان جاك المسكين ـ او على الأصح وداعا للحمى والهستيريا والورم الليفى ـ وداعا لكل شىء وأنا فى صحبتها ، فيما عدا بعض نبضات القلب التى بقيت ، والتى لم يبد منها أى ميل لشفائى منها . وكان سوء حالتى الصحية هو أول موضوع تطرقنا إلى الحديث فيه . لقد كانتا تريان أننى مريض وتعلمان أننى ذاهب إلى (مونبلييه)، ولا بد ان مظهرى واخلاقى قد جعلت من الواضح أننى لست خليعا .. ذلك انه تبين لى ، مما تلا من الحوادث ، أنهما لم تشتبها فى أننى ذاهب إلى مونبلييه لكى أعالج من نتائج الخلاعة . ومع أن سوء الصحة ليس مما يحبب النساء كثيرا فى المرء فقد أثار سقمى اهتمام هاتين السيدتين ، فكانتا ترسلان إلى فى الصباح تسألان عن حالى وتدعوانى إلى تناول الشكولاتة معهما ، وتسألانى كيف قضيت ليلتى .. وذات مرة أجبت بأننى لا أدرى ، على ما ألفت فى عادتى الحميدة من الكلام دون تفكير ، فحملهما هذا الرد على الاعتقاد بأننى مجنون ، وشرعتا تفحصانى بدقة أكثر . ولم أصب من ذلك بضرر، وإن سمعت السيدة « دى كولومبييه » تقول مرة لصديقتها : «إنه لا خلاق له ولكنه ظريف » ، وقد شجعتنى هذه الكلمات كثيرا ودعتنى إلى العمل بمقتضاها !

وازدادت علاقتنا توثقا ، فاضطررت إلى أن أتحدث عن نفسى ، وأن أفصح عمن أكون ومن أين أتيت . وقد سبب لى هذا شيئا من الحيرة والارتباك ، لأننى أدركت بوضوح ان كلمة

«مرتد» ستقضى على سمعتى فى الطبقة الراقية وبين السيدات المهذبات ، ولست أدرى أية نزوة غريبة تلك التى تملكتنى وجعلتنى أقول إننى إنجليزى ، ووصفت نفسى بأننى يعقوبى ، وسميت نفسى « دودنج» ، فأخذتا تدعوانى بالمستر دودنج ، وكان معنا شخص لعين هو « المركيز ده تورنيان » ، وكان مريضا مثلى ، إلا ان كبر سنه وسوء خلقه كانا ضغثا على إبالة، وقد استبدت به رغبة فى محادثة مستر دودنج ، وحدثنى عن الملك جيمس وعن مدعى العرش وبلاط سان جرمان القديم. وكنت على أحر من الجمر ، فإننى لم اكن أعرف شيئا عن كل هذا اللهم إلا القليل الذى قرأته فى كتاب الكونت هاملتون وفى الصحف ، ولكنى أحسنت استخدام ما كان فى جعبتى من معلومات ضئيلة حتى خرجت من ورطتى .. ولحسن الحظ لم يسألنى احد عن اللغة الإنجليزية التى لم اكن افهم منها كلمة !

وكنا على أطيب ما تكون العلاقات والود ، ننظر إلى فراقنا نظرة أسف وحسرة ، وكنا نسافر نهارا ، وفى صباح يوم أحد وجدنا أنفسنا فى (سان مارسيلان) ، وأبدت السيدة « دى لارناج » رغبتها فى حضور القداس، فصحبتها ، مما كاد يفسد خطتى : فقد مارست طقوس القداس كما كنت افعل دائما ، واستنتجت هى من سلوكى المتواضع المتحفظ أننى من المتعبدين ، فساءت فكرتها عنى ـ كما اعترفت لى بعد ذلك بيومين ! ـ وقد اقتضانى الأمر قدرا كبيرا من الكياسة كى أمحو هذه الفكرة السيئة ، أو بالأحرى أن السيدة دى لارناج ـ وهى المرأة المحنكة الخبيرة التى لا يدركها اليأس بسهولة ـ

كانت على استعداد لأن تخاطر بالتودد إلى لترى كيف أنقذ نفسى .. وقد أسرفت فى التودد حتى أننى ، وأنا الذى لا أغالى فى تقدير مظهرى الشخصى ، اعتقدت أنها تسخر منى ، وتملكتنى هذه الفكرة حتى لم يبق ضرب من ضروب الطيش والرعونة لم ارتكبه ! .. لقد كنت فى ذلك أسوأ من المركيز دى ليجز(١) ، وكانت السيدة دى لارناج ثابتة العزم ، فحاولت إغرائى كثيرا ، وكانت تحادثنى فى رقة بالغة ، حتى أن رجلا أحكم منى كان يجد من الصعب عليه أن يأخذ هذا كله مأخذ الجد ! وكلما الحت فى سعيها ازداد يقينى بفكرتى ، والذى عذبنى أكثر فأكثر أننى أصبحت جادا فى ولعى بها ، فقلت لها ــ ولنفسى ــ فى تأوه : « آه ! لو أن كل ما تقولينه كان صحيحا ، لكنت أسعد مخلوق ! » . وأعتقد أن بساطتى المجردة إنما خيبت ظنها ، ولكنها لم تكن مستعدة للاقرار بالهزيمة !

وكنا قد تركنا السيدة دى كولومبيه وحاشيتها فى (رومانس)، وتابعنا المسير فى بطء ونحن فى غاية السرور ـ السيدة دى لارناج والمركيز دى تورنيان وأنا ــ وكان المركيز ، بالرغم من أنه رجل مريض كثير التأفف والتذمر ، كيسا ظريفا ، غير أنه لم يكن مما يغتبط له أن يرى غيره من الناس يتمتعون ، دون أن يستطيع هو تذوق المتعة مثلهم ! .. ولم تعن السيدة دى لارناج إلا قليلا

(١) شخصية فى كوميديا « ماريفو » ، أحب لأول مرة وكان فى غاية الخجل من ان يبوح بحبه ، فى حين أن شخصية الكونتس كانت على النقيض من شخصيته تماما .

بإخفاء ميلها إلى ، حتى أنه كان أسرع منى فى ملاحظته . وكان يجب أن تزودنى تهكماته الخبيثة على الأقل بالثقة التى لم اكن لأجرؤ على استخلاصها من تودد السيدة إلى، لولا أننى ظننت ــ فى روح من العناد ، كنت أنا وحدى قادرا عليها ــ أنهما قد اتفقا على أن يلهوا على حسابى ! وأدارت هذه الفكرة السخيفة رأسى تماما آخر الأمر ، وجعلتنى ألعب دور الغر الأبله فى موقف ربما أمرنى فيه قلبى ــ وقد تملك الحب شغافه ــ بأن أتصرف تصرفا أفضل من هذا التصرف بكثير . ولست أدرى كيف أن السيدة دى لارناج لم يتملكها النفور من كآبتى بحيث كانت تنأى عنى وهى تزدرينى أشد الازدراء ، وإنما كانت امرأة بارعة تفهم من تعامل من الناس ، فرأت فى وضوح أن مسلكى كان يتسم بالغباء أكثر مما يتسم بفتور الهمة !

وأفلحت المرأة آخر الأمر ، وبشىء من المشقة ، فى البوح بما يكنه صدرها ، وكنا قد بلغنا (فالانس) فى موعد الغداء وبقينا بها ــ وفقا لعاداتنا الحميدة ــ بقية النهار ، وحططنا رحالنا خارج المدينة ، فى (سان جاك) ــ ولن أنسى هذا الفندق أو الغرفة التى كانت تنزل فيها السيدة دى لارناج ! ــ وقد أرادت أن تقوم بنزهة بعد الغداء ، وكانت تعلم أن المركيز ليس مولعا بالسير ، وكان هدفها من ذلك أن تنفرد بى ، وبيتت أن تنتفع بخلوتها معى أكبر انتفاع ممكن، ذلك أنه لم يبق ثمة وقت تضيعه، إن كان قد بقى شىء من الوقت تنتفع به .. وسرنا حول المدينة وعلى طول الخنادق ، وعدت ألقى على مسامعها قصتى الطويلة عن أمراضى ، فكانت تجيب عليها فى رقة بالغة ، وتضغط أحيانا

بذراعى على قلبها ، حتى أنه لم يكن يحول بينى وبين الاقتناع
بأنها تجد فى حديثها إلا غباوة كغباوتى ! .. أما الأمر الذى لم
يحسب حسابه فهو أن الحب كان قد نال منى منالا عظيما ،
فلقد سبق لى أن قلت إن السيدة كانت ظريفة ، وقد جعلها
الحب فاتنة ، وأعاد إليها كل بهائها فى صدر شبابها ، وكانت
تصطنع فى توددها من المكر والدهاء ما كان خليقا بأن يغرى
رجلا من أوسع الرجال خبرة وتجربة . وكنت قلقا مضطربا ،
وكثيرا ما هممت بأن أتجاوز معها حد الأدب ، لكن الخوف من
إساءتها أو إغضابها ، بل والخوف الأكبر من أن أصبح موضعا
للسخرية والاستهزاء ، وأن أزود المائدة بقصة تروى عنى ، وأن
يهنئنى المركيز العاتى ـ الذى لا يرحم ـ على بسالتى ، كل ذلك
عاقنى وأثار غيظى من خجلى الأخرق وعدم استطاعتى التغلب
عليه ، فى حين كنت أنحى على نفسى باللائمة من جرائه .. لقد
كنت فى عذاب أليم ، وكنت قد نبذت كلامى الذى يغلب عليه
الحياء ، فقد شعرت بسخافته بعد أن قطعت من الطريق
هذا الشوط الكبير . ولكنى ، وقد انتابتنى الحيرة فلم أعرف
كيف أتصرف أو ماذا أقول، لزمت الصمت وعلت وجهى الكآبة.
ومجمل القول أننى فعلت كل ما من شأنه أن يصيبنى بالمعاملة
التى كنت أخشاها ! .. على أن السيدة دى لارناج كانت
لحسن الحظ رحيمة رؤوفة ، فقطعت حبل السكون فجأة
بوضع ذراعها حول رقبتى ، ثم حدثتنى فمها ـ وقد أطبق على
فمى ـ فى لغة صريحة واضحة لم تدع لى مجالا لأى شك بعد
ذلك . وما كانت الأزمة لتقع فى لحظة أسعد من تلك اللحظة ،

فلقد أصبحت ظريفا ، ومنحتنى ثقتها ، وهى التى حال افتقارى
إليها دائما دون أن أكون طبيعيا . أما فى هذه المرة ، فقد كنت
على سجيتى ، ولم يحدث أن أجادت عيناى ومشاعرى وقلبى ،
فى الحديث ، مثل هذه الإجادة ! .. كما لم يحدث لى من قبل
أن أصلحت أخطائى هكذا تماما .. وإذا كانت هذه المغامرة
الصغيرة قد كلفت السيدة دى لارناج شيئا من الجهد والتعب،
فعندى من الأسباب ما يحملنى على الاعتقاد بأنها لم تندم
عليها !

ولو أننى عشت مائة عام لما استطعت أن أفكر قط فى هذه
المرأة الفاتنة دون فيض من السرور يطغى على ! وأنا أصفها
بالفتنة ، لأنها وإن لم تكن بالصغيرة أو الجميلة فإنها لم تكن
أيضا بالعجوز ولا بالدميمة ، ولم يكن فى وجهها ما يحول دون
أن يظهر ذكاؤها وظرفها فى أبهى حللهما . ونحن إذا قارناها
مقارنة مستفيضة بغيرها من النساء لوجدنا أن أقل ما يتصف
بالنضارة وجهها ، وأعتقد أنها أفسدته بما كانت تصبغه به من
المسحوق الأحمر (الروج) .. وقد كانت ثمة أسباب لاستهانتها
بفضيلتها ، فقد كانت هذه خير وسيلة تؤكد بها مفاتنها . كان
من الممكن أن تنظر إليها دون أن تحبها ، ولكن ما كنت لتستطيع
أن تمتلكها دون أن تعبدها ، ويلوح لى أن هذا من شأنه أن
يثبت أنها لم تكن تسرف دائما فى حبها إسرافها فيه معى ..
لقد كان توددها إلى مفاجئا حيا ، حتى ليتعذر على أن أجد
عذراء يبرره ، سوى أن قلبها كان له فى ذلك نصيب كنصيب
حواسها . وفى الفترة الوجيزة اللذيذة التى قضيتها معها ،

اجتمعت لى أسباب ذلك الاعتدال الذى أرغمتنى عليه وفرضته على فرضا ، فإنها — برغم كونها شهوانية جياشة العاطفة — كانت تفكر فى صحتى أكثر مما تفكر فى متعتها !

ولم يفت المركيز ما كان بيننا من تفاهم ! على انه لم يكف عن المزاح معى ، بل انه على النقيض كان يعاملنى — اكثر من ذى قبل — معاملة العاشق البالغ الحياء ، شهيد قسوة السيدة وصدودها ! ولم تكن تفلت منه كلمة او ابتسامة أو نظرة تدعنى اشتبه فى انه قد كشف أمرنا .. بحيث كان لى أن اعتقد اننا خدعناه ، لولا أن السيدة دى لارناج ، وكانت أكثر منى فطنة وحذقا ، أخبرتنى بأن الحال ليست كما وصفت ، بل إنه كان رجلا شهما من أصحاب المروءة والنبل .. والواقع انه ما من أحد كان يظهر ما أظهر من أدب ، أو يتصرف فى كياسة أكثر مما كان يتصرف هو دواما ، حتى نحوى أنا — فيما عـدا تهكمه ، وخاصة بعد نجاحى — ولعله كان يعزو الفضل فى ذلك إلى ، واعتبرنى شخصا غير ذلك الأحمق الذى كنت أبدوه — وقد كان فى ذلك مخطئا ، كما مر بنا ! — ومهما يكن من أمر فقد انتفعت بخطئه . ومن الحق أن أقول إننى ، وقد انقلبت كفة الميزان ، كنت احتمل نكاته بصدر رحب وسماحة ، بل كنت اجيبه عليها — والسعادة تغلب على — فخورا بأن اكشف أمام السيدة دى لارناج تلك الفطنة التى وصفتنى بها ، بعد أن لم أعد الرجل الذى كنته !

ولقد كنا فى الريف ، وفى فصل تشيع فيـه البهجـة ، واستمتعنا به غاية الاستمتاع بفضل المركيز ، ولو انى كنت

مستطيعا أن أستغنى عن عنايته بنا ، تلك العناية التى امتدت حتى شملت مخادعنا ، فقد كان يرسل خادمه ليحجز لنا حجراتنا مقدما . وكان هذا الوغد — إما من تلقاء نفسه أو بناء على أوامر المركيز — يحجز لسيده دائما غرفة مجاورة لغرفـة السيدة دى لارناج ، فى حين يلقى بنا فى الطرف الآخر من الفندق ! .. على أن هذا لم يسبب لى من الحرج إلا القليل ، بل أضاف إلى فتنة مقابلاتنا .. ودامت هذه الحياة البهجة السعيدة أربعة أو خمسة ايام ، ثملت خلالها بأحلى اللذات ! كانت لذة حية لا زيف فيها ، ولم تشبها أقل شائبة من الألم .. أول وآخر ما نعمت به من هذه المتع ! .. ولا يسعنى إلا القول بأننى مدين للسـيدة دى لارناج بأننى لن أرحل عن هذا العالم دون أن أعرف طعم المتعة واللذة !

لم يكن شعورى نحوها هو الحب بمعناه ، وإنما كان على الأقل مجاوبة رقيقة للحب الذى تظهره لى .. وكانت هى ملحة فى إشفاء غليلها من الصلة الجنسية ، حلوة فى ممارستها ، بحيث جعلت فيها كل ما يكون فى الهوى من فتنة وسحر ، مجردين من ذلك الهذيان الذى يدير العقل ويفسد المتعة . إننى لم اشعر بالحب الصادق إلا مرة واحدة فى حياتى ، ولم يكن هذا معها ، بل إننى لم أحبها كما أحببت وما زلت أحب مدام دى فاران ، ولكن امتلاكها كان يضفى على من المتعـة ما يفوق متعتى مع الأخرى مائة مرة ! .. لقد كانت متعتى مع « ماما » يشوبها دائما شعور بالحزن .. شعور دفين بالضيق ، موضعه القلب . وهو شعور كنت أجد صعوبة فى التغلب عليه ، بحيث انى بدلا من

تهنئة نفسى على امتلاكها كنت انحى على نفسى باللائمة لإذلالها وتحقيرها ! .. اما مع السيدة دى لارناج فقد كنت ، على العكس ، فخورا برجولتى وبسعادتى .. وأطلقت لنفسى العنان، فى اطمئنان وفرح ، لإشباع رغباتى . ولقد شاركتها الشعور الذى بعثته فيها ، وكنت امتلك زمام نفسى ، وانظر إلى فوزى نظرة الارتياح النفسى التى انظر بها تماما إلى المتعة ، واستمد منها الوسيلة التى تعيننى على مضاعفتها !

ولا أذكر متى تركنا المركيز ـ الذى كان من أهل المنطقة ـ غير اننا كنا وحدنا عندما بلغنا (مونتيليمار) ، حيث امرت السيدة دى لارناج خادمتها بأن تستقل عربتى، بينما ركبت أنا عربتها، واستطيع أن أؤكد لكم اننا بهذه الطريقة لم نجد الرحلة شاقة. وإنى لأجد من الصعب على ان اصف المنطقة التى اجتزناها ، وقد بقيت السيدة فى (مونتيليمار) ثلاثة أيام، لبعض شئونها ، على أنها لم تتركنى خلالها إلا ربع ساعة قامت فيها بزيارة ، عادت عليها بدعوات عاجلة ملحة . ولم تكن ميالة بأى حال من الأحوال لقبول هذه الدعوات ، فزعمت أنها متوعكة المزاج، على أن هذا لم يحل بيننا وبين السير سويا وحدنا ـ كل يوم ـ فى اجمل بقعة من بقاع الريف ، وفى ظل اجمل سماء فى العالم .. واحسرتاه على تلك الأيام الثلاثة ! لقد جد فى حياتى من الأسباب ما دعانى للندم عليها أحيانا ! فما استمتعت قط بمثلها بعد ذلك!

* * *

والحب اثناء السفر لا يمكن أن يدوم ، وهكذا اضطررنا للافتراق .. واعترف إن الوقت كان قد حان لذلك ، لا لاننى

افعمت وزهدت ، أو لسبب من هذا القبيل ، بل إنى كنت أزداد ولعا بها يوما بعد يوم ، غير انى بالرغم من حرصها ، لم يبق لى ـ فيما خلا صفاء النية ـ إلا القليل . وقبل أن نفترق أردت أن استمتع بذلك القليل ، فأذعنت هى لرغبتى، على سبيل الاحتياط من غادات (مونبلييه) . وتحايلنا على ما كان يعترينا من اسى بإعداد العدة للمقابلة مرة اخرى .. وكان قد تقرر أن استمر فى العلاج ، الذى أفادنى فائدة عظمى ، وأن أقضى الشتاء فى (سانت انديول) تحت رعايتها ، على أن أبقى خمسة أسابيع أو ستة فقط فى مونبلييه ، حتى افسح لها الوقت، لكى تعد الترتيبات التمهيدية الضرورية ، منعا للفضيحة . وقد لقنتنى التعليمات المفصلة عما كنت بحاجة إلى معرفته ، وعما يجب أن اقول والكيفية التى يجب أن اتعرف بها عليها ، وكان علينا فى الوقت نفسه أن نتبادل الرسائل . وقد حدثتنى طويلا فى جد واهتمام عن وجوب العناية بصحتى ، ونصحتنى بأن استشير بعض الأطباء الماهرين وأن أعنى باتباع ما يشيرون به ، واخذت على عاتقها ان تجعلنى انفذ تعليماتهم ، مهما كان من صرامتها، طالما انا معها . واعتقد انها كانت تتحدث فى صدق وإخلاص ، إذ انها كانت تحبنى ، وقد زودتنى بالأدلة الكثيرة على ذلك ، التى يعتمد عليها اكثر من الاعتماد على هبتها نفسها لى !.. وقد أمكنها أن تحكم من طريقة سفرى بأننى لم اكن أتمرغ فى المال ، ومع انها هى أيضا لم تكن بالموسرة بأى حال من الاحوال إلا انها كانت تريد أن تقاسمنى ما فى كيس نقودها ، وكانت قد جاءت به مليئا من (جرينوبل) .. وقد وجدت مشقة عظيمة

فى حملها على قبول اعتذارى ، وتركتها أخيرا ، تاركا فى قلبها ـــ فيما أعتقد ـــ حبا صادقا لى !

وانتهت رحلتى ، بينما كنت أستعيدها فى ذاكرتى منذ البداية ، وكنت قانعا فى تلك اللحظة كل القناعة بأن أجلس فى عربة مريحة أحلم ، فى راحة ويسر ، بالمتع التى كان من نصيبى ان أنعم بها ، وبتلك التى وعدتنى بها . لم أكن أفكر إلا فى (سانت انديول) والحياة البهيجة التى كانت تنتظرنى فيها ، ولم اكن ارى إلا السيدة دى لارناج وبيئتها .. أما بقية العالم فلم تكن بالنسبة لى شيئا مذكورا ، حتى « ماما » نسيتها ، واستغرقت فى التفكير فى كافة التفاصيل التى ذكرتها لى السيدة دى لارناج حتى توحى إلى مقدما بفكرة عن منزلها وعن جيرانها وأصدقائها وطريقة حياتها . وكانت لها ابنة ، كثيرا ما حدثتنى عنها فى عبارات من الحب أسرفت فيها كل الإسراف ، وكانت ابنتها هذه فى السادسة عشرة من عمرها ، رشيقة فاتنة ودود . ووعدتنى السيدة دى لارناج بأننى سأكون ولا شك صاحب الحظوة الكبرى عندها . ولم أنس هذا الوعد ، وقد استبد بى الفضول لكى ارى كيف تتصرف الآنسة دى لارناج نحو صديق أمها الحميم ! كانت تلك هى احلامى من (بون سان اسبرى) حتى (ريمولان) .. ولقد قيل لى أن اذهب واشاهد «بون دوجار» (جسر الحرس) . ولم يفتنى أن أفعل ، فلقد كان الجسر هو الأثر الرومانى الأول الذى شاهدته . وانتظرت أن أرى نصبا جديرا بالأيدى التى أقامته .. وللمرة الأولى والأخيرة فى حياتى

جاوزت الحقيقة ما كنت أتخيل : لم يكن يستطيع غير الرومان إقامة هذا الأثر الخالد !

لقد أثر فى نفسى منظر هذا العمل البسيط ، النبيل مع ذلك، أعظم تأثير .. ذلك أنه كان يقوم فى قلب الصحراء ، حيث السكون والوحدة يبرزان الأشياء إبرازا عظيما ويثيران شعورا بالإعجاب أقوى وأشد ، إذ أن هذا الجسر المزعوم لم يكن إلا مجرى ماء فوقه قناطر ، ومن الطبيعى أن يتساءل المرء أية قوة تلك التى نقلت هذه الأحجار الضخمة إلى هذا المكان النائى عن أى محجر من المحاجر ، وتمثلت فى أذرع الآلاف المؤلفة من الرجال فى بقعة لا يقيم أحد منهم فيها !

واجتزت الطبقات الثلاث التى كان يتألف منها هذا البناء البديع ، وكنت أشعر داخلها باحترام كاد يمنعنى من أن أطأها بقدمى ! وحملنى صدى وقع قدمى تحت هذه الأقبية العظيمة على أن أتخيل أننى أسمع الأصوات القوية لأولئك الذين أقاموا صرحها ! شعرت أننى ضائع فى وسط هذه العظمة كأننى الحشرة ، وشعرت بالرغم من إحساسى بضآلتى كأن روحى قد سمت بطريقة ما ، وقلت أحدث نفسى وأنا أتأوه : « لماذا لم أولد رومانيا ؟ » ، وبقيت فى ذلك المكان بضع ساعات فى تأمل يذهل العقل ، وعدت وأنا سارح الفكر ، ولم يكن شرود الفكر ليوافق السيدة دى لارناج ، وهى التى عنيت بأن تحذرنى من فتيات (مونبلييه) ، لا من جسر الحرس . لكن المرء لا يفكر فى كل شىء !

وفى (نيم) ، ذهبت لاشاهد الملعب المدرج ، انه عمل أكثر روعة بكثير من جسر الحرس ، إلا ان تأثيره على كان اقل بكثير من تأثير الجسر .. فلما أن الجسر قد استنفد كل إعجابى ، أو ان المدرج ، وهو يقع فى وسط المدينة ، كان اقل من أن يثير إعجابى ! لقد كانت تحيط بهذا الميدان البديع الفسيح الأرجاء منازل صغيرة قبيحة ، وامتلأت الحلبة بمنازل أخرى ، أصغر وأقبح ، حتى أن المنظر كله كان يبعث فى النفس الشعور بالاضطراب وعدم التناسق ، كما كان النفور يخمد المتعة والدهشة ، وقد رأيت منذ ذلك الحين ملعب « فيرونا » وهو اصغر بكثير واقل مهابة وجلالا ، ولكنهم احتفظوا به فى أكبر قدر ممكن من النظافة والأناقة ، ولهذا السبب وحده اثر فى تأثيرا أبلغ واقوى ، ووقع من نفسى موقع القبول .. إن الفرنسيين لا يعنون بشىء ولا يحترمون النصب ، وهم تواقون أشد التوق للقيام بأى عمل ، ولكنهم لا يعرفون كيف يتمونه أو كيف يحفظونه سليما إذا ما انتهوا منه !

لقد تبدلت حالى كثيرا ، واستيقظت أحاسيسى ـ وكانت قد تنبهت إلى العمل ـ حتى بقيت يوما باكمله فى فندق (بون دى لونيل) لأنعم مع الزائرين الآخرين بطيب الجو الذى شاع فيه . وكان هذا الفندق ـ إذ ذاك ـ أشهر فندق فى أوربا ، كما كان جديرا بما اكتسب من صيت ، فقد عرف أصحابه كيف يستغلون موقعه البديع ، فزودوه بوفرة من أطايب المأكولات . لقد كان من الغريب حقا أن تجد فى دار نائية منعزلة ـ وفى وسط الريف ـ مائدة زودت بسمك البحر وسمك النهر ولحوم الصيد البديعة والخمور المنتقاة ، تقدم لك فى أدب وكياسة لا تجدهما إلا فى بيوت

العظماء والموسرين .. وكل هذا بخمسة وثلاثين « سو » لشخص ! .. إلا أن « جسر دى لونيل » لم يبق فى هذا المستوى طويلا ، إذ انه تمادى فى استغلال سمعته ، حتى فقدها بأسرها فى النهاية !

ولقد نسيت أثناء رحلتى أننى كنت مريضا ، فلم أتذكر ذلك إلا عندما بلغت (مونبلييه) . ولقد كان من المحقق أننى شفيت من نوبات الهستيريا التى كانت تنتابنى ، إلا أن كل عللى الأخرى بقيت . ومع أن اعتيادى إياها جعلنى اقل إحساسا بها ، إلا أنها كانت تكفى لأن تحمل أى إنسان على الاعتقاد ـ إذا ما تعرض لنوباتها فجأة ـ بأنه على باب القبر .. كانت هذه العلل ـ فى الواقع ـ اكثر بعثا للانزعاج منها إثارة للألم ، وكانت تسبب من عذاب العقل أكثر مما تسبب من عذاب الجسم ، وهى التى كانت تعلن عن تدميره فيما يلوح . ومن ثم فإننى كنت ـ حين أشغل بالانفعالات العنيفة ـ لا أفكر فى حالتى الصحية . ولكن عللى لم تكن خيالية ، فكنت أعود إلى الاحساس بها مرة أخرى عندما يعاودنى هدوئى ، وبدأت عندئذ افكر تفكيرا جديا فى نصيحة السيدة دى « لارناج » ، وفى هدفى من رحلتى ، فاستشرت أشهر الأطباء وعلى الأخص السيد « فيز » .

وزيادة فى الحيطة ، نزلت عند طبيب . كان إيرلنديا اسمه « فيتز موريس » ، وكان ينزل عنده عدد عظيم من طلبة الطب . ومما جعل منزله أكثر مدعاة لراحة المريض المقيم ، أنه كان يقتنع بأجر معقول لقاء المآكل والمسكن ، ولا يتقاضى شيئا من

نزلائه فى مقابل الرعاية الطبية ، وقد أخذ على عاتقه أن ينفذ تعليمات السيد « فيز » ، وأن يعنى بصحتى . أما فيما يتعلق بالغذاء فقد كان يوفى ما عليه وفاء يدعو للاعجاب ، فلم يكن بين النزلاء من يعانى عسر الهضم . ومع أننى لم أكن ممن يأبهون بالحرمان من الطعـــام ، إلا أن الفرص التى تهيىء لى المقـــارنة كانت فى متناول يدى ، حتى أننى لم اتمالك فى بعض الأحيان من أن أتبين ــ فيما بينى وبين نفسى ــ أن السيد دى «تورنيان» كان موردا للأغذية أفضل من السيد « فيتز موريس » ، وعلى كل حال فلم نكن نشكو الجوع تماما ! . وكان الطلبـــة الشبان غاية فى المرح ، وقد أفادنى حقا هـــذا الأسلوب من أساليب الحياة ، وحال دون إصابتى بما كان ينتابنى قبلا من الاكتئاب . وكنت أقضى الصباح فى تناول الأدوية ، وخاصة بعض المياه ــ التى اعتقد أنها كانت تأتى من (فالس) ، وإن لم اكن واثقا من ذلك ــ وفى الكتابة إلى السيدة دى «لارناج» . ذلك أن الرسائل ظلت مستمرة ، وقد آلى روسو على نفسه أن يأتى بخطابات صديقه « دودنج » .

وكنت أنطلق ــ عند الظهر ــ فى جولة إلى (كانورج) مع احد زملائنا الشبان الذين كانوا ينزلون معنا . وقد كانوا جميعا على خلق عظيم . وكنا نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء ، فإذا ما فرغنا منه ، كان معظمنا يشغل بمسألة هامة حتى المساء . . تلك هى أننا كنا ننطلق إلى خارج المدينـــة ، لنلعب دورين أو ثلاثة من لعبة الكرة والصولجان ، ولنتناول شـــاى الأصيل . ولم أكن أشترك فى اللعب معهم ، إذ لم تتوفر لى القوة أو

البراعـــة فى اللعب ، ولكنى كنت أراهن على النتيجـــة . . وهكذا كنت أتبع لاعبينا وكراتهم عبر الطرق الوعرة الصخرية ، وأنا مهتم برهانى ، فأنعم برياضـــة صحية ممتعـــة ، كانت تناسبنى إلى أقصى حد . وكنا نتناول الشاى فى مقصف خارج المدينة ، وغنى عن البيان أن هذه الوجبات كانت مليئة بالمرح ، ولكنى أضيف إلى هـــذا أنها كانت محتشـــمة ، بالرغم من أن فتيات المقصف كن جميلات ! . . وكان رئيس الفريق هو السيد « فيتز موريس » نفسه ، فقد كان لاعبا عظيمـــا . وأستطيع أن أقرر ــ بالرغم من سوء سمعة الطلبة ــ أننى وجدت بين هؤلاء الشبان من الأدب والحشمة ما لا يسهل العثور عليه بين عدد مساو لهم من الرجال الناضجين . . كانوا أميل للضوضاء منهم للفسق ، وللمرح منهم للخلاعة . ولمـــا كان من السهل على أن أعتاد أى سبيل من سبل الحيـــاة ــ عندما يكون ذلك باختيارى ــ فاننى لم أعد أتمنى اكثر من استمرار هذه الحال .

وكان بين الطلبة عدد من الايرلنديين حاولت أن أتعلم منهم بضع كلمات إنجليزية تأهبا لذهابى إلى (سانت أنديول) ، فقد كانت السيدة دى « لانارج » تستحثنى فى كل بريد ، وكنت على استعداد لكى أذعن إلى رغبتها . وكان من الواضـــح أن أطبائى ــ وقد غاب عنهم علتى ــ اعتبروا الا وجود لهـــا إلا فى مخيلتى . وبناء على هذا فإنهم كانوا يعالجوننى بأعشابهم الصينية ومياههم واللبن الخثر . . والأطباء كالفلاسفة ، ولكنهم يختلفون جد الاختلاف عن علماء أصول الدين ، إذ أنهم لا يقرون بأن شيئا ما صحيح إلا إذا كان فى استطاعتهم أن يعللوه ، كما

أنهم يجعلون من إدراكهم مقياسا لكل ما هو ممكن ! .. ولم يكن هؤلاء السادة يدركون شيئا عن علتى ، ولذلك لم أك مريضا البتة ، فى رأيهم !. فإن الأطباء يعرفون كل شيء طبعا!.. وكنت أرى أنهم إنما يحاولون خداعى وحملى على إنفاق مالى ، ولما كنت أعتقد أن نائبتهم فى (سانت انديول) ستفعل عين ما كانوا يفعلون ـ ولكن بطريقة أظرف ـ فقد صح عزمى على أن أفضلها عليهم ! .. وما أن قر رايى على هذا القرار الحكيم، حتى رحلت عن (مونبلييه) ، فغادرتها فى أواخر شهر نوفمبر، بعد أن أقمت فيها ستة أسابيع أو شهرين ، وبعد أن أنفقت فيها اثنى عشر « لوى »(١) ، دون أن يعود ذلك بأى نفع على صحتى أو على إدراكى ، اللهم فيما عدا منهج فى التشريح بدأته تحت إرشاد السيد « فيتز موريس » ، واضطررت أن أكف عن تلقيه نظرا للرائحة النتنة التى كانت تتصاعد من الجثث المشرحة ، فقد وجدت أن من المستحيل على أن احتملها!

***

وشعرت أننى غير مستريح للقرار الذى اتخذته، فشرعت أفكر فيه وأنا أواصل رحلتى صوب (بون سان اسبرى) وكان الطريق يؤدى إلى (شامبيرى) كما كان يؤدى إلى (سانت انديول) ، فأثارت ذكرى « ماما » ورسائلها ـ ولو أنها لم تكن تكتب كثيرا كما كانت السيدة دى « لارناج » تفعل ـ لواعج الحسرة فى فؤادى من جديد ، بعد أن كنت قد أخمدتها فى

(١) اللوى عملة ذهبية كانت قيمتها ٢٠ فرنكا .

الشطر الأول من رحلتى .. وكانت فى عودتها قوية عنيفة ، حتى أنها رجحت على حب المتعة، فلم أجد مناصا من الاستماع إلى صوت العقل وحده . ولعلنى كنت فى دور الأفاق ـ الذى عدت إلى الشروع فى أدائه ـ أقل توفيقا وحظا مما كنت فى المرة الأولى . ذلك لأن الأمر ـ فى هذه المرة ـ لم يكن يتطلب سوى أن يوجد فى بلدة (سانت انديول) بأسرها ، شخص واحد ، سبق له أن زار إنجلترا ، وعرف الإنجليز ، وتمكن من لغتهم ، حتى يفتضح أمرى ! .. وكان من المحتمل الا أروق لأسرة السيدة دى « لارناج » ، فتعاملنى بقليل من الكياسة . إذ كانت ابنتها ـ التى كنت أفكر فيها ، بالرغم منى ، أكثر مما كان ينبغى ـ تسبب لى قلقا لم يفارقنى .. وكنت أرتجف لمجرد احتمال أننى قد أقع فى هواها ! .. وكان هذا الخوف يؤلف نصف العوامل التى كانت تحملنى على العدول .. وكنت أقول لنفسى : أترانى ـ فى مقابل أفضال الأم ـ أسعى لإفساد الابنة وللدخول معها فى علاقة بغيضة ، تصيب الأسرة بالتصدع والعار والفضيحة والجحيم معا ؟

كانت هذه الفكرة توقع الرعب فى نفسى ، ومن ثم فقد صممت تصميما جازما على أن أقاوم هذه النفس وأهزمها ، إذا أنا شعرت بمثل هذه الرغبة الدنيئة . ولكن .. لماذا أعرض نفسى لصراع كهذا ؟ .. أية حال تعسة من العيش تلك التى تدعونى إلى أن أحيا مع الأم ـ التى كنت أوقن من أننى سئمتها ـ بينما يضطرم قلبى بحب الابنة ، دون أن أجرؤ على أن أكشف لها قلبى ؟ .. وأية ضرورة تدعونى إلى السعى نحو حال

كهذه ، أتعرض فيها للبلايا والإهانات والندم ، فى سبيل متع حظيت مقدما بأعظمها فتنة ؟ .. ذلك انه كان من المحقق أن أهوائى كانت قد فقدت حدتهــا الأولى .. كان الميل للمتعــة ما يزال قويا ، ولكن العاطفة المتأججة كانت قد ولت . وقــد خالطت ذلك أفكار تتصل بموقفى ، وواجبــاتى ، وتلك الأم المفرطة الطيبــة والكرم ، التى تورطت فى ديون ـــ فوق التى كانت تثقل عاتقها ـــ فى سبيل نفقاتى الطائشة ، والتى أنفقت كل ما كانت تملك من أجلى ، أنا الذى كنت أخدعها بخسة .. ولقد اشتد هذا التأنيب وثقل على ضميرى حتى انقلبت الكفة آخر الأمر ، فما أن اقتربت من (سان اسبرى) ، حتى قررت أن أسرع باجتياز (سان انديول) دون أن أتوقف فيهــا . ونفذت هذا القرار ببسالة ، وإن كنت لا أنكر أننى زفرت بعض زفرات . بيد أننى فى رضائى عن نفسى ، كنت أتذوق ـــ للمرة الأولى فى حياتى ـــ لذة القدرة على ان أقول : « من حقى أن أشيد بذكر نفسى ، فاننى أعــرف كيف أقــدم واجبى على متعتى » !

وهذا هو الالتزام الحقيقى الأول ، الذى خرجت به من دراستى ، إذ أنها علمتنى ان أفكر ، وأن اقارن .. وبعد مبادىء الطهر والعفة ـــ التى انتهجتها منذ عهد قريب ـــ وبعد قواعد الحكمة والفضيلة التى ارتضيتها لنفسى ، والتى كنت فخورا كل الفخر باتباعها ، وجدتنى أشعر بالخزى من أن أكون متساهلا مع نفسى ، ومن أن أخالف قواعدى المقررة بهذه السرعة وهذه القوة ، وطغى هذا الشعور على ، فانتصر على المتعة ، وربما

كان للاعتزاز بالنفس نصيب ـــ فى قرارى ـــ يعــادل نصيب الفضيلة سواء بسواء . ولكن ، إذا لم يكن هذا الاعتزاز هــو الفضيلة ذاتها ، فإن آثاره كانت تشابه آثار الفضيلة إلى درجة أن المرء يخطىء فى التفريق بينهما !

ومن الآثار الطيبة للأفعال الصالحة ، أنها تسمو بالروح وتميل بها إلى الاتيان بشىء أفضل ، ذلك أن الضعف البشرى بلغ مبلغا عظيما ، حتى لينبغى لنا أن نسلك فى عداد الأفعال الصالحة الامتناع عن الشر الذى تغرينا نفوسنا على ارتكابه .. وما أن اتخذت قرارى حتى أصبحت رجلا آخر ، أو ـــ على الأصح ـــ أصبحت الرجل الذى كنته من قبل .. الرجــل الذى حملته نشوة هــذه التجربة على أن يختفى . فواصلت رحلتى وقد انطوى صدرى على أطيب المشاعر وأفضل القرارات ، منتويا التكفير عن خطئى ، وعدم التفكير إلا فى تنظيم ســلوكى فى المستقبل على أساس من قوانين الفضيلة ، مكرسا نفسى دون قيد أو شرط لخدمة أبر الأمهات ، منذرا لها إخلاصا يعــادل حبى لها ، منصتا لنداء واجبى وحده ، ولكن واأسفاه ! ..

كان إخلاصى فى العودة إلى الفضيلة ، يبدو وكأنه يخبىء لى مصيرا آخر . بيد أن مصــيرى الحقيقى كان قد كتب فى لوح القدر ، وبدأ يتحقق فعلا . وفى اللحظة التى لم يكن فيها قلبى ـــ الزاخر بحب كل ما هو طاهر وشريف ـــ يرى أمامه سوى البراءة والسعادة ، كنت أقترب من اللحظة القاتلة التى قدر لها أن تجر وراءها تلك السلسلة الطويلة من الكوارث التى حلت بى !

كان تعجل الوصول قد جعلنى أسرع فى سيرى أكثر مما

كنت أنتوى ، وكنت قد أرسلت خطابا إلى « ماما » من (فالانس)
أخبرها فيه باليوم والساعة اللذين توقعت أن أصل فيهما .
ولما كنت قد استبقت موعدى بنصف يوم ، فقد قضيت ذلك
الوقت فى (شاباريان) لكى أصل فى اللحظة التى عينتها بالضبط ،
وكنت أتوق إلى أن استمتع غاية الاستمتاع بمرآها ثانيــة ،
ففضلت أن أؤجل وصولى قليلا حتى أضيف إلى ذلك متعــة
الشعور بأن ثمة من ينتظره . وكان حليف هذا الإجراء النجاح
دائما ، فقد كنت أجد القوم يحتفلون بوصولى ــ فى كل مرة ــ
وكأنه يوم عيد صــغير . وهذا ما توقعته فى هذه المناسبة ،
وكانت تلك العناية ــ التى كانت تهفو بالقلب والمشــاعر ــ
جديرة بالتعب الذى كان يبذل فى سبيل الظفر بها !

ووصلت فى اللحظة التى عينتها تماما . ومــذ كنت على
مسافة بعيدة من غايتى ، رحت أنعم النظر فى الطريق ، علنى
أراها .. « ماما » ! .. وراح قلبى يخفق فى عنف أخذ يطرد
بازدياد اقترابى . ووصلت وأنا الهث ، إذ أننى كنت قد تركت
عربتى فى المدينة .. ولم أر أحدا فى الفناء أو عند الباب أو مطلا
من النافذة ، فبدأ القلق يساورنى خشية أن يكون قد وقع حادث
.. ودخلت فإذا كل شىء هادىء ، وبعض العمال يأكلون فى
المطبخ ، ولم تكن ثمة إمارات تنم عن أن القوم ينتظروننى .
وبدت الدهشة على الخادم لرؤياى إذ أنها كانت تجهل أمــر
قــدومى . وصــعدت الدرج .. وأخيرا رأيتها .. تلك الأم
العزيزة ، التى اجتمع لها فى قلبى كل ما فى الحب من رقة وقوة
وإخلاص . وهرعت إليها ، فألقيت نفسى عند قدميها . وقالت

لى وهى تعانقنى : « آه إذن فقد عدت أيها الصغير ! .. أكانت
رحلتك ممتعة ؟ .. كيف حالك ؟ » . وأذهلنى هذا الاستقبال
بعض الشىء ، فسألتها عما إذا كانت قد تلقت خطابى . وأجابتنى
بنعم ، فقلت : « ما كنت أعتقد هذا » . وانتهى الحديث عند
هذا الحد ، فقد كان معها شاب تذكرت أننى رأيته فى المنزل
قبل رحيلى ، ولكنه بدا ــ فى هذه المرة ــ وكأن المقام قد استقر
به هناك ، وكان ذلك هو الواقع فعــلا . ومجمل القول أننى
وجدت من حل محلى !

وكان هذا الشاب من منطقة (فو) ، وكان أبوه ــ واسمه
« فنتزنريد » ــ أمين حصن (شييون) ، أو كبير ضباطه كما
كان يدعو نفسه . أما الابن فقد كان عاملا يصــنع الشــعر
المستعار ، وكان يطوف بالبلاد ممارسا مهنته ، عندما قــدم
نفســه إلى السيدة دى « فاران » فأحسنت اســتقباله ، كما
كانت تفعل مع عابرى الطريق جميعا ، لا سيما أولئك الذين
يكونون قادمين من مسقط رأسها . وكان الشاب ذا شــعر
أشقر غزير حائل اللون ، وجسم بديع التكوين ، ووجه سمين ،
وعقل فى ثقل جسمه ! .. فقد كان يتحدث كالمغرور المتحذلق ،
وهو يخلط بين اللهجات ، ويمزج الأحاديث التى تتطلبها مهنته
بقصــة طويلة ــ عن مغامراته وفتوحاته الغرامية ــ لم يكن
يضمنها ، فيما زعم ، سوى نصف من ضاجعهن من المركيزات !
.. وكان يدعى أنه ما صفف شــعر حسناء ، إلا وزين رأس
زوجها أيضا ! .. كان مغرورا أخرق جاهلا وقحا ، أما فيما
عدا هذا ، فقد كان من أحسن الشبان فى العالم ! . ذلك هو

البديل الذى حل محلى اثناء غيابى والرفيق الذى قدموه إلى بعد عودتى ! وإذا كانت الأرواح التى تنطلق من القيود الدنيوية ، تظل ترى ـ خلال أضواء الأبدية ـ ما يجرى بين أهل الأرض ، فاغفر لى ـ إذن ـ أيها الطيف الحبيب الأثير ، أننى لا أغض الطرف عن أخطائك ولا عن أخطائى ، بل أننى اكشف عنهما جميعا أمام القارىء ، وعلى قدم المساواة ! .. لسوف أكون ـ ولابد لى من أن أكون ـ صادقا نحوك صدقى نحو نفسى ، ولن يصيبك من ذلك قط إلا ما يقل كثيرا عما يصيبنى أنا ! .. آه ! كم يكفر خلقك الوديع الرقيق ، وطيبة قلبك ـ التى لا ينضب معينها ـ وصراحتك ، وكل صفاتك الباعثة على الإعجاب .. كم تكفر هذه عن نقاط ضعفك ، إذا ما ذكرت تلك الهفوات التى يمكن أن توصف بأنها من أخطاء عقلك وحده ! .. لقد أخطأت، ولكنك كنت براء من الرذيلة ـ ولقد استحق مسلكك اللوم ، ولكن قلبك ظل نقيا دائما .

ولقد أظهر القادم الحديث غيرة وحمية وعناية بتنفيذ الشئون الصغيرة العديدة التى كانت « ماما » تحتاج إليها ، ونصب نفسه رئيسا على عمالها .. وكان كثير الضجيج ، بقدر ما كنت شديد الهدوء ! .. كان القوم يرونه ويسمعونه فى كل مكان فى وقت واحد : عند المحراث ، وفى مخزن الدريس ، وفى مخزن الخشب ، وفى الاسطبل ، وفى ساحة المزرعة . وكانت فلاحة البساتين هى الشىء الوحيد الذى أهمله، إذ أنها كانت هادئة جدا ، لا تهيىء الفرصة لإحداث ضوضاء .. كان يفرح أشد الفرح بوسق عربة وقيادتها ، ونشر الخشب أو

تكسيره .. فما كنت تراه إلا والفأس أو البلطة فى يده ، وهو يعدو ويدفع ما أمامه ويصيح بكل ما فيه من قوة .. ولست أدرى كم من عمل الرجال قام به ، ولكن الذى أدريه أنه كان يحدث من الضوضاء قدر ما يحدثه عشرة رجال أو اثنا عشر . وكانت كل هذه الضوضاء والحركة تخدع «ماما» المسكينة ، فقد حسبت أنها وجدت فى هذا الشاب كنزا يعاونها فى شئونها ، وأرادت أن تحمله على التعلق بها فاستخدمت فى ذلك كل السبل التى اعتقدت أن من الممكن أن تأتى بالنتيجة المرجوة .. ولم تنس ذلك السبيل الذى كانت تعول عليه أكثر من سواه !

ولابد أن القارىء قد استشف شيئا عن قلبى ، وعن مشاعره الصادقة الثابتة، لا سيما تلك التى حدت بى إلى العودة إلى « ماما » إذ ذاك ، ولكن يا للانقلاب المفاجىء الكامل فى كيانى كله ! .. فليضع القارىء نفسه فى موضعى ، ليستطيع الحكم ! .. لقد رأيت كل ذلك المستقبل السعيد ـ الذى تخيلته لنفسى ـ يتلاشى فى لحظة ، وتبددت أحلام السعادة التى كنت أعتز بها اعتزازا .. ووجدتنى للمرة الأولى وحيدا ، أنا الذى الفت منذ صباى الا أرى لنفسى وجودا إلا فى وجود « ماما » ! .. كانت تلك اللحظة فظيعة ، ولكن اللحظات التى تلتها كانت قاتمة كئيبة .. كنت ما ازال شابا ، ولكن ذلك الشعور العذب بالمتعة والأمل ـ الذى يبعث الحياة فى الشباب ـ كان قد هجرنى إلى الأبد . ومنذ ذلك الحين مات فى أعماقى الحس المرهف ـ نصف ميتة ـ ولم أعد أرى أمامى الا أطلالا حزينة لحياة تافهة ، فإذا ما أذكى شهواتى ـ بين الحين والحين ـ طيف

من سعادة ، فإن هذه السعادة لا تبدو لى حقيقية . . بل أننى كنت أوقن بأن ظفرى بها ، لن يجعلنى سعيدا حقا !

ولقد كنت غاية فى السذاجة ، كما كانت ثقتى بماما جد عارمة ، حتى أننى لم احدس قط السبب الحقيقى للهجة الآلفة التى كان القادم الجديد يتحدث بها ، والتى اعتبرتها من نتائج طبيعة « ماما » السهلة الهينة التى تجتذب الناس جميعا إليها . . وما كنت لأحدس الأمر، لو لم تبح به هى نفسها ، فقد بادرت إلى الاعتراف ، فى صراحة كان من المحتمل أن تذكى سخطى ، لو أن قلبى كان يتسع لمزيد من السخط . . ذلك أنها كانت ترى الأمر بسيطا ، فقد عابت على إهمالى أثناء وجودى فى البيت ، وتذرعت ضدى بغيابى المتكرر ، وكأنما كانت طبيعتها تقتضيها ملء الفراغ بأسرع ما يمكن ، فقلت لها وقلبى يتمزق حزنا : « واها ياماما . . ما هذا الذى تجرؤين على أن تحدثينى به ؟ . . يا له من جزاء على إخلاص كذلك الذى آثرتك به ! . . هل انقذت حياتى هكذا مرارا ، لغير ما داع إلا لتحرمينى ذلك الذى جعلها عزيزة عندى ؟ . . ان هذا سيوردنى مورد التهلكة، ولكنك ستأسفين على فقدى !» . فردت ـــ فى هدوء كان خليقا بأن يدفعنى إلى الجنون ـــ بأننى طفل ، وأن الناس لا يموتون من مثل هذه الأمور ، وأننى لم أفقد شيئا ، واننا خليقان بأن نكون صديقين حميمين ـــ بكل ما للصداقة من معنى ـــ وثيقى الصلة فى كل أمر من الأمور ، وان حبها العميق لى لن يقل ولن ينتهى إلا بانتهاء حياتها ! . .

ومجمل القول أنها جعلتنى أدرك أن جميع مزاياى باقية على ما كانت عليه ، وأننى لن أجد أى نقص فيها ، بالرغم من أن ثمة من أصبح يشاركنى إياها . ولم يظهر قط حبى لها ـــ فى صفائه وصدقه وقوته ـــ ولا ظهرت روحى ـــ فى إخلاصها واستقامتها ـــ مثلما ظهرا على هذه الصورة الواضحة ، فى تلك اللحظة . فقد ألقيت بنفسى عند قدميها ، وذرفت الدموع مدرارا ، وامسكت بركبتيها ، وهتفت بها وأنا شارد الفكر : « كلا يا ماما ! . . إننى احبك حبا أعمق من أن يسمح لى باذلالك، وامتلاكك أغلى عندى من أن أستطيع مشاركة آخر فيه . . إن الندم الذى شعرت به عندما وهبتنى نفسك ـــ لأول مرة ـــ قد ازداد بازدياد حبى ، ولن أستطيع أن أحتمل هذا الندم بنفس الثمن . لسوف أظل دائما أعبدك . وأبقى جديرا بحبك ، طالما ظلت حاجتى إلى احترامك أكبر من حاجتى إلى امتلاكك . إننى أكل أمر نفسك إلى نفسك ، وأضحى فى سبيل اتحاد قلبينا بكل متعى ! . . وخير عندى أن أموت ألف مرة من أن أسعى إلى إذلال من أحب ! » .

ولقد ظللت أمينا على هذا القرار فى ثبات وحزم أجرؤ على القول بأنهما جديران بالشعور الذى دفعنى إلى هذا القرار . ومنذ تلك اللحظة كنت أنظر إلى تلك الأم العزيزة بعينى الابن البار ! . . ولا بد لى من أن أضيف إلى هذا أن قرارى ، وإن لم يكن قد صادف موافقة منها شخصيا ـــ كما تبين لى جليا ـــ إلا أنها لم تحاول قط أن تثنينى عن عزمى بتلك الاقتراحات المغرية ، ولا الملاطفة ، ولا بسبل الغواية التى تجيد النساء استخدامها

دون أن تصبن أنفسهن بالجروح ، والتى نادرا ما يمنين فيها بالفشل !

* * *

ووجدتنى مكرها على أن أسعى إلى مصير مستقل عن « ماما » .. واستعصى على التفكير ، فسرعان ما ارتميت فى أحضان نقيضه تماما ، إذ سعيت إلى البحث عن المصير المنشود عندها هى نفسها .. واستغرقت فى البحث عنه عندها ، حتى أفلحت فى نسيان نفسى أو كدت ، واستوعبت مشاعرى الرغبة الملحة فى أن أراها سعيدة مهما كان الثمن .. ولقد كان من العبث لها أن تفضل سعادتها على سعادتى ، فلقد كنت أرى سعادتى فى أغوار سعادتها ، بالرغم منها !

وهكذا ، بدأت تنمو مع مصائبى ، تلك الفضائل التى كانت بذورها قد غرست فى أعماق قلبى ، والتى هذبتها الدراسة ، ولم تكن تنتظرها إلا الشدة حتى تؤتى ثمارها . وكانت النتيجة الأولى لإنكار الذات والتجرد عن الغرض ، أن زال من قلبى كل شعور بالحقد والحسد نحو ذلك الذى حل محلى ، بل أننى ـ على العكس من ذلك ـ كنت أريد فى إخلاص صادق أن أصبح وثيق الصلة بهذا الشاب ، وأن أصوغ خلقه ، وأعلمه وأشعره بسعادته ، وأجعله جديرا بها إذا أمكن . وبالاختصار أن أفعل له ما سبق لآنيه أن فعله من أجلى فى ظروف مماثلة !.. إلا أن طبيعتينا لم تكونا متماثلتين . ومع أننى كنت أرق حاشية وأوسع علما من آنيه إلا أننى لم أوت قلة مبالاته أو ثباته أو قوة

خلقه ، التى كانت تبعث على الاحترام ، والتى كان لابد منها لضمان النجاح . زد على ذلك أننى لم أكن أجد فى هذا الشاب الصفات التى وجدها « آنيه » فى ، وأعنى : دماثة الخلق والحب والعرفان بالجميل .. وأهم من هذا كله ، الإدراك بأننى أحتاج لرعايته ، والرغبة الملحة فى الانتفاع بهذه الرعاية .

كانت تعوزه كل هذه الصفات . وكان هذا الذى أردت أن ألقنه العلم ، لا يعتبرنى أكثر من متحذلق يبعث على السأم والضجر ، ولا يحسن من الأمور سوى الثرثرة . وكان ـ من ناحية أخرى ـ يعجب بنفسه بوصفه شخصا له شأنه فى المنزل . فكان يغالى فى تقدير الخدمات التى يحسب انه كان يؤديها بالضوضاء التى كان يحدثها . وكان يرى أن فؤوسه ومعاوله أنفع كثيرا من كل كتبى القديمة !.. ولقد كان مصيبا بعض الشىء ، ولكنه ـ اعتمادا على هذا ـ كان يزهو ويستكبر فى صورة تدعو المرء إلى الإغراق فى الضحك . وكان يحاول أن يمثل مع الفلاحين دور سيد من سادة الريف ، فما لبث أن أخذ يعاملنى نفس المعاملة ، بل انه راح يعامل «ماما» كذلك!.. وإذ بدا له أن الاسم « فتزونريد » لم يكن فيه ما يميزه ، هجره واتخذ له اسم السيد دى « كورتيل » ، وهو الاسم الذى عرف به فيما بعد فى (شامبيرى) وفى (موريين) حيث تزوج !

ومجمل القول أن هذا الشخص البارع لم يلبث أن أصبح كل شىء فى المنزل ، بينما أصبحت أنا .. لا شىء !.. ولو أن سوء الطالع ساقنى إلى إغضابه ، فإن « ماما » هى التى كانت

تتلقى اللوم بدلا منى ، ولهـــذا السبب فإن خوفى من تعريضها
إلى ســــلوكه الفظ كان يدعو إلى ان أجيبــــه إلى كل رغباته
وعندما كان يقبل على تكسير الأخشاب ــ وهو عمل كان يفخر
به كل الفخر ــ كنت أقف متفرجا عاطلا ، ومعجبا صامتا بقوته
وجلده على العمل ! على أن سجاياه لم تكن فى مجموعهـــا
بالسجايا القبيحة .. لقد كان يحب « ماما » لانه ما من أحـــد
كان يستطيع أن يمسك نفسه عن حبهـــا . ثم انه لم يظهر لى
شيئا من النفور أو الكراهية ، وكان فى اللحظات التى يستولى
فيها السكون عليه ، ينصت إلينا هادئا ، ثم يعترف فى صراحة
بأنه لم يكن إلا أحمق .. ولا يلبث ــ بعد ذلك مباشرة ــ أن
يرتكب حماقات جديدة . زد على ذلك ان إدراكه كان محدوداً ،
كما كان ذوقه وضيعا ، حتى لقد كان يتعذر على المرء مجادلته ،
أو الشعور بالراحة معه . ولم يقنع بالظفر بأشد النساء فتنة
وسحرا ، بل انه جمع ــ على ســـبيل التغيير ــ بينها وبين
وصيفة عجوز حمراء الشعر خلا فمها من الأســـنان ، وكانت
« ماما » تحتمل خدماتها ــ التى تثير فى النفس الاشمئزاز ــ فى
صبر وأناة ، وإن كانت تضيق بهـــا كل الضيق ! وإذ شاهدت
هذا اللؤم الجديد ، بلغ منى الحقد والغيظ مبلغهما . على اننى
لاحظت شيئا آخر ــ فى الوقت ذاته ــ كان أشد تأثيرا فى نفسى ،
ودفعنى إلى اليأس أكثر من أى أمر آخر وقع حتى ذلك اليوم .
وكان هذا الشىء هو فتور فى مسلك «ماما» نحوى ، أخذ يزيد
رويدا رويدا !

ذلك أن الحرمان الذى فرضته على نفسى، والذى تظاهرت

هى بالموافقة عليه ، إنما هو أحد تلك الأمور التى لا تغتفرها
النساء قط ــ وإن تظاهرن بقبولها ! ــ لا بسبب ما حرمن من
منه ، وإنما بسبب الشعور بعدم الاكتراث الذى ينطوى عليه
الأمر . ولو انك أخذت ــ على سبيل المثال ــ أوفر النساء عقلا ،
وأكثرهن فلسفة وأقلهن شبقا ، لوجدت أن الجريمة الوحيدة
التى لا تغفرها هـــذه المرأة للرجل قط ــ ولو كان اهتمامها به
فيما عدا ذلك أضأل ما يكون ــ هى أن يكون بوسعه أن يستمتع
بها ولكنه لا يفعل! .. وليكن مفهوما أن هذه القاعدة بلا استثناء،
إذ أن العاطفة ــ مهما تكن طبيعية وقوية ــ لا تلبث أن تتغير
لدى المـــرأة بسبب الحرمان الذى لا باعث له سوى الفضيلة
والحب والتقدير .. ومنذ ذلك الحين ، لم أعد أجد لدى «ماما»
تلك الصلة الوثيقة التى تربط بين قلبين ، والتى كانت تفعم
قلبى دائما بأحلى المتع . ولم تعد تبوح لى بأسرارها ، اللهم إلا
أن تشكو من ذلك الدخيل . أما عندما يكونان معا على صفاء ،
فاننى لم أكن أحظى بأسرارها .. ولم تلبث ــ آخـــر الأمر ــ
أن انتهجت نحوى مسلكا باعد بينى وبينها تدريجا ، ومع ان
حضورى ظل مبعث سرور لها ، إلا أنه لم يعد ضرورة لا غنى
لها عنها ، حتى لقد كنت أقضى أياما بطولها دون أن أراها ،
فما كانت لتفطن إلى ذلك !

* * *

ووجدتنى ــ دون أن أفطن ــ معزولا وحيدا فى هـــذا
المنزل الذى كنت فيه قبل ذلك بمثابة « الروح » ! .. والذى
أصبحت أحيا فيه حياة مزدوجة كما ينبغى أن يقال ... فألفت

تدريجا أن أغض الطرف عن كل ما كان يقع فى هذا المنزل ، بل
أننى أخذت أعتزل أولئك الذين كانوا يقيمون فيـــه . ولكى
أجنب نفسى العذاب المتصل ، رحت أحتبس نفسى مع كتبى ،
أو أذهب فأبكى وأتأوه ما شاء لى الهوى وســط الغـابات .
وسرعان ما أصبحت تلك الحياة فوق ما يطيقه إنسان، وشعرت
بأن الوجود الشخصى مع البعد القلبى بالنسبة لامـرأة كنت
أعزها كل هذا الاعزاز ، كان يهيج شجونى .. وأن الكف عن
رؤيتها ، أقل قسوة ! ولذلك قررت أن أهجر المنزل .. ولقد
قلت لها هذا ، فإذا بها تحبذه ، بدلا من أن تعارضه !.. وكانت
لها صديقة فى (جرينوبل) ـ تدعى السيدة « دييبان » ـ كان
زوجها صديقا للسيد « دى مابلى » ، محافظ مدينة (ليون) .
ولقد اقترح السيد دييبان أن أتولى تعليم أولاد السيد دى مابلى،
فقبلت ، ورحلت إلى ليون دون أن أسبب لنفسى ـ بل دون
أن أشعر تقريبا ـ بأقل أسف على فراق كان مجرد التفكير
فيه ـ فيما مضى ـ يبعث فينا آلاما كنزعات الموت !

وكانت لدى المعرفة الضرورية ـ تقريبـا ـ لكى أكون
مربيا ، وأعتقد أننى أوتيت موهبة لذلك . وقد اتسع لى الوقت
ـ فى السنة التى قضيتها بمنزل السيدة دى مابلى ـ كى أكتشف
عن حقيقة نفسى ، فإذا ما فطرت عليه من سماحة ورقة ، كفيل
بأن يجعلنى أهلا لهـذه المهنة ، لولا ما كان يشوبه من حـدة
الطبع .. فقد كنت كالملاك الكريم ، طالما سارت الأمور على
ما يرام ، وطالما كنت أرى تعبى وعنـايتى ـ اللذين لم أكن
أقتصد فيهما ـ يؤتيان ثمارا . ولكننى كنت أغدو شيطانا إذا

ما انقلبت الأمور . وعندما كان يستعصى على تلميذى فهمى ،
كنت أهذى كالمجنون ، فإذا بدت منهما أمارات تنم عن خبث
وعصـيان ، فاننى كنت أتمنى لو استطعت أن أقتلهما ! ..
وما كان هذا المسلك ليكفل لهما العلم أو الأدب .. وكانا غلامين
يختلف طبع كل منهما عن الآخر كل الاختلاف : أحدهمـا فى
الثامنة أو التاسعة من العمر ، ويدعى « ســانت مارى » ، له
وجه جميل ، وعقل متفتح . وكان نشيطا ، طائشـا ، لعوبا ،
ماكرا .. إلا أن مكره كان يتسم دائمـا بالمرح ! .. أما الأصغر
ـ واسمه « كونديلاك » ـ فقد كان غبيا أو يكاد ، تافها كسولا،
أوتى عناد البغل .. وكان عاجزا عن أن يتعلم شيئا !

ولقد أكرهت على تقسيم عملى بين الاثنين ، كما هو واضح
للقارىء ، ولعلنى كنت مستطيعا بشىء من الصبر والهدوء أن
أوفق فى عملى ، ولكننى كنت خلوا منهما ، ومن ثم فاننى لم
أحرز مع تلميذى أى تقدم ، وكانت النتيجة غاية فى السوء ..
وما كنت لأفتقر إلى المثابرة ، وإنما كان يعوزنى الاتزان والكياسة
بوجه خاص .. إذ أننى لم أكن أعـرف من الأسـاليب التى
تستخدم مع الأطفال إلا ثلاثة ، كانت كلها دائما عقيمة عديمة
الجدوى ، وكثيرا ما كانت تعود عليهم بأبلغ الضرر .. وهـذه
السبل الثلاث هى : العاطفة ، والمجادلة ، والغضب . ولقد
تأثرت ذات مرة من « سانت مارى » تأثرا ذرفت معه الدمع ،
وحاولت أن أثير فيه عاطفة مماثلة ، كأنما كان فى وسع الطفل
أن يتأثر تأثرا صحيحا ! .. وفى مناسبة أخرى أرهقت نفسى فى
مجادلته ، وكأنه كان قادرا على أن يفهمنى ! وما كان يلجأ فى

بعض الأحيان إلى جدال غاية فى المكر والدهاء ، فقد اعتقدت انه ولابد ذكى ، ما دام يعرف كيف يجادل ! .. أما « كونديللاك » الصغير ، فقد كان اشد جلبا للضيق والضجر ، إذ انه لم يكن يفهم شيئا ، ولا يجيب عن أى سؤال ، ولا يتاثر بأى مؤثر ! .. كان عنيدا لا يتزحزح عن موقفه ، ولم يكن موفقا فى شيء اللهم إلا فى إثارة غضبى . وإذ ذاك ، كان يغدو هو العاقل وأنا الطفل !

لقد تبينت كل أخطائى ، وكنت أدركها تمام الإدراك . إذ اننى درست اخلاق تلميذى وأفلحت فى سبر غورهما . ولا أعتقد أن حيلهما انطلت على مرة ، ولكن ما جدوى تبين الشر إذا كنت لا أعرف كيف أعالجه ؟ .. ومع أننى كنت أستشف كل شيء ، إلا اننى لم اكن أمنع شيئا ، ولم افلح فى شيء .. كان كل ما افعله هو عين ما كان ينبغى لى الا افعله !

ولم يكتب لى ـ فيما يتصل بأمر نفسى ـ من النجاح ، أكثر مما كتب لى فيما يتعلق بتلميذى ، وكانت السيدة «دبيان» قد أوصت بى السيدة دى مابلى ، وطلبت منها أن تهذب عاداتى وان تطبعنى بطابع يتفق والمجتمع الراقى ، فجهدت السيدة فى ذلك بعض الجهد ، وارادت أن تعلمنى كيف اشرف البيت الذى أنزل فيه ، بيد اننى أبديت من الارتباك والخجل بل والغباء ما ثبط همتها ودعاها إلى اليأس منى . ولكن هذا لم يمنعنى من الوقوع فى حبها بطريقتى المعهودة . وقد عملت على أن تلاحظ هذا ، وإن لم أجرؤ ابدا على البوح لها بحبى ، ولم يكن من طبيعتها أن تتودد قط إلى رجل ، ومن ثم فقد

ذهبت غمزاتى ونظراتى وتأوهاتى أدراج الرياح ، وسرعان ما سئمتها ، إذ رأيت أنها لم تكن تؤدى إلى شيء !

وكنت أثناء إقامتى مع «ماما» قد فقدت تماما الرغبة فى السرقات الصغيرة ، إذ أننى حين رأيت أن كل شيء قد بات ملك يدى ، لم أعد أجد ما يدعو إلى السرقة ! فضلا عن ان المبادىء السامية التى انتهجتها كانت كفيلة بأن تجعل منى فى المستقبل شخصا ساميا لا يأتى أمثال هذه الصغائر ، وهذا ما صرت إليه ـ يقينا ـ منذ ذلك الحين .. بيد أن هذا لم يكن راجعا إلى أننى استأصلت الداء من جذوره ، وإنما كان مرده إلى أننى تعلمت التغلب على ما كان ينتابنى من إغراء . وكان الخوف كثيرا ما يتملكنى من أن أوغل فى السرقة ـ كما كنت أفعل فى طفولتى ـ إذا عاودتنى الرغبة وتهيأت لى الفرصة. وقد تبدى لى الدليل على ذلك فى دار السيد « دى مابلى » . فبالرغم من كثرة الأشياء الصغيرة التى كانت تحيط بى ، والتى كانت فى متناول يدى ، إلا أننى لم أولها نظرة واحدة .. غير أن رغبة قوية تملكتنى فى الحصول على نبيذ أبيض بسيط المفعول اسمه نبيذ « أربوا » ، كان لذيذ الطعم ، وقد طاب لى كثيرا بعد أن تناولت منه بضع كؤوس على المائدة .. وكان كثيفا بعض الشيء ، وقد زهوت بمهارتى فى تنقية النبيذ ، فعهد إلى بهذا النوع بالذات ، فقمت بتنقيته ، ولكنى أفسدته أثناء ذلك . على أن الفساد لم يلحق إلا مظهره ، فظل لذيذ الطعم ، وكنت أنتهز الفرصة لآخذ بعض الزجاجات بين الحين والحين أتجرعها عندما يحلو لى ، ولكنى [illegible] الحظ ـ

لم اك اقوى على أن أشرب دون أن أقرن الشراب بالأكل ، فما حيلتى فى الحصول على الخبز ؟ .. كان من المستحيل على أن احتفظ بشىء منه . ولو اننى أرسلت الخدم لشرائه ، لانفضح أمرى ، ولكان ذلك ــ فى الوقت نفسه ــ إهانة ، أو شبه إهانة، لرب البيت ، كذلك كنت أخشى أن أشتريه بنفسى ، فكيف يستطيع سيد مهذب ــ والسيف إلى جانبه ــ دخول مخبز وشراء رغيف من الخبز ؟ .. واخيرا تذكرت الملجأ الأخير الذى لجأ إليه أمير كبير قيل له ان الفلاحين لم يكونوا يجدون الخبز ، فأجاب بقوله : « إذن دعوهم ياكلون الفطائر ! » .. ولكن ، يا للمشقة التى كابدتها فى الحصول على الفطائر ! .. كنت أخرج وحدى فى طلبها ، فأجتاز المدينة بأكملها فى بعض الأحيان من طرف إلى طرف ، وأمر بثلاثين محلا من محلات الفطائر ، قبل أن ادخل احدها . وكان من الضرورى الا يكون فى المحل غير شخص واحد ، وان تكون سمات هذا الشخص بشوشة جدا ، قبل أن يستقر رأيى على المغامرة .. وما أن كنت أفوز بكعكتى الصغيرة العزيزة ، وأحكم غلق باب غرفتى على ، حتى كنت آتى بزجاجة نبيذى من قاع صوان بغرفتى .. ويا للنشوات الصغيرة اللذيذة التى نعمت بها وحدى وانا اقرأ بضع صفحات من رواية ! .. فقد كنت أحب دائما أن أقرأ وأنا أتناول طعامى إذا كنت وحيدا ، فإن القراءة أثناء الطعام ، كانت دائما الهواية التى تعوضنى عن سمير أخلو إليه . وكنت التهم صفحة ثم ازدرد لقمة ، وكأن كتابى كان يتناول الطعام معى !

وانا لم أكن أبدا فاسقا أو سكيرا ، بل الواقع أننى لم أثمل



فقد كنت أحب دائما ان اقرأ وانا اتناول طعامى اذا كنت وحيدا !

فى حياتى قط ! . . وهكذا توالت سرقاتى الصغيرة ، التى لم تك تخلو تماما من الحرص والحذر ، بيد أنها لم تلبث أن اكتشفت ، إذ فضحت الزجاجات أمرى . ولم توجه إلى اية ملاحظة ، إلا أن القبو لم يعد موكولا إلى ، وقد تصرف السيد « دى مابلى » فى هذا كله تصرفا كريما معقولا ، فقد كان رجلا شهما ، يخفى تحت ستار من الخشونة الملائمة لمنصبه نزعة رقيقة حقا ، وطيبة قلب نادرة ! . . كان ذكيا عادلا ، بل إنه كان لطيفا ، وهو أمر لا تنتظره من ضابط من ضباط البوليس الراكب . وقد قدرت له تسامحه فأصبحت اكثر تعلقا به ، وحملنى هذا على أن أمكث فى منزله فترة أطول مما كان ينبغى لى ، ولكننى وقد كرهت آخر الأمر مهنة لم اكن اصلح لها — بعد أن زججت بنفسى فى موقف كله تعب ، ولم يكن فيه ما يسر . وبعد سنة من التجربة لم اقتصد فيها شيئا من جهدى — قررت أن أترك تلميذى وأنا مقتنع بأننى لن افلح فى تنشئتهما تنشئة صحيحة . وكان السيد دى مابلى يرى هذا جيدا كما كنت أراه ، على أننى لا أعتقد أنه كان يقدم على فصلى — من تلقاء نفسه — لو لم اكفه مؤونة العناء . . ومن المحقق أن هذا التساهل المفرط — فى حال كهذه — ليس مما أقره !

ومما زاد فى عدم احتمالى لمركزى ، أننى كنت أقارنه على الدوام بذلك المركز الذى خلفته ورائى : ذكرى (شارميت) الغالية ، وذكرى حديقتى واشجارى ، ونبعى ، وبستانى — وفوق هذا وذاك — ذكرى تلك التى اشعر أننى خلقت من أجلها ، والتى كانت حياة كل شىء وروحه . وعندما كانت تعاودنى

ذكرى متعنا وحياتنا البريئة ، كان قلبى يرزح تحت شعور من الضيق والاختناق يسلبنى الشجاعة والقدرة على أن افعل أى شىء ! وقد راودتنى — مائة مرة — رغبة عنيفة فى الانطلاق لفورى على قدمى ، والعودة إلى السيدة دى فاران . . كنت على استعداد لأن أموت لفورى راضيا ، لو قدر لى أن أراها مرة أخرى !

ولم أستطع — آخر الأمر — أن أقاوم هذه الذكريات الرقيقة — التى كانت تنادينى إليها — مهما يكن الثمن ، فقلت لنفسى إننى لم أتذرع بما يكفى من الصبر والكرم والود ، وأننى لو كنت قد أجهدت نفسى أكثر مما فعلت لظللت أعيش معها فى علاقة من الصداقة الخالصة ، وقد وضعت أجمل المشروعات فى العالم وتحرقت شوقا إلى تنفيذها !

* * *

وهكذا ، تركت ذات يوم كل شىء ونبذت كل شىء ، ثم شرعت فى رحلتى أنهب الأرض نهبا ، فوصلت إلى الدار بعد استخدام جميع وسائل المواصلات التى توفرت لى فى صدر شبابى . . ووجدتنى عند قدميها مرة أخرى ! أواه ! لقد كنت أموت مغتبطا ، لو أننى وجدت — عند عودتى — فى استقبالها إياى ، أو فى عينيها ، أو فى عناقها ، أو — أخيرا — فى قلبها ، ربع ذلك الذى كنت أجده من قبل ، والذى كانت نفسى مفعمة به فى عودتى !

واحسرتاه على ما يصادف البشر من خدع قاتلة ! . . لقد تلقتنى « ماما » بذلك القلب الطيب الذى لا يموت إلا بموتها ،

ولكنى بحثت عبثا عن الماضى الذى ولى إلى غير عودة . وما ان مكثت معها نصف ساعة ، حتى شعرت بأن سعادتى السابقة قد زالت إلى الأبد ، ووجدتنى فى نفس المركز المحزن الذى اضطررت إلى الهرب منه دون أن أستطيع توجيه اللوم إلى إنسان ! .. ذلك أن « كورتيل » لم يكن فى قرارة نفسه فتى شريرا ، وقد لاح عليه السرور ــ لا الضيق ــ لمرآى . ولكن كيف أستطيع أن احتمل وجودى كشخص زائد عن الحاجة ، عند تلك التى كنت لها كل شىء ، والتى لن تكف عن أن تكون لى كل شىء ؟ .. كيف أستطيع أن أعيش غريبا فى منزل كنت أشعر أننى ابنه ؟ .. بل ان رؤية الأشياء التى شهدت هنائى الماضى ، كانت تزيد المفارقة إيلاما .. وكنت خليقا بأن اغدو أقل ألما فى اى جو آخر للمعيشة ، فإن شعورى بأننى كنت أذكر دون انقطاع كل تلك الذكريات الحلوة ، كان يهيج فى صدرى الإحساس بفداحة ما فقدت .. وإذ راحت الحسرات ــ التى لم يكن من ورائها طائل ــ تنهش قلبى ، واستبدت بى اشد الوان الكآبة سوادا ، اخذت الوذ بالوحدة فى غير أوقات الطعام ، وانفردت بكتبى ، وسعيت إلى أن أجد فيها بعض التسلية النافعة !

وشعرت بأن الخطر ــ الذى كنت اخشاه طويلا ــ بات وشيك الوقوع ، فأخذت أجهد عقلى من جديد ، محاولا أن أجد من نفسى وسيلة للتحصن ضده إذا ما نضبت موارد « ماما » .. فلقد كنت ادير شئونها المنزلية على أساس ان لا تزداد الأمور سوءا ، أما بعد أن تركتها فقد تغير كل شىء ..

كان مدبر ماليتها مسرفا ، يريد أن يختال بجواد أصيل وعربة .. وكان مولعا بتمثيل دور النبيل أمام الجيران ، كما انه كان ــ فى كل ذلك ــ يؤدى عملا لا يعرف عنه شيئا . وكان معاش « ماما » مستنفدا مقدما . إذ كانت الدفعات التى تواتيها منه ــ كل ثلاثة أشهر ــ مرهونة ، وكانت متأخرة فى دفع الإيجار ، وقد تراكمت عليها الديون ، وتوقعت أن يحجز على معاشها ، أو ان يقطع عنها نهائيا .. ومجمل القول اننى لم أر أمامى إلا الخراب والكوارث ، وبدت لى تلك اللحظة وشيكة ، حتى لقد تجسم أمام ناظرى كل ما تنطوى عليه من فظائع !

وكانت غرفتى العزيزة الصغيرة هى ملهاتى الوحيدة ، وبعد أن بحثت طويلا عن أدوية لعلاج قلقى العقلى ، فكرت فى ان ابحث عن علاج للمتاعب التى كنت اتنبأ بها ، وعدت إلى أفكارى القديمة ، وبدأت فجأة أبنى القصور فى أسبانيا ، محاولا أن أنقذ « ماما » المسكينة من النهاية القاسية التى كنت أراها على وشك التردى فيها ! .. لكنى لم أكن أشعر اننى على علم كاف ، ولا كنت أعتقد أننى موهوب إلى حد يكفى لأن يلمع نجمى بين رجال الأدب ، أو ان أجمع ثروة بهذه الوسيلة .. وألهمتنى فكرة جديدة ــ خطرت لى ــ بالثقة التى عجزت عنها مواهبى المتوسطة .. ذلك اننى لم أكن قد أقلعت عن دراسة الموسيقى عندما كففت عن تدريسها ، بل اننى ــ على النقيض من ذلك ــ كنت قد درست نظرياتها دراسة تكفينى لأن أعتبر نفسى عالما فى هذه الناحية من الفن . وبينما كنت استرجع الصعوبة التى صادفتنى فى تعلم قراءة « النوتة » بالصعوبة

الكبرى التى كنت لا أزال الاقيها فى الغناء بمجرد النظر إلى « النوتة » ، اخذت افكر فى أن هذه المشقة قد تكون راجعة إلى طبيعة الأمر وليس إلى عجزى وقصورى ، لا سيما واننى كنت اعلم انه ليس من السهل على أى إنسان ان يتعلم الموسيقى . وعندما فحصت ترتيب العلامات الموسيقية وجدت انها كثيرا ما تنم عن سوء ابتكار .. وكنت قد فكرت طويلا فى التعبير عن السلم الموسيقى بالأرقام ، وذلك لتفادى رسم الخطوط والعلامات المدرجة عند الرغبة فى كتابة ابسط النغمات . ولم تكن تعوقنى سوى صعوبات تتصل بالطبقات والزمن وقيم « النوتة » .

وقد عاودتنى هذه الفكرة من جديد ، فلما أنعمت النظر فيها ، وجدت أن هذه الصعوبات ليست مما يتعذر التغلب عليه .. وافلحت فى تنفيذ فكرتى ، فاستطعت آخر الأمر أن اكتب أى موسيقى ـ مهما يكن شأنها ـ باكثر ما يمكن من الدقة .. بل أن بوسعى أن اقول : باكبر قدر من البساطة . واعتبرت نفسى ـ منذ تلك اللحظة ـ من أصحاب الثراء ! .. ولم أعد افكر ـ وأنا شديد الشوق إلى أن تقتسم معى ثروتى ، تلك المرأة التى كنت مدينا لها بكل شىء ـ إلا فى الارتحال إلى باريس ، موقنا من أننى سأحدث انقلابا بمجرد عرض مشروعى على المحفل (الأكاديمية) ! .. وكنت قد حملت معى ـ من ليون ـ قليلا من المال ، كما أننى بعت كتبى . وهكذا لم يمض أسبوع ، حتى أصبح قرارى معدا للتنفيذ ، فرحلت اخيرا عن (سافوا) ، حاملا معى مشروعى الموسيقى ، وانا مفعم بالأفكار

الرائعة التى الهمنيها هذا المشروع ، كما رحلت من قبل عن (تورين) مصطحبا نافورتى الصغيرة !

تلك كانت اخطاء شبابى وعيوبه ، سردت قصتها بإخلاص صادق يرضى قلبى . وإذا قدر لى ـ فيما بعد ـ أن أمجد السنوات التالية من عمرى ، سنوات النضج ، بأية فضيلة من الفضائل ، فلن أكون ـ فى ذلك ـ إلا منتهجا عين الصراحة التى اتبعتها من قبل ، فهذه هى نيتى وغايتى !

على أنه من الواجب أن أتوقف هنا .. إن الزمن كفيل بأن يدفع كثيرا من الأستار والأحجبة . وإذا قدر لمذكراتى أن تنتقل إلى الأجيال المقبلة ، فقد تفهم هذه الأجيال يوما ما كان ينبغى أن أقول ! .. وإذ ذاك سيتبين السر فى إخلادى إلى الصمت !

الكراسة السابعة

سنة ١٧٤١

بعد عامين من الصمت والصبر ، أعود إلى القلم بالرغم مما كنت قد اعتزمت . فأمسك أيها القارىء حكمك على الأسباب التى تضطرنى إلى ذلك ، فلن يكون بوسعك أن تحكم إلا بعد أن تقرأ ما أنا قائل !

لقد تبين أن شبابى الوادع مضى ينساب فى حياة معتدلة، كثيرة الرفق ، دون ما ضائقات بالغة ، ولا فترات رخاء عارم.. وكان هذا الاعتدال ــ إلى حد كبير ــ نتاج طبيعتى التى جمعت بين التوثب والضعف ، ومن ثم فهى اقل اندفاعا إلى الإقدام ، منها إلى التأثر بالمثبطات .. وأنها لتخرج من تقاعدها بفورات، ولكنها لا تلبث أن تعود بتقاعس واستمراء .. كما أنها تحملنى دائما ــ بعيدا عن الفضائل الكبرى ، واكثر بعدا عن الرذائل الكبرى ــ إلى حياة الخمول والدعة التى كنت أظننى قد خلقت لها ، دون أن تمكننى إطلاقا من تحقيق أى شىء عظيم ، سواء كان طيبا أو خبيثا !

الا ما أعظم اختلاف الصورة التى سأرسمها عاجلا ! .. فإن القدر الذى ظل خلال ثلاثين عاما يحابى ميولى ، راح يعارضها ثلاثين عاما أخرى ، وسيتجلى كيف أن هذا التعارض المستمر بين مركزى وميولى ، قد خلق عيوبا جسيمة ، وتعاسات لم يسمع لها مثيل ، وكل الفضائل ــ فيما عدا القوة ــ التى تجعل من البلايا أعمالا مجيدة !

لقد كتب الجزء الأول بأسره من اعترافاتى ، من الذاكرة .. ولا بد أننى ارتكبت كثيرا من الأخطاء فيه ، أما وأنا مضطر إلى كتابة الجزء الثانى من الذاكرة ــ كذلك ــ فمن المحتمل أنى سأرتكب مزيدا من الأخطاء ! .. فإن الذكريات الناعمة التى تبقت لى عن أعوامى الجميلة ، التى انقضت فى هدوء وبراءة ، قد تركت ألف أثر فاتن أحب أن أسترجعه دون ما توان ! .. ولسوف يتجلى عاجلا مدى اختلاف هذه الأعوام عن بقية عمرى . إن استعادة ذكراها لهى لون من المرارة المتجددة . وبدلا من أن أضاعف مرارات حالى الراهنة بتلك الذكريات الباعثة على الأسى ، فإننى أقصيها إلى أبعد ما أستطيع ، وكثيرا ما أنجح فى ذلك ، إلى درجة أننى لا أقوى على العثور عليها عند الحاجة . وأن هذه المقدرة على نسيان الهموم بسهولة ، لعزاء أسبغته السماء على ، وسط تلك الهموم التى راق للقدر أن يهيلها يوما على رأسى . فإن ذاكرتى التى تستعيد بمقدرة فذة ما يستحب من الأمور ، هى العامل المرجح السعيد الذى يغالب خيالى الفظيع الذى لا يجعلنى أرى سوى القاسى من أحداث المستقبل !

إن كل الأوراق التى جمعتها كى تعيننى على التذكر ، وكى اهتدى بها فى هذا المشروع ، قد انتقلت إلى ايد اخرى ، ولن يقدر لها أن تعود إلى يدى .. ومن ثم فلست أملك مرشدا أمينا أستطيع أن أعتمد عليه ، اللهم إلا واحدا ، يتمثل فى سلسلة الأحاسيس التى كانت تنم عن تتابع نمو كيانى ، وعن الأحداث المتعاقبة التى كانت إما سببا وإما نتيجة لتلك الأحاسيس والمشاعر .. إننى لأنسى بسهولة ، ولكنى

لا أستطيع ان أنسى أخطائى ، كما أننى اقل نسيانا لمشاعرى الطيبة ، فإن ذكراها أعز لدى من ان تمحى عن صفحة قلبى إلى الأبد . ولقد أستطيع أن أحذف شيئا من الوقائع أو أن أحرفها ، وقد أرتكب أخطاء فى التواريخ ، ولكن من المتعذر أن يختلط على الأمر ـ أو أن أخطىء ـ إزاء ما حملتنى عواطفى على فعله . وهذا هو الموضوع الرئيسى هنا . فإن الغرض الحقيقى لاعترافاتى هو أن اكشف بدقة عن دخيلة نفسى فى جميع مواقف حياتى .. فإنى إنما وعدت بأن أروى قصة نفسى . ولكى اكتبها بأمانة ، لا أرانى بحاجة إلى مذكرات أخرى ، إذ يكفينى أن أعود للغوص فى أعماقى ، كدابى حتى الآن !

على أن ثمة فترة تتألف من ست أو سبع سنوات ، أملك ـ لحسن الحظ ـ معلومات وثيقة عنها ، ممثلة فى مجموعة منسوخة من خطابات معينة ، استقرت النسخ الأصلية لها فى حوزة السيد « دى بيرو » . وهذه المجموعة ـ التى تنتهى فى سنة ١٧٦٠ ـ تشمل جميع الفترة التى مكثتها فى « الصومعة » ـ (الارميتاج) ـ ونزاعى الكبير مع من كانوا يزعمون أنهم أصدقائى .. وإنها لفترة من حياتى جديرة بالذكر ، فهى منبع كل البلايا الأخرى . أما بالنسبة للخطابات الأصلية الأقرب عهدا ، والتى بقيت فى حوزتى ـ وهى قليلة العدد جدا ـ فإننى لن أنسخها وأضيفها إلى هذه المجموعة التى قدر لها أن تكون أضخم من أن أرجو أن أوفق فى إخفائها عن عيون رقبائى(١) ،

---

(١) العبارة التى ذكرها « روسو » هى : « اخفائها عن أعين (ارجوسانى)
=

وإنما سأسلكها فى سياق هذا المؤلف نفسه ، عندما يبدو لى أنها كفيلة بأن تلقى أضواء على الوقائع ، سواء لصالحى أو ضدى . ذلك اننى لا أخشى قط أن ينسى القارىء اننى اكتب اعترافاتى ، وأن يظن أننى اكتب تقريظا أو مبررا لما تخلل حياتى .. وإنما يجدر به الا يتوقع ان امسك عن ذكر الحقيقة إذا كانت فى صفى وصالحى .

وفيما عدا ذلك، فليس لهذا القسم الثانى من صفة يشترك فيها مع القسم الأول سوى هذه الحقيقة ، وليس له من ميزة عليه إلا بقدر أهمية الأمور التى يتضمنها . وفيما عدا ذلك ، فلن يخفق هذا القسم فى أن يكون مغايرا لسابقه من كافة الاعتبارات(١) . فلقد كتبت الأول بلذة وسرور وارتياح ، فى

=

اليقظة » .. وارجوسانى هى جمع « أرجوس » . وهو تعبير مجازى ، فان « ارجوس » اسم يطلق فى أساطير اليونان على عملاق ذى مائة عين ، أقامته الربة « هيرا » ـ عندما تولتها الغيرة ـ ليراقب « يو » معشوقة الاله « زيوس » ، التى كانت قد مسخت على شكل بقرة !

(١) التعبير الذى أورده « روسو » هو : « لن يخفق فى أن يكون اقل شأنا » .. وهو ما لا أحسبه يقصده ، فالواقع أن هذا الجزء من اعترافاته ـ وهو الذى يشمل الكراسات من ٧ الى ١٢ ـ يضم أحداثا ومعلومات على قدر كبير من القيمة قد يفوق قدر ما ورد فى القسم الأول . وانما اختار « روسو » هذا الوصف لأنه كان ـ عندما كتب هذا القسم ـ ضحية لانفعالات نفسية قاسية ، أوحت اليه بأن أعز أصدقائه ، الذين أووه فى انجلترا ـ حيث كتب
=

(ووتون) أو فى قصر « تراى » ، وكانت لكل الذكريات التى تواردت على خاطرى مباهج جديدة . ولقد رحت أسترجعها دون انقطاع ، وباستمتاع متجدد ، فاستطعت أن أراجع وأنقح ما أوردته من أوصاف — دون ما ملل أو ضيق — حتى أصبحت راضيا عنها . أما اليوم ، فإن ذاكرتى وعقلى الكليلين يكادان يجعلانى عاجزا عن كل عمل ، ولست أشغل بهذا القسم إلا مكرها ، والأسى يعتصر قلبى .. إنه لا يمثل – بالنسبة إلى – سوى محن وخيانات وغدر وذكريات تحزن النفس وتمزقها .. إننى لأنزل للدنيا عن كل شيء ، كى أوارى فى ليل الزمان ما أنا موشك أن أقوله .. وإنى إذ اضطر إلى الكلام — بالرغم منى — أعمد كذلك إلى الاستخفاء ، وإلى التحايل ، وإلى محاولة الخداع ، وأنحدر إلى تصرفات أنا أبعد الناس عن أن أكون قد خلقت لممارستها !

إن للسقف الذى أوجد تحته عيونا، وللجدران المحيطة بى آذانا . وإننى — إذ يحف بى جواسيس ورقباء أشرار ويقظون، وإذ يتوزعنى القلق والهم — لأسطر على الورق فى عجلة بضع كلمات مفككة لا أكاد أجد وقتا لمراجعتها . فما بالكم بتصحيحها! .. إننى أدرك أن أعدائى لا يزالون – برغم الحواجز الهائلة التى تقام حولى دون انقطاع — فى خوف دائم من أن تجد الحقيقة

=

الكراسات الست الأولى — قد تآمروا عليه مع ملك بروسيا ، فغادر بلادهم ، وظل يتنقل وهو متنكر ، لا يكاد يأمن الى استقرار . ومن هنا ندرك سر التشاؤم والأسى والشك والقنوط التى تطبع حديثه هذا .

منفذا تتسرب منه . فكيف يتسنى لى أن أدفع بها إلى النور ؟.. لسوف أحاول ، وأنا قليل الرجاء فى النجاح . فمنذا الذى يقول إن فى هذا مادة لصور مستحبة ، ولإضفاء ألوان جذابة على هذه الصور ؟ .. إننى لهذا أنذر المقبلين على قراءة هذا ، بأن ليس ثمة شيء — فى سياق هذا الحديث — يستطيع أن يقيهم السأم ، اللهم سوى الرغبة فى استكمال التعرف على إنسان ، وسوى الحب الصادق للحق والصدق !

* * *

تركتمونى — فى القسم الأول — وأنا راحل محسورا إلى باريس ، مخلفا قلبى فى (شارميت) ، حيث أقمت آخر قلعة لى فى أسبانيا(١) ، معتزما أن أعود إلى هناك يوما فأطرح عند قدمى « ماما » — إذ تكون قد ارتدت إلى نفسها وسجيتها — ما أكون قد أحرزت من كنوز ، ومطمئنا إلى طريقتى الموسيقية بوصفها ثروة محققة أكيدة !

وتخلفت بعض الوقت فى (ليون) لأزور معارفى ، ولأحصل على بعض التوصيات التى أفيد منها فى باريس ، ولأبيع كتبى الهندسية التى كنت قد حملتها معى . ولقد رحب بى الجميع ، فأظهر السيد والسيدة « دى مابلى » اغتباطا لرؤيتى ، ودعوانى للغداء عدة مرات ، وتعرفت لديهما بالراهب « دى مابلى » ، كما كنت قد تعرفت من قبل بالراهب « دى كونديللاك »، وكان الاثنان قد أقبلا لزيارة شقيقهما . ولقد أعطانى الراهب

---

(١) اصطلاح يقابل « بناء القصور فى الهواء » عندنا .

« دى مابلى » خطابات تقدمه إلى أناس فى باريس ، منها واحد للسيد « دى فونتنيل » ، وآخر للكونت « دى كايلرس » . وقد اتاحت لى الرسالتان معرفة شخصيتين لطيفتين جدا ، لا سيما السيد الأول الذى لم يكف حتى موته عن أن يؤثرنى بوده ، وعن أن يمنحنى ـ فى الأحاديث التى كانت تدور فى خلواتنا ـ نصائح كان خليقا بى أن أحسن الإفادة منها .

وزرت السيد « بورد » الذى كنت قد تعرفت به منذ وقت طويل ، والذى كثيرا ما ساعدنى بقلب كبير وبأعظم سرور صادق . ولقد ألفيته فى هذه المناسبة على حاله التى عهدتها . فقد كان هو الذى باع كتبى ، كما أعطانى من لدنه ـ أو حصل لى من الغير ـ على خطابات توصية طيبة . وزرت السيد وكيل الحكومة، فقد كنت مدينا له بمعرفة السيد « دى بورد » ، كما أدين له بالتعرف إلى الدوق « دى ريشيليو » ، الذى مر بليون فى ذلك الوقت ، فقدمنى السيد « بالو » إليه . وقد أحسن السيد « ريشيليو » استقبالى ، ودعانى إلى أن أزوره فى (باريس) ـ وهذا ما فعلته عدة مرات ـ ولكن .. دون أن يكون لهذه الشخصية الرفيعة ـ التى سأتكلم عنها كثيرا فيما بعد ـ أى نفع لى !

كذلك زرت الموسيقى « دافيد » الذى أولانى عونه فى ضائقتى فى إحدى رحلاتى السابقة ، إذ أعارنى ـ أو منحنى ـ قلنسوة وزوجا من الجوارب ، لم أردها إليه قط ، ولا هو سألنى أن أردها أبدا ، برغم أننا تقابلنا كثيرا منذ ذلك الحين . على أننى لم ألبث أن قدمت إليه ـ فيما بعد ـ هدية تعادل تلك الأشياء

تقريبا . وبوسعى أن أتحدث عن نفسى بأشياء أفضل من هذا، لو أننى كنت بصدد ما كان ينبغى عمله ، لا ما عملته فعلا .. وهما حالان ليستا سواء ، لسوء الحظ !

كذلك رأيت النبيل السخى «بيريشون»، فلم أفتقد سخاءه المعهود ، فقد منحنى عين الهدية التى كان قد قدمها من قبل إلى « برنار » اللطيف إذ دفع أجر مقعدى فى عربة البريد السريعة .. وزرت الجراح « باريسو » ، أحسن وأفضل الناس عملا . كما قابلت عزيزته « جودفروا » التى كان على علاقة مستمرة بها منذ عشر سنوات ، والتى كانت كل مؤهلاتها تقريبا تتمثل فى لطف الخلق وطيبة القلب ، والتى لم يكن فى وسع المرء أن يراها لأول مرة دون أن يوليها حسن اهتمامه ، ولا أن يفارقها دون ما اشفاق وتأثر ، إذ أنها كانت فى آخر أطوار السل ، الذى لم يلبث أن ماتت به بعد ذلك بقليل . وليس أقدر على كشف الميول الحقيقية لأى إنسان ، من أخلاق أولئك الذين يتعلق بهم[1] .. وقد كان بوسع أى امرىء رأى

---

(١) أردف روسو ـ فى هامش مؤلفه ـ معلقا على هذا بقوله : « ما لم يكن قد خدع فى اختياره من البداية ، أو ما لم تكن شخصية المرأة التى تعلق بها قد تغيرت ـ بعد ذلك بتأثير مجموعة من الظروف غير العادية ، فان من المستحيل أن تكون هذه القاعدة مطلقة . ولو أريد اقرار هذه القاعدة دون تعديل ، لجاز الحكم على « سقراط » بشخصية زوجته « كسانتيت » ، أو « ديون » بشخصية صديقه « كاليبوس » .. وهذا خليق بأن يكون أبعد الأحكام عن الانصاف ، وأكثرها خطلا . وفوق هذا ، لا ينبغى أن تطبق هذه القاعدة هنا على زوجتى تطبيقا يسىء اليها . فهى بالتأكيد أضيق عقلا وأسهل

« جودفروا » اللطيفة أن يدرك شخصية « باريسو » الطيب .

إننى مدين لكل هؤلاء الكرام . ولقد أغفلتهم جميعا ـ فيما بعد ـ لا عن جحود ، بالتأكيد ، وإنما نتيجة ذلك الكسل العتيد الذى كثيرا ما يظهرنى بمظهر الجاحد ! . . بينما الواقع أن ذكرى خدماتهم لم تبرح فؤادى قط ، كما أن اظهارهم على عرفانى ما كان ليكبدنى ما تكبدنيه المثابرة على ذكره . ولقد كانت المواظبة على التراسل أمرا فوق طاقتى دائما، فإنى ما أن أبدأ فى الشعور بتكاسلى فيها ، حتى يحملنى الخجل والحيرة فى طريقة إصلاح عيبى على مضاعفة هذا العيب ، فإذا بى أكف عن الكتابة بالمرة ! ومن ثم فقد لذت بالصمت إزاء هؤلاء ، حتى بدا أننى نسيتهم . ومع ذلك فإن «باريسو» و «بيريشون» لم يلقيا بالا ، فكنت أجدهما دائما كما عهدتهما . أما فى حالة السيد «بورد» ، فلن يلبث أن يتبدى كيف أن الانتقام للشعور بالاهمال، حل ـ بعد عشرين عاما ـ محل الحب الصادق والذكاء البديع!

وما ينبغى لى أن أنسى ـ قبل مبارحة ليون ـ شخصية لطيفة زرتها فى اغتباط لم أشعر قط بمثله ـ وقد تركت فى فؤادى ذكريات جد رقيقة . تلك هى الآنسة « سير » ، التى تحدثت عنها فى القسم الأول(١) ، والتى جددت تعارفى بها عندما

=

انسياقا للخداع مما كنت اتصور ، ولكنها ذات خلق طاهر ، رائع ، خال من اى خبث ، جديرٌ بكلّ تقديرى ، وهذا ما سيظلّ يحظى به ما حييت » .

(١) الكراسة الرابعة . وقد كتب لها « روسو » يوما أروع خطاب غرامى فى كلّ مخلفاته الادبية !

كنت فى دار السيد « دى مابلى » . ولما كان لدى متسع من الوقت ، فى هذه الرحلة ، فقد رأيتها كثيرا ، ومال إليها قلبى فى وجد قوى . ولدى من الاعتبارات ما يحملنى على أن أظن أن قلبها لم يكن على النقيض ، بيد أنها أولتنى من الثقة ما بدد كل إغراء بأن أسىء استغلالها . ولم تكن تملك شيئا ، ولا كنت أنا أملك أكثر منها ، وكان مركزانا جد متشابهين ، إلى درجة لا تغرى بأن نتحد ، لا سيما وأننى كنت ـ بالآراء التى كانت تتملكنى ـ بعيدا كل البعد عن التفكير فى الزواج . ولقد أنبأتنى بأن تاجرا شابا ، يدعى السيد جنيف ، كان يبدو راغبا فى أن يرتبط بها . وقد التقيت به عندها مرة أو اثنتين ، فتراءى لى أنه شاب أمين شريف ، وكان معروفا بذلك . وإذ خيل إلى أنها كانت تحبه ، تمنيت أن يتزوجها ـ وهو ما فعله فيما بعد ـ فأسرعت بالرحيل كى لا أعكر صفو عواطفهما البريئة ، مزجيا لسعادة هذه الشابة الفاتنة دعوات ، لم يقدر لها أن تستجاب على هذه الأرض إلا لأجل قصير . . واأسفاه ! . . جد قصير ! . . فقد علمت فيما بعد أنها ماتت بعد عامين أو ثلاثة من زواجها ! ولما كنت قد شغلت طيلة رحلتى بحسرات عاطفية ، فقد أحسست ـ ولا أزال أحس فى كثير من الأحيان ، كلما فكرت فى ذلك ـ بأنه إذا كانت التضحيات التى يقدم عليها المرء فى سبيل الواجب والفضيلة تكبده ثمنا غاليا ، إلا أنه لا يلبث أن يتلقى الجزاء ممثلا فى الذكريات الناعمة التى تخلفها له تلك التضحيات فى قرارة فؤاده !

وإذا كنت قد رأيت باريس ـ فى رحلتى السابقة ـ من ناحية لا تجعلها أهلا للإعجاب، فإننى رأيت ـ فى هذه الرحلة ـ

جانبها اللامع . على ان هذا لم يكن الشأن بالنسبة لسكناى ، فقد ذهبت ـــ حسب ارشاد السيد بورد ـــ للاقامة فى نزل « سان كنتان » ، بشارع (ديه كوردييه) ، على مقربة من «السوربون» .. وكان شارعا وضيعا ، ونزلا وضيعا ، وحجرة وضيعة .. ومع ذلك فقد اعتاد هذا النزل أن يأوى رجالا محترمين ، من أمثال جريسيه ، وبورد ، والراهبين الشقيقين « دى مابلى » ، وكونديلاك ، وكثيرين غيرهم ـــ وإن لم اعثر فيه ، لسوء الحظ ، على واحد منهم ـــ غير انى التقيت بشاب يدعى السيد « دى بونفون » ، كان ريفيا اعرج ، محاميا ، يحرص على انتقاء الفاظه . وقد تعرفت عن طريقه إلى السيد « روجان » الذى أصبح الآن اقدم أصدقائى . وعن طريقه تعرفت إلى الفيلسوف « ديديرو » ، الذى سأكثر من الحديث عنه فيما بعد .

❋ ❋ ❋

ولقد وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ ، وكل مواردى خمسة عشر «لوى» ، ومسرحيتى الهزلية «نارسيس» ، ومشروعى الموسيقى . ولما لم يكن لدى وقت أضيعه فى محاولة تدبير انفاقها على خير وجه ، فقد أسرعت إلى استغلال خطابات التوصية التى كنت أحملها . واى شاب يصل إلى باريس مزودا بشكل وسيم ، ومعلنا عن نفسه بمواهبه ، تمين بأن يتأكد دائما من انه سيجد ترحيبا . وقد كنت كذلك ، فمكننى هذا من أن أحظى بنعم كثيرة ، وإن كانت لم تساعدنى ماديا بدرجة تذكر . ومن كافة الأشخاص الذين حملت إليهم التوصيات ، لم يثبت سوى ثلاثة انهم نافعون لى ، وهم : السيد داميسان

ـ وكان سيدا من (سافوا)، كان إذ ذاك من الفرسان، وأحسبه كان ذا حظوة لدى الأميرة « دى كارينيان » ثم السيد «دى بوز»، سكرتير ديوان الخطوط وحارس الأوسمة بديوان الملك .. واخيرا الأب « كاستيل » الجزويتى ، مخترع « الكلافيسان »[1] البصرى . وكانت خطابات التوصية للأخيرين منهم صادرة من الراهب « دى مابلى » .

ولقد تكفل السيد داميسان بما كانت تمس إليه حاجتى ، إذ عرفنى إلى اثنين ، أحدهما السيد « دى جاسك » ، رئيس برلمان (بوردو)[1] ، الذى كان يحذق العزف على الكمان حذقا بالغا .. وثانيهما الراهب « دى ليون » ، الذى كان يقيم إذ ذاك فى السوربون ، وكان راهبا شابا ، موفور اللطف، مات فى زهرة عمره ، بعد ان تألق فى المجتمع لبضع سنوات تحت اسم الشيفاليه روهان[2] . وكان كل منهما مشغوفا بتعلم التلحين،

---

(1) الكلافيسان آلة موسيقية ، و « الكلافيسان البصرى » آلة ذات مفاتيح تتصل ـــ الى جانب الأوتار ـــ بمكعبات ملونة . فاذا عزف عليها ـــ كما يعزف على الآلة الموسيقية ـــ تتابعت الألوان تتابع الأنغام ، بحيث تتمشى الألوان الأساسية السبعة الاولى ، مع الأنغام السبعة الاولى فى الموسيقى . وكانت غاية المخترع ، أن يحدث المؤثرات النغمية بالألوان !

(1) فى الأصل : الرئيس ذو القلنسوة المخملية السوداء المستديرة !

(2) بحثنا عن سيرة « الشيفالييه دى روهان » ، فلم نجد من يحمل لقب « شيفالييه » ـــ أى فارس ـــ وينطبق عليه ما ذكره « روسو » عن التألق وقصر العمر ، سوى « الشيفالييه لويس دى روهان » ، الذى اشترك فى مؤامرة

فرحت أدرسه لهما بضعة أشهر ، مما أنعش مواردى المالية الناضبة . ولقد أولانى الأب « ليون » وده ، ورغب فى أن يتخذنى سكرتيرا له ، ولكنه لم يكن غنيا ، فلم يكن بوسعه أن يدفع لى مرتبا يتجاوز ثمانمائة فرنك .. فرفضت منصبه وأنا آسف ، إذ لم يكن مرتبه يكفى لنفقات سكناى وتغذيتى ومستلزمات معيشتى .

أما السيد « بوز » ، فقد استقبلنى استقبالا طيبا جدا . وكان عالما ، ومشغوفا بالمعرفة ، ولكنه كان متغطرسا بعض الشىء . وكانت السيدة دى بوز خليقة بأن تكون ابنته ، لا زوجته ! وكانت لامعة الذكاء ذات مهابة . وقد تناولت الغداء فى دارهما بضع مرات ، وما كان أحد ليشعر بمثل ما كنت أشعر به من خجل وارتباك فى محضرها ، فقد كان مسلكها غير المتكلف يحرجنى ويجعل مسلكى أدعى إلى الضحك .. فإذا قدمت لى طبقا ، كنت أدفع « شوكتى » فألتقط — فى تواضع — قطعة صغيرة مما تقدمه لى ، بطريقة كانت تجعلها ترد إلى خادمها الطبق الذى كانت قد أعدته لى ، وهى تدير وجهها لكى لا أراها وهى تضحك ! .. ومع ذلك ، فما كان يساورها أى

=

قد الملك لويس الرابع عشر ، وأعدم . ولكن هذا عاش بين سنتى ١٦٣٥ و ١٦٧٤ ، أى قبل مولد « روسو » . و « روهان » الوحيد الذى عاصره « روسو » هو الأمير ادوار دى روهان — الذى عاش بين سنتى ١٧٣٤ و ١٨٠٣ — وكان كاردينالا ، ولكنه لم يكن « شيفالييه » . ولعل الأمر التبس على « روسو » ×

ريب فى صلاحية رأس هذا الريفى الشاب ، ولم يفتها أن ترى فيه بعض الذكاء . ولقد قدمنى السيد دى بوز إلى صديقه السيد « دى ريومور » ، الذى اعتاد أن يحضر إلى داره لتناول الغذاء فى أيام الجمعة ، وهى أيام انعقاد اجتماعات محفل العلوم . ولقد حدثه السيد دى بوز عن مشروعى ، وعن الرغبة التى كانت لدى فى أن أضعه تحت اختبار المحفل ، فتكفل السيد دى ريومور بالاقتراح ، فلم يلبث أن حظى بالقبول !

وفى اليوم المحدد لمناقشة المشروع ، تولى السيد دى ريومور تقديمى والتعريف بى . وفى اليوم ذاته — ٢٢ أغسطس سنة ١٧٤٢ — تشرفت بأن قرأت على المحفل المذكرة التى أعددتها لذلك . ومع أن هذا المحفل الجليل كان عظيم المهابة والرهبة — يقينا — فإننى كنت أمامه أقل ارتباكا منى أمام السيدة دى بوز ، واستطعت أن أؤدى القراءة وأن أجيب على الأسئلة بنجاح . فاستقبلت الرسالة بتقدير ، وجلبت لى التهانىء ، مما أدهشنى أكثر مما سرنى .. فما كنت لأتصور أن أى امرىء لا ينتمى إلى المحفل — أيا كان — يبدو لأعضائه ذا إدراك سليم ! وكانت اللجنة التى تولت مناقشتى تتكون من السادة دى ميران ، وهيلو ، ودى فوشى . وكان ثلاثتهم من الأكفاء دون ما ريب .. ولكن لم يكن بينهم واحد يلم بالموسيقى إلماما كافيا — على الأقل — لأن يجعله فى وضع يمكنه من الحكم على مشروعى !

سنة ١٧٤٢

وفى خلال مناقشاتى مع هؤلاء السادة ، تبينت — فى شك أكثر منى فى دهشة — أن العلماء وإن كانوا أقل من سواهم

تحاملا ، فى بعض الأحيان ، إلا أنهم اكثر تشبثا بما يكون لديهم
من آراء ، وكأنهم يجدون فى ذلك لونا من التعويض . فبقدر
ما كانت معارضة هؤلاء السادة واهية ، وخاطئة فى الغالب ،
ومع أننى كنت أردها بحجج قاطعة ـ برغم تهيبى ، كما ينبغى
أن أعترف ، وبرغم سوء تعبيرى ـ إلا أننى لم أوفق مرة واحدة
إلى أن أحملهم على أن يفهموا قولى وأن يقتنعوا به . وكنت
ابهت دائما للسهولة التى كانوا يخطئوننى بها ـ مستخدمين فى
ذلك بعض العبارات الرنانة ـ دون أن يكونوا قد فهموا شيئا . .
ولقد اكتشفوا ـ حيث لا أدرى ـ أن راهبا يدعى الأب
« سوهيتى » ، كان قد تصور فكرة كتابة السلم الموسيقى
بالأرقام . وكان هذا كافيا لأن يزعموا أن طريقتى لم تكن جديدة .
وقد يكون الأمر كذلك ، إذ أننى وإن لم أسمع قط بالأب
سوهيتى ، ومع أن طريقته فى كتابة النغمات الرئيسية السبع
فى الترانيم الكنسية دون أى تفكير فى الثمانيات ، لا تستحق
ـ فى أى اعتبار ـ أن تقاس بابتكارى البسيط الملائم لكتابة
جميع أنواع الموسيقى الممكن تصورها ، فى غير مشقة ، بوساطة
الأرقام : من طبقات ، ووقفات ، وثمانيات ، ومسافات
وتوقيت ، وتقييم . . وكلها أشياء لم تخطر لسوهيتى ببال
إطلاقا . . بالرغم من كل هذا ، فقد كان من الصحيح تماما
أن يقال إنه ـ فيما يتعلق بالتعبير الأولى عن النغمات الرئيسية
السبع ـ كان أول مبتكر فى هذا المضمار . ولكنهم(١) لم
يكتفوا بأن يعزوا إلى هذا الابتكار البدائى اهمية اكثر مما كان

(١) يقصد « روسو » أعضاء المحفل الذين تولوا مناقشته .

يستحقها ، وإنما أبوا أن يقفوا عند هذا ، وبمجرد أن حاولوا أن
يتكلموا عن المبادىء الأساسية للطريقة ، لم يقولوا سوى لغو .

كانت الميزة الكبرى لطريقتى ، هى الاستغناء عن التبديل
والطبقات ، بحيث يمكن كتابة أية قطعة ونقلها حسب الرغبة ،
ومهما تكن الطبقة المنشودة ، بوساطة التبديل المقترح فى حرف
ابتدائى واحد عند بداية اللحن . ولكن هؤلاء السادة كانوا قد
سمعوا بعض مدعى الموسيقى فى باريس يقولون إن طريقة
العزف بتبديل الطبقات غير ذات قيمة . ومن هنا ، قلبوا ابرز
ميزات طريقتى إلى اعتراض ضدها يتعذر التغلب عليه ، وانتهوا
إلى تقرير أن طريقتى صالحة للأداء الصوتى ، وغير صالحة
للأداء الآلى ، بدلا من أن يقرروا ـ كما كان ينبغى ـ أنها صالحة
للأداء الصوتى ، وأكثر صلاحية للأداء الآلى . وبناء على
تقريرهم ، منحنى المحفل شهادة مليئة بالاطراء البديع للغاية ،
يتبدى خلال سطورها أنه ـ فى الواقع ـ لم ير أن طريقتى
جديدة ولا نافعة ! . . ولم اشعر قط بأن من الواجب أن أزين
بمثل هذه الوثيقة مؤلفى الذى سميته « رسالة فى الموسيقى
الحديثة » ، ولجأت فيه إلى تحكيم الرأى العام !

ومن حقى ـ فى هذه المناسبة ـ أن ألفت النظر إلى أن
المعرفة الممتازة بالشىء ـ على شريطة أن تكون شاملة عميقة ـ
أفضل من كافة الأضواء التى تلقيها الثقافة والعلوم ، فى تمكين
المرء من إصابة الحكم ، إذا لم تكن هذه الأضواء مقترنة بدراسة
خاصة للموضوع المعروض على بساط البحث . وكان الاعتراض
القوى الوحيد ، الذى وجه إلى طريقتى ، موجها من « رامو » .

وما أن شرحت له ردى ، حتى تبين ضعفه ، فقال : « ان علاماتك صالحة جدا ، من حيث أنها تحدد القيم الموسيقية ببساطة ووضوح ، كما أنها تعين المسافات بدقة ، وتبين دائما النغم المفرد فى حالة ازدواج النغم ، وهى أمور لا تيسرها طريقة النوتة العادية .. ولكن علاماتك غير صالحة من حيث أنها تتطلب جهدا ذهنيا لا يتناسب دائما مع سرعة الأداء » . واستطرد قائلا : « ان وضع علاماتنا الموسيقية يتجلى للعين دون حاجة إلى الاستعانة بهذا الجهد الذهنى . فإذا ارتبط نغمان ـ أحدهما مرتفع جدا ، والآخر منخفض جدا ـ بسلسلة من الأنغام الوسيطة فإن بوسعى أن أرى ـ من أول نظرة ـ التطرق التدريجى من أحد النغمين إلى الآخر .. أما حسب طريقتك ، فلا بد لى ـ للتاكد من هذا التسلسل ـ من ان أورد كل أرقامك متعاقبة ـ الواحد بعد الآخر ومن ثم فإن النظرة الشاملة لاتمدك بشىء » !

ولاح لى أنه اعتراض مفحم ، فأقررت لتوى بقوته ، فى حين انه بسيط ومدهش ! .. فهو اعتراض لا توحى به سوى الخبرة الواسعة بالفن ، ومن ثم فلا عجب فى أنه لم يخطر ببال احد من أعضاء المحفل ، ولكن هذه هى حال هؤلاء العلماء الكبار جميعا ، فهم يعرفون كل الأشياء ، بيد أن المامهم بكل شىء ـ على حدة ـ قليل ، بحيث لا ينبغى للواحد منهم ان يقضى برأى إلا فيما يتعلق بالفرع الذى اختصه بدراسته !

وقد أتاحت لى زياراتى المتعددة لأعضاء لجنة مناقشة رسالتى ، ولغيرهم من أعضاء المحفل ، فرص التعرف إلى

جميع أولئك الذين كانوا فى طليعة المبرزين فى ميدان الأدب فى (باريس) . ومن ثم فإننى كنت على معرفة قائمة بهم ، عندما وجدتنى ـ فيما بعد ـ مدرجا بغتة فى سلكهم . أما فى الفترة التى اتحدث عنها ، فقد كنت ـ لفرط استغراقى فى طريقتى الموسيقية ـ مصرا على ان أحدث بها انقلابا فى هذا الفن ، وان أحرز بهذا شهرة ترتبط دائما فى ميادين الفن الجميل ـ فى باريس ـ بالثراء ! .. ولهذا احتبست نفسى فى غرفتى وعكفت على العمل شهرين أو ثلاثة فى حمية لا سبيل إلى وصفها ، لأشرح ـ فى مؤلف أقدمه للرأى العام ـ المذكرة التى قرأتها على المحفل . وكانت العقبة تتمثل فى العثور على ناشر يتكفل بمؤلفى ، نظرا لأن الرموز الجديدة كانت تتطلب بعض نفقات، فى حين أن الناشرين لا يبعثرون دراهمهم على رؤوس المبتدئين، مع أننى كنت أرى أن من الإنصاف أن يعود على مؤلفى بالخبز الذى التهمته وأنا اكتبه !

وعثر لى « بونفون » على « كايو » ـ الأب ـ الذى عقد معى اتفاقا على أن نقتسم الربح ، بغض النظر عن «الامتياز»(١) الذى كان على ان أتكفل بدفع نفقاته وحدى . وقد أساء « كايو » ـ المذكور ـ تدبير الأمر ، بحيث أن النقود التى دفعتها لأحصل على الامتياز ذهبت أدراج الرياح ، ولم أخرج بدرهم واحد من هذه الطبعة ، التى كانت ـ فى الواقع ـ ضئيلة

(١) نظام يقابل « حق النشر » ، يقتصر حق طبع كتاب معين ، على مؤلف او ناشر معين .



الرواج ، بالرغم من أن الراهب « ديفونتين » وعد بالعمل على ترويجها ، كما ان غيره من الصحفيين تحدثوا عنها حديثا طيبا!

ولقد كانت العقبة الكبرى فى تجربة طريقتى ، هى أن أحدا لم يكن ليرضى بأن يضيع الوقت الذى يتطلبه تعلمها ، إذا هى لم تصبح الطريقة السائدة فى الموسيقى . وقد قلت ردا على ذلك ، ان المران على أسلوبى فى العلاقات الموسيقية ، يجعل الأفكار من الوضوح بحيث ان الذى يشرع فى تعلم العلامات الموسيقية العادية ، يستطيع أن يقتصد من الوقت الذى يستغرقه تعلمها ، إذا هو بدأ بطريقتى . ولأقامة الدليل العملى، قدمت دروسا فيها – بالمجان – لشابة أمريكية تدعى الآنسة « دى رولان » ، كان السيد روجان قد عرفنى بها . فإذا بها تصبح – خلال ثلاثة أشهر – قادرة على أن تقرأ على «نوتتى» اى نوع من الموسيقى ، وأن تغنى بمجرد النظر إلى « النوتة » – باتقان يفوق اتقانى أنا – كل قطعة غير بالغة الصعوبة . وكان هذا التوفيق رائعا، ولكنه ظل مجهولا. فقد كان أى امرىء سواى خليقا بأن يملأ الصحف به ، اما انا ، فبالرغم من أننى اوتيت المقدرة على اكتشاف الأشياء المفيدة ، إلا أننى لم أعمد قط إلى إبراز قيمتها !

وهكذا تحطمت « نافورتى الصغيرة » مرة أخرى(1) .

(1) يشبه « روسو » مشروعه الموسيقى ، بالنافورة الصغيرة التى بنى عليها آمالا عندما بارح (تورين) ، والتى أورد قصتها فى الكراسة الثالثة بالجزء الأول .

ولكننى فى هذه المرة الثانية ، كنت فى الثلاثين من عمرى ، وكنت قد وجدت نفسى فى طرق (باريس) المعبدة ، حيث لا يستطيع المرء أن يعيش بلا موارد . ولن يدهش القرار الذى انتهى بى إلى هذه النهاية ، سوى أولئك الذين لم يقرأوا بإمعان الجزء الأول من هذه المذكرات ! .. ذلك أننى كنت قد بذلت مجهودا كبيرا ، وإن لم يكن مثمرا ، فكنت بحاجة إلى استجمام . وبدلا من ان استسلم للقنوط ، أسلمت نفسى لخمولى المعهود ، وللعناية الالهية ، ولكى أدع لهذه العناية وقتا كى تقوم فيه بدورها ، فقد اقبلت على انفاق بضع قطع مالية من فئة «لوى» – كانت قد بقيت معى – فى غير ما تعجل !.. ودبرت نفقات متعى البريئة بحيث لا أتخلى عنها ، فلم اعد اذهب إلى المقهى سوى مرة فى كل يومين ، وإلى المسرح مرتين فى الأسبوع. أما النفقات اللازمة لصحبة الفتيات ، فإننى لم أكن بحاجة إلى الحد منها ، لأننى لم أنفق «سو» واحد على هذه الناحية ، فى حياتى ، اللهم إلا فى مناسبة واحدة ، سأضطر إلى الحديث عنها بعد قليل .



عزيزى القارئ ..

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال : «واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ..» .

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقى» فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٣٩ يقول : «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» أخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل» .

.. والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم (مطبوعات كتابى) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، إنها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته ـ خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها ـ دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

